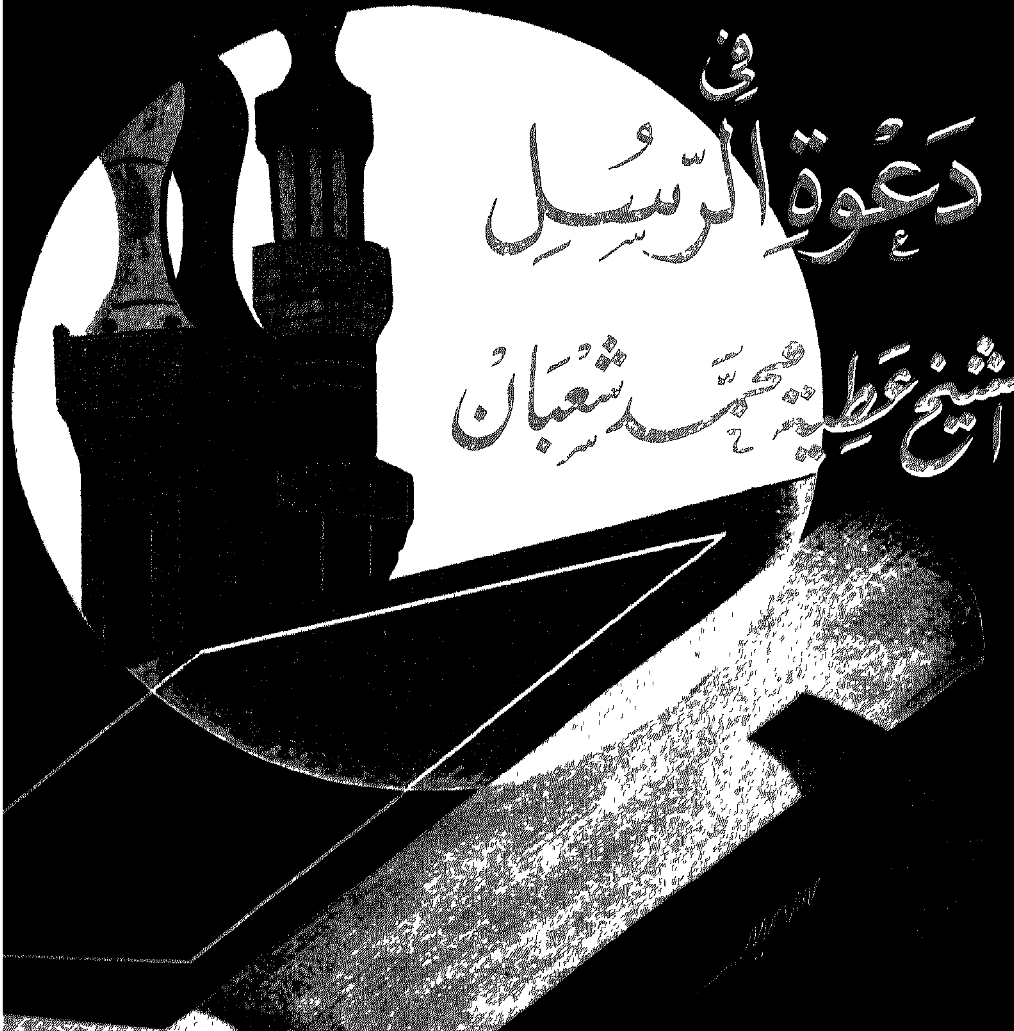
منهج الإسلام العلمي

في

دعوة الرسل

للشيخ عطية محمد شعبان



تقديم

الشيخ السيد عسكر

الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

منهج الإسلام العلمى في دعوة الرسل

• تأليف •

عطية محمد مصطفى شعبان

تقديم فضيلة الشيخ / السيد عبد المقصود عسكر

مدير عام الدعوة والإعلام الديني بالأزهر الشريف

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾

(يوسف : ١٠٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

❑ الكتاب : منهج الإسلام العلمى فى دعوة الرسل .

❑ الكاتب : عطية محمد مصطفى شعبان .

❑ الطبعة : الأولى .

❑ الناشر : **دار البشير للثقافة والعلوم**

❑ التوزيع : دار البشير للثقافة والعلوم / طنطا / أمام كلية التربية النوعية

تليفاكس : 302404ـ308909 . ☎/ 210907

❑ التجهيز الفني : شركة الندى للتجهيزات الفنية . المحلة الكبرى . ص . ب ٢٦٥

❑ الإيداع القانوني : 96 / 11705

❑ الترقيم الدولى : 2 / 037 / 278 / 977 I . S . B . N .

تقديم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله والصلاة والسلام علي سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله إمام الأنبياء والمرسلين وخاتمهم . أكمل الله به الرسالة وأتم به النعمة وأقام به الحجة علي جميع الخلق . وأشهد أن لا إله إلا الله أرسل إلى جميع الأمم ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرين وَمُنذِرين لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾(النساء ١٦٥)

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله بعثه الله علي حين فترة من الرسل ليخرج الناس من الظلمات إلي النور بإذن ربهم إلي صراط العزيز الحميد . فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة .

صلي الله عليه وعلي آل بيته الطاهرين . ورضي الله عن الصحابة أجمعين .

وعن الذين جاءوا من بعدهم من التابعين لهم بإحسان إلي يوم الدين .

« **أما بعد** » فإن تاريخ الإسلام لا يبدأ ببعثة محمد ﷺ كما يتبادر إلي بعض الأذهان ولكنه ـ في الحقيقة ـ يبدأ قبل خلق آدم عليه السلام بأزمنة لا يعلم مداها إلا الله . فمن المعلوم أن الجن خلقهم الله قبل خلق آدم كما صرح بذلك القرآن الكريم . يقول الله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾(الحجر ٢٦ ، ٢٧) .

ويخبرنا القرآن الكريم بأن الجن خلقوا لعبادة الله وحده . شأنهم في ذلك شأن الإنس سواء بسواء يقول الله تعالي : ﴿ وما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون ، مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُون ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾(الذاريات ٥٦ـ٥٨) .

ومن شأن ذلك ـ حسب مقتضي الحكمة الإلهية ـ أن يرسل الله إليهم رسلا يبلغونهم رسالة الله ويقيمون عليهم حجته ، علي أساس القاعدة القرآنية الحكيمة . ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء ١٥)

وقد تضافرت الأدلة علي أن الله تبارك وتعالي أرسل إلي الجن رسلا كما أرسل إلي الإنس وأن منهم من آمن بالله واتبع رسله ومنهم من كفر بالله وكذب رسله . ومن أدلة ذلك قول الله تعالي : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِين ﴾(الأنعام : ١٣٠)

ولايعني ذلك أن تاريخ الإسلام يبدأ مع بداية خلق الجن . بل الصواب أنه موجود قبل دلك فهو الدين الذي تدين به جميع الخلائق . ومعلوم أن الكثير منها كان مخلوقا قبل الجن والإنس ، والقرآن الكريم صرح في كثير من المواضع بأن جميع الخلائق يسجد لله الواحد الأحد ويسبح بحمده ، يقول الله تعالي : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (الحج ١٨)

ويقول الله تعالي : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (الإسراء ٤٤)

وفي الكتاب الذي بين أيدينا عبر مؤلفه الأستاذ عطية محمد شعبان ، عن هذه الحقيقة تعبيراً صادقاً حين قال : (فالكون مسلم مؤمن . وكأنه مسجد كبير تتجاوب جنباته بالتسبيح والتعظيم والتمجيد للأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم له كفوا أحد . كل يصلي ويسبح بالأسلوب الذي حدده له الخالق سبحانه . إن شأن الكائنات عندنا شيء . وشأنها مع ربنا وربها شيء آخر . هي عند الناس مواد غازية وسائلة وصلبة . وجمادات ونباتات وحيوانات . وشموس وأقمار ومجرات . وسماء وأرض . وطيور وأسماك وحشرات ، وبخار وأنهار وأشجار ، ومعادن لاتعقل ، ولكنها فيما بينها وبين الله مؤمنة موحدة مسبحة منقادة ، ونحن نؤمن بذلك (١)

وقد نقل لنا القرآن الكريم صورة رائعة لما يحدث من تجاوب بين الإنسان حين يسبح خاشعاوبين الكائنات من حوله إذ تردد معه تسابيحه وأذكاره .

يقول الله تعالي : ﴿ . . . وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾(ص ١٧-١٩)

وعندما ظهر أول إنسي علي ظهر الأرض وهو أبو البشر آدم عليه السلام فإن دين الإسلام صاحبه ورافقه منذ البداية . يقول الله تعالي : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة ٣٨-٣٩) .

ومضت قافلة الإسلام منذ فجر البشرية وإلي اليوم يتقدمها رسل الله جميعا ومن آمن بهم في كل العصور والدهور ، رب واحد ودين واحد وطريق واحد ورسالة واحدة . وحاملو الراية هم أئمة الهدي . تجمع بينهم الأخوة والسعي لغاية واحدة

---

(١) من هذا الكتاب ص٣.

والعمل المشترك لدين واحد . يقول رسول الله ﷺ : « أنا أولي الناس بعيسي ابن مريم في الأولي والآخرة ، قالوا كيف يا رسول الله ؟ قال : الأنبياء إخوة من علات (١) وأمهاتهم شتي ودينهم واحد فليس بيننا نبي (٢) »

وعلي هذا فإن دين الله واحد ، وهو الإسلام . لايرضي غيره ولا يقبل دينا سواه يقول الله سبحانه ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران ١٩ـ٢٠) .

ويقول الله تعالي : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

فلن يقبل عمل من أحد إلا بالإسلام . وما من نبي إلا وقد دعا إلي الإسلام وما من بشر صدق برسول وآمن به واتبعه إلا كان مسلما . وقد دعا كل نبي قومه إلي الإيمان بالله الواحد وإلي عبادته وحده لاشريك له . كما دعاهم إلي الإيمان بكل الرسل . يقول الله تعالي : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء . ٢٥) .

ويقول الله تعالي ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة ١٣٠ـ١٣٣) .

وعلي هذا الدرب ذاته تسير أمة محمد ﷺ كما أمرهم الله وعلمهم رسوله . يقول الله تعالي : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة ١٣٦) .

ومحمد ﷺ لم يدع إلي دين جديد . وإنما دعا إلي ما دعا إليه الأنبياء من قبله وأتم ما بدأوه . وقد عبر عن ذلك بقوله «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني داراً

---

(١) علات . بفتح العين المهملة وتشديد اللام ، الإخوة من الأب ، أبوهم واحد وأمهاتهم شتي ، يعني أصل دينهم واحد وهو التوحيد وشرائعهم شتي

(٢) رواه مسلم

فأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة في زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون بها ويعجبون لها ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »(1)

مما سبق تتضح الحقائق الآتية

١ ـ دين الإسلام القائم علي توحيد الله وإفراده بالعبادة هو بداية تاريخ البشرية وأما الشرك فدخيل طارئ بفعل وسوسة الشيطان وكيده . ولم تكن الوثنية هي بداية تاريخ البشرية كما روج الأفاقون دون دليل أو أثارة من علم .

٢ ـ دين الله الواحد هو الإسلام وقد بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين . وختمهم بمحمد ﷺ فمن آمن بهم جميعا واتبع هداهم نجا ومن كذب بواحد منهم وأعرض عن الهدي هلك .

٣ ـ لا توجد أي إمكانية لتوحيد البشر وتحقيق السلام العادل بينهم إلا تحت راية الإسلام . وذلك لما يتمتع به من مزايا وخصائص فيما يلي :

أ ـ المساواة بين جميع الخلق فكلهم لآدم . وخلق الله آدم من تراب .

ب ـ التفاضل بين الناس لا يكون علي أساس فوارق الجنس أو اللون أو اللغة ولكن علي أساس الكمالات النفسية والجهد المخلص ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾
(الحجرات . جزء من الآية رقم ١٣) .

جـ ـ تنوعت القبائل والشعوب لا من أجل أن تتقاتل وتتنازع ولكن لتتعاون وتتعارف ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾
(الحجرات . جزء من الآية رقم ١٣)

د ـ السيادة في جميع الأحوال للحق وليست للقوة ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾
(الإسراء . ١٠٥)

هـ ـ تحقيق العدل المطلق غاية فلا حيدة عنه ولا محيص من إقراره في كل الظروف ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة ٨)

وعليه فإنه لا منقذ للبشرية ولا شفاء لها مما تعانيه إلا بسلوك هذا السبيل .

٤ ـ كل هذا من شأنه أن يلقي علي كاهل الأمة الإسلامية وحدها مسئولية إنقاذ البشرية لأنها الأمة الوحيدة التي تستطيع ذلك إذا هي أحسنت فهم دينها والعمل به وأحسنت العمل له والدعوة إليه .

والقيام بهذه المهمة ليس تطوعا ولكنه فرض لازم بحكم اتباع هذه الأمة

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

لمحمد ﷺ. وهذا ما صرح به القرآن الكريم في قول الله تعالي : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨)

وهذا هو سبيل الصلاح والنجاح لهذه الأمة حيث يقول ربنا سبحانه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران ١٠٤)

٥ ـ وللدعوة إلي الله مناهجها وأساليبها كما أن لها دعاتها ورجالها الذين يحسنون فهمها ويحسنون عرضها .

والكتاب الذي بين أيدينا أحسن عرض هذه القضية وهو حقيق باسمه الذي اختاره له مؤلفه (**منهج الإسلام العلمي في دعوة الرسل**) . وحين يقرأه رجال الدعوة سيجدون فيه خيراً كثيراً وعلما نافعا إن شاء الله .

وفي خاتمة هذا الكتاب المبارك يقول المؤلف : منهج الإسلام العلمي في الدعوة يقوم علي أساس من اختيار الداعية . واختيار مكان الدعوة . واختيار زمانها . ويركز علي منافذ العلم وأدوات التحصيل . وينظر إلي الإنسان ـ الذي هو محور الدعوة وهدفها ـ نظرة شاملة ويخاطب عقله وقلبه جميعا . وينظر إلي المجتمع نظرة شاملة . ويستخدم المنهج التاريخي في الدعوة لأنه إبراز لسنن الله في المجتمعات . ثم يستخدم الأساليب التي أمر الله بها من الحكمة والموعظة الحسنة . والمجادلة بالتي هي أحسن وهو يأخذ بكل المناهج العلمية في معالجة قضايا الدعوة لأنها قضايا الإنسان بكل تعقيداته وقضايا المجتمع بكل تناقضاته . وهي مناهج تامة يقينية لأنها من صنع الله خالق الكون وخالق الإنسان [1] .

حول هذه القضايا الهامة يدور هذا الكتاب القيم . وواضح أن مؤلفه الأستاذ عطية محمد شعبان بذل فيه جهداً فائقاً وقدم للمكتبة الإسلامية عملا جيدا نافعا يعتبر علامة مضيئة تهدي السائرين علي طريق الدعوة إلي الله وهي أشرف وظيفة وأعظم عمل . نسأل الله أن يتقبله منه وأن يجعله في ميزان حسناته . كما نسأله سبحانه أن ينفع به كل من قرأه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فضيلة الشيخ / عبد المقصود عسكر

الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

---

(١) من هذا الكتاب ص ٢٠٢ .

المقدمة

١ ـ عنوان البحث ودلالاته .

٢ ـ أغراض البحث .

٣ ـ خطة البحث .

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ،الرحمن الرحيم . . . اقتضت رحمته بخلقه أن يرسل إليهم رسلا ، مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، والصلاة والسلام علي أنبياء الله ورسله ،وعلي خاتمهم محمد ﷺ الذي بعثه الله للناس كافة ، بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلي الله بإذنه وسراجا منيرا ، وجعل رسالته خاتمة الرسالات ، وأنزل عليه كتابا تعهد بحفظه ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، لأنه حملها الأمانة من بعده ، أمانة الدعوة إلي الله .

وبعد

فلقد شاءت إرادة الله أن تقع عيني ، وأنا أطالع جريدة (الأنباء) الكويتية علي إعلان مسابقة لجمعية الرعاية الإسلامية ، موضوعها : ـ (**منهج الإسلام العلمي في دعوة الرسل**) .

ووقفت أمام العنوان كثيرا ، وكأنني وجدت ضالتي ، لأن هذا البحث يمكن أن يحقق مايلي :

أولا : ـ يصحح مفهومات خاطئة استقرت في أذهان كثير من المسلمين بفعل الثقافات الوافدة ، والحملات المنظمة من الخصومة والعداء والتحريض ضد الفكر الإسلامي ، هذه الحملات التي حمل لواءها الغزو الأجنبي ، والاستعمار الفكري الذي يطمع في أن يسيطر علي هذه الأمة عن طريق ثقافتها ، فيهدم مقوماتها الأساسية ، ويذيب شخصيتها ، ومن هذه المفهومات الخاطئة :

أ ـ تعدد الأديان السماوية ، وأن لكل نبي دين ، فكثير من المسلمين يفهمون أن اليهودية دين موسي ، وأن المسيحية أو النصرانية دين عيسي ، وأن الإسلام دين محمد صلي الله وسلم عليهم أجمعين ، لكن إضافة منهج الرسل إلي الإسلام في هذا العنوان الذي بين أيدينا يشير إلي حقيقة ثابتة ، وهي أن الإسلام دين رسل الله جميعا ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (آل عمران ١٩) وتلك حقيقة يجب أن يعيها المسلمون جيدا .

ب ـ أن الدين شيء ، والعلم شيء آخر ، أو أن الدين عبادة فقط ولا شأن له بالعلم أو بمناهج الحياة ،وكان هذا المفهوم الخاطئ نتيجة وقوع كثير من أبنائنا في حبائل المدنية المادية الزائفة ، مسوقين إليها بتيارين : تيار الزخرف الصناعي ، وتيار القوة

والنموذ اللذين هما في جانب الغرب اليوم . . وما دروا أن هذا الفصل بين الدين والعلم ، إنما كان نتيجة الصراع بين رحال الدين الممسوخ المشوه في أوربا وبين العلماء الكونيين . . مع أن الإسلام دين العلم ، وكتابه هو المعجزة العقلية العلمية ، ولقد حقق الإسلام تقدما علميا هائلا ، نعمت في طله البشرية بالسلام والأمن ، والمحبة ، والخير ، لأنه كان علما قائما علي التصور الإسلامي الصحيح ، وعلماء المسلمين كان لهم الفضل فيما وصلت إليه البشرية اليوم من تقدم علمي . . . . ولكنه انفصل عن التصور الإسلامي ، فأضحي يهدد العالم بالخراب والدمار .

جـ- أن العقيدة تطورت بتطور الفكر البشري ، وهذا ما يخبط فيه من يسمونهم . علماء الأديان المقارنة ، وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متأخرا من أطوار العقيدة ، سبقته أطوار شتي من التعدد ، والتثنية للآلهة ، ومن تأليه القوي الطبيعية ، وتأليه الأرواح ، وتأليه الشموس والكواكب ، إلي آخر ما تخبط فيه هذه (البحوث) التي تقوم ابتداء علي منهج موجه بعوامل تاريخية ، ونفسية ، وسياسية معينة ، يهدف إلي تحطيم قاعدة الرسالات السماوية ، والوحي الإلهي ، وإثبات أن الأديان من صنع البشر ، وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري علي مدار الزمان (١) .

إن تتبع دعوات الرسل - عليهم السلام - يعطينا التصور الصحيح عن تاريخ العقيدة والقرآن الكريم يقرر في وضوح حاسم أن آدم - عليه السلام - هبط إلي الأرض بعقيدة الإسلام ، وأن نوحا - عليه السلام - واجه ذراري آدم - الذين اجتالتهم الشياطين عن الإسلام إلي الجاهلية الوثنية - بذلك الإسلام نفسه ، القائم على التوحيد المطلق ، وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، وأن الرسل جميعا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام القائم علي التوحيد المطلق .

ثانيا : دراسة دعوات الأنبياء والرسل - عليهم السلام - تكشف عن السنن الإلهية التي تحكم الكون المادي ، والاجتماعي ، وأنها ثابتة تنطبق علي كل المجتمعات في كل العصور ، كسنة الله في إهلاك الظالمين . قال تعالي : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا

---

(١) - انظر : فى ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق . المجلد الرابع . ١٨٨٢ وما بعدها ، ثم ص : ٢١٠٠ وما بعدها ، يعرض بعض فقرات من كتاب (الله) للعقاد ، والذى يتبع فيه مؤلفه - للأسف - منهج علماء الأديان المقارنة ، و يرد صاحب الظلال مبينا التصور الإسلامى الصحيح لتاريخ العقيدة .

ظالمون ﴾ (القصص : ٥٩) وكسنته تعالي في تغيير المجتمع بتغيير عقيدته ، قال تعالي · ﴿إنَّ اللَّه لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا ما بأنفُسهِمْ ﴾ (الرعد ١١) إن سنن الله لاتتبدل ولاتتحول ، سنته في الأولين كسنته في الآحرين قال تعالي ﴿ فَهَلْ ينظُرُون إلاَّ سُنَّت الأَوَّلين فلن تجدَ لِسُنَّت اللَّه تَبْديلاً ولَن تجد لسُنَت اللَّه تحْويلاً ﴾ (فاطر ٤٣) وفي ذلك ما فيه من تثبيت قلوب الدعاة ، فيمضون في طريقهم ، صابرين علي مايصيبهم ، مطمئين إلي أن العاقبة للمتقين

ثالثا : هذا البحث يرد الدعاة إلي النبع الصافي ، والمصدر العذب الذي نهل منه جميع أنبياء الله ورسله ، وإلي التمسك بمنهج رسل الله في الدعوة إلي الله ، حتي لاتتفرق بنا السبل وبخاصة أننا نعيش صحوة دينية ، يتربص بها أعداء الإسلام الدوائر ، ولا سبيل إلي وحدتنا إلا بالتمسك بمنهج واحد ، هو منهج الإسلام الذي دعا به رسل الله من لدن نوح - عليه السلام إلي خاتمهم محمد ﷺ ، ولقد أمر الله نبينا محمدا أن يقتدي بهدي الأنبياء من قبله .

قال تعالي : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِه ﴾ (الأنعام : ٩٠)

وأوحي إليه أن يتبع ملة إبراهيم - عليه السلام - قال تعالي : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل · ١٢٣) وجعل لنا في إبراهيم والذين معه أسوة حسنة . قال تعالي : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (الممتحنة : ٤) .

رابعا : هذا البحث يمكن أن يقدم للدعاة منهجا علميا في الدعوة . . . فلا يليق في هذا العصر . . . عصر التنظيم العلمي . . . عصر الحاسبات الآلية . . . عصر المناهج والبرامج العلمية . . . عصر التخصصات الدقيقة في شتي ألوان المعرفة - لايليق أن تشق الدعوة إلي الله طريقها . . . بطريقة عشوائية أو غير علمية .

لقد وضع الإسلام منهجا علميا للدعوة . . والمتتبع لدعوات الرسل الكرام يري أنها كانت تتبع منهجا علميا . . . وهو منهج مبرأ من نتائج الجهل الإنساني ، والضعف البشري ، لأن واضعه هو الله . . . هذا المنهج بكل أصوله ، وتفصيلاته ، وتطبيقاته ، موجود في القرآن الكريم . كتاب الدعوة الخالد - وما دور هذا البحث المتواضع هنا إلا محاولة جمع عناصر هذا المنهج ، والتنبيه إليها ، وتقديمها إلي الداعية في إطار يعينه علي أداء مهمته .

إن الداعية قد يقع في خطأ كبير إن ظن أنه قد أدي مهمته بمجرد أن يقول : قـال الله . . . وقـال الرسـول . . . ، دون أن يعي مـهج الإسـلام في الدعـوة ، وكيف كانت دعوات رسل الله عليهم السلام ـ تطبيقا لهذا المنهج .

كل ذلك وضعته في خاطري . . واستخرت الله ، ووضعت حطة البحث .

حـطـة البـحـث :ـ

١ ـ طرحت عدة أسئلة تدور حول موضوع البحث ، بحيث تكون الإجابة عنها هي محتوي البحث ، وكانت الأسئلة علي النحو التالي :ـ

ما المقصود بالمنهج ؟ وما المقصود بالمنهج العلمي ؟ وما علاقة الإسلام بالعلم ؟ وهل للإسلام منهج علمي في الدعوة ؟ وإدا كان الجواب بالإيجاب ، فما هو ؟ وهل المنهج العلمي في الدعوة هو المنهج الاستدلالي ، أو المنهج الاستقرائي ، أو المنهج الجدلي ، أو المنهج العلمي القائم علي الملاحظة والفرض والتجريب ؟ أم أنه هو كلها مجتمعة ؟

* ولمادا دعوة الرسل وما جدوي دراسة دعواتهم ؟ وما الخيوط التي تربط دعواتهم ، والتي منها نستطيع أن نستخلص منهجهم في الدعوة ؟ وما دلالات هذه الوحدة العجيبة بين مصدر دعواتهم ، وأهدافها ، ومعارضة الملأ والمترفين لها ، ونهاية المكذبين ، ونهاية المؤمنين في كل منها ؟

* وما حقيقة قصص الأنبياء في القرآن الكريم ؟ وما الغرض منه ؟ وما دلالة تكراره ؟ وما وجه الإعجاز في هذا التكرار ؟

* وإذا كان الإسلام هو الذي وضع منهج الدعوة للرسل ، فهل كان الرسل كلهم مسلمين ، وإذا كان الجواب بالإيجاب ، فماذا إذن عن اليهودية والنصرانية . ألم يبعث موسي ـ عليه السلام ـ باليهودية ، وعيسي ـ عليه السلام ـ بالمسيحية أو النصرانية ؟

* ولماذا يحاول الغزو الفكري الإلحادي أن يؤرخ لبلادنا متجاهلا تاريخ أنبيائنا المسلمين . لماذا إذا أرخوا لمصر ـ مثلا لم يذكروا شيئا عن يوسف أو موسي ـ عليهما السلام . وإذا أرخوا للعراق لم يذكروا شيئا عن نوح أو إبراهيم أو يونس عليهم السلام؟ . . الخ

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأسئلة كتبتها كما تواردت علي ذهني نتيجة تأمل

عنوان البحث ، واستدعاء المعاني ، ولكن عند كتابة البحث كان لترتيب فصوله وموضوعاته شأن آخر ، وإن كانت - والفضل لله - قد أجابت عن كل هذه الأسئلة

٢ - قمت بجمع المصادر والمراجع ، وإعداد البطاقات ، ولقد اعتمدت بالدرجة الأولي - علي المصدر الأول والأساسي ، وهو القرآن الكريم - في جمع مادة البحث ، ووضع أسسه .

٣ - قمت بتبويب البحث تبويبا أوليا ، ثم انتهيت بعد المضي فيه إلي الفصول التالية : -

الفصل الأول : وجعلت عنوانه (الإسلام دين الأنبياء والرسل جميعا) ، وقد برزت فيه حقيقة هامة ، وهي أن تاريخ الأمة الإسلامية يبدأ منذ حلق الله آدم - عليه السلام - مسلما مفطوراً علي الإسلام ، وأن حميع الرسل من لدن نوح - عليه السلام - إلي محمد - ﷺ - بعثوا بدين واحد هو الإسلام ، وتحدثت فيه عن وجوب رفض المصادر والمراجع التي تتبني الفكر المعادي للإسلام .

الفصل الثاني : وجعلت عنوانه (دعوة الرسل) وتحدثت فيه عن حاجة الناس إلي الرسل ، وعن موضوع الدعوة (الإسلام كمنهج حياة) ، وعن كتابها الخالد ، وإعجازه المتجدد ، وفصلت الحديث عن تتابع دعوات الرسل وترابطها ، ووحدة الرسل ودلالتها العلمية علي صدقهم .

الفصل الثالث : عن (قصص الأنبياء ودلالته العلمية) ، وبينت أن قصص الأنبياء يقدم خلاصة التجارب البشرية ، والقواعد والخطوط الأساسية التي تحكم مسيرة تاريخ الإنسان ، وكيف أعطت قصة آدم - عليه السلام - التصور الإسلامي عن الخلق والكون .

الفصل الرابع : عن (الإسلام والعلم) وفصلت الحديث فيه عن محاولات أعداء الإسلام فصل الإسلام عن العلم ، والأسباب التي دعت إلي ذلك ، والسبل إلي العلاج .

الفصل الخامس : عن (منهج الإسلام العلمي في دعوة الرسل) ، وبينت أنه يعتمد علي أسس ستة : -

أ - أركان الدعوة وركائزها .

ب - التركيز علي منافذ العلم وأدوات التحصيل .

جـ ـ النظرة الشاملة إلي الإنسان .

د ـ النظرة الشاملة إلي المجتمع .

هـ ـ استخدام المنهج التاريخي .

و ـ أساليب الدعوة ووسائلها ، أو ما يمكن أن نسميه (منهج الداعية في التبليغ) .

الفصل السادس : وقدمت فيه نموذجين تطبيقيين لمنهج الإسلام العلمي في معالجة قضايا الدعوة (أ ـ قضية الشرك ب ـ قضية البعث)

٤ ـ عند كتابة البحث برزت عدة حقائق رأيت أن أسجلها في خاتمة البحث ، كخلاصة له ، وتتميما للفائدة .

٥ ـ ذيلت البحث بثبت للمصادر والمراجع ، وفهرس يشير إلي موضوعات البحث وصفاته

هذا ، وأدعو الله أن يوفقنا لخدمة ديننا ، وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه ، وصلي الله علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

ملحوظة :

تقدمت بالبحث إلي الجمعية المعلنة ، وشاءت إرادة الله أن لا تتم إجراءات المسابقة بسبب العدوان الآثم علي الكويت ، وبعد التحرير اتصلت بالجمعية وعرفت أنها لم تستأنف نشاطها في هذا الخصوص ، كما عرفت أن النسخ التي كنت قد تقدمت بها فقدت ضمن ما فقد من محتويات الجمعية ، فاستخرت الله وقمت بطبعه راجيا أن يعم نفعه ، ومحتفظا لنفسي بحق مقاضاة كل من تسول له نفسه الإفادة من النسخ المفقودة . . . والله المستعان .

عطية محمد شعبان

الفصل الأول

الإسـلام ديـن الأنـبيـاء والـرسل جميعاً

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾
(آل عمران : 19)

1 – الإسلام قبل الإنسان .

2 – تاريخ الأمة المسلمة .

3 – مواجهة الفكر الإلحادى الذى يحاول تشويه الأنبياء والرسل .

الإسلام دين الأنبياء والرسل جميعاً

لما كان الإسلام هو صاحب المنهج فى دعوة الرسل ، وهو الذى يرسم لهم طريق الدعوة إلى الله ، فإن هذا يعنى أن الإسلام سابق على الرسل ، وأن الإسلام هو الدين الذي بعث الله به الرسل جميعاً من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ ، وأنه الدين الذى ارتضاه الله لعباده ، ومن يبتغ دينا غيره فقد باء بالخسران المبين قال تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران ١٩) وقال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران ٨٥).

الإسلام قبل الإنسان :

وتؤكد النصوص القرآنية والأحاديث النبوية أن الإسلام قديم ، أسلم الكون حيث لا إنسان فالإسلام قبل الإنسان ، خلق الإنسان فوجد الإسلام . قال تعالى ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (الإسراء : ٤٤) . ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾(الرعد : ١٣) ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾(الرحمن : ٦)(١).

وإذا تجاوزنا الجن والإنس فالكون كله مؤمن موحد مسلم لله ، محب طائع منقاد ، كل شيء يعرف ربه الذى خلقه وصوره ، ويعبده . هذه حقيقة كونية كبرى لها أهميتها الجديرة بها فى العقيدة الإسلامية . ليس فى الكون إلا الإسلام ، ولا يقبل من شيء شيءٌ غير الإسلام . رب واحد عظيم تعبده جميع الكائنات ، إليه تتوجه ، ومنه تتلقى ، وله تخضع ، تتنوع فى صورها وأشكالها ، وألوانها ، وخصائصها ، ووظائفها ، ومنازلها ، وقوانينها كما أراد لها بالضبط ، ولكنها جميعاً تسبحه وتعظمه ، وتلهج بالثناء عليه (٢) . ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (النور ٤١).

فالكون مسلم مؤمن ، وكأنه مسجد كبير تتجاوب جنباته بالتسبيح والتعظيم والتمجيد للأحد الصمد الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . كل يصلى ويسبح بالأسلوب الذى حدده له الخالق سبحانه . إن شأن الكائنات عندنا شيء ، وشأنها مع ربنا وربها شيء آخر ، هى عند الناس مواد غازية وسائلة وصلبة ،

---

(١) والنجم ما لا ساق له من النبات ، والشجر ماله ساق

(٢) لقد أفرد الدكتور عبد الرحمن بارود فى مقدمة مذكرة له عن الكون المؤمن المسلم ، فصلا جمع فيه من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يؤكد هذه الحقيقة . وقد نقلها فى كتابه : (أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ) الدكتور جمال عبدالهادي مسعود والكتاب هو الرسالة الأولى . نحو تأصيل إسلامى للدراسات التاريخية دار طيبة ط أولى ١٩٨٥.

وجمادات ونباتات وحيوانات ، وشموس وأقمار ومجرات وسماء وأرض وطيور ، وأسماك وحشرات ، وبحار وأنهار وأشجار ومعادن ، لا تعقل ولكنها فيما بينها وبين الله مؤمنة موحدة مسبحة منقادة ، ونحن نؤمن بذلك هذه هي الحقيقة الأولى ، والتي تبين أن تاريخ الإسلام كدين ، لا يبدأ فقط برسالة محمد ﷺ ولكنه يبدأ قبل خلق آدم - عليه السلام - بسنوات لا يعلم عددها إلا الله عز وجل .

ويترتب على ذلك نتائج كثيرة وعلى جانب من الأهمية ، منها فساد المناهج والمصادر والأبحاث والدراسات التاريخية الحديثة التي تقسم تاريخ البشرية إلى قديم ووسيط وحديث ، جاعلة بداية الإسلام في العصر الوسيط ببداية رسالة محمد ﷺ ، والتي تجعل أيضاً الفترة التي تسبق رسالة محمد ﷺ، وتمتد لآلاف السنين عبارة عن تاريخ وثني جاهلي محض لا أثر فيه للإسلام (١) .

أما الحقيقة الثانية فهي أن تاريخ الأمة المسلمة - وهي الواقع التطبيقي لدين الإسلام يبدأ بخلق آدم مسلماً مؤمناً مفطوراً على الإسلام . فقد شاءت إرادة الله أن يخلق آدم - عليه السلام- ، وأن يستخلفه في الأرض ليقيم منهج الإسلام ، ولتنسجم حركته - باختياره الإسلام - مع حركة الكون المسبح لله .

ولما كان الشيطان مسلطاً على بني آدم ، وكانوا عرضة للبعد عن دين الله ونظامه وشرعه ، فقد اقتضت رحمة الله سبحانه وتعالى أن يتعهد أبناء آدم بالرسل والأنبياء من آن لآخر ليردوهم إلى ربهم الواحد ، ودينهم الواحد ، وهو الإسلام .

القرآن الكريم يؤكد أن الرسل جميعاً دعوا إلى دين واحد هو الإسلام ، وكذلك الحديث الشريف ، وعلى هذا الفهم كان علماء السلف ، والمخلصون من علما عصرنا .

ففي القرآن الكريم :

جاء عن نوح - عليه السلام - قوله لقومه : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس : ٧٢) .

وعن إبراهيم - عليه السلام - : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران . ٦٧ - ٦٨)وعن لوط - عليه السلام - :

(١) أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ جمال عبد الهادي مسعود دار طيبة ط أولى ص ٢٢ تاريخ الأمة المسلمة

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾(الداريات . ٣١-٣٦).

وعن يعقوب – عليه السلام – : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(البقرة : ١٣٣).

وعن يوسف – عليه السلام – : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف : ١٠١).

وعن سليمان – عليه السلام – وقصته مع بلقيس ملكة سبأ : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل . ٢٩-٣١) ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾(النمل ٣٨٠) . ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل : ٤٢ , ٤٤).

وعن موسى – عليه السلام – : ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(يونس ٨٤٠).

وعن عيسى – عليه السلام – : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(آل عمران . ٥٢).

فالرسل جميعاً كلفوا برسالات موضوعها الدعوة إلى دين الإسلام منذ نوح – عليه السلام – ، وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى : ١٣).

وفى القرآن الكريم آيات أخرى تؤكد أن الإسلام هو الدين الذى دعا إليه رسل الله جميعا ، وأنه الدين الذى لا يقبل الله من الأولين أو الآخرين غيره منها : – ﴿وَقَالُوا لَن

يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (١١١) بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(البقرة ١١١ , ١١٢) . فالنص القرآنى ينفى عن اليهود والنصارى دخول الجنة ، ويقصر ذلك على المسلمين في عصر أى رسول ، فمن آمن بموسى فى عصره فهو مسلم وهو فى الجنة ، ومن آمن بعيسى فى عصره فهو مسلم وهو فى الجنة . ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾(البقرة : ١٢٧ , ١٢٨) .

فإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يطلبان من الله عز وجل أن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة ، ولم يقولا أمة يهودية أو نصرانية .

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (١٣٠) إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين (١٣١) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(البقرة ١٣٠ ، ١٣٢)

فكلام الله عز وجل يؤكد أن ملة إبراهيم - عليه السلام - هى الإسلام ، وأن السفيه هو من يرغب عن ملة إبراهيم ، وأن وصية إبراهيم ويعقوب لأبنائهما هى الإسلام .

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (١٣٥) قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(البقرة ١٣٥ , ١٣٦) .

فكلام الله تعالى ينفى الهداية عن اليهود والنصارى ، ويثبتها لمن تبع ملة إبراهيم ، كما أنه سبحانه وتعالى يؤكد أن الناس مطالبون بالإيمان بالإسلام الذى أنزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام .

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾
(آل عمران : ٦٤) .

ففى الآية الكريمة دعوة صريحة لأهل الكتاب من يهود ونصارى إلى الدخول فى

الإسلام وعدم الشرك بالله عز وجل ، فلو كانوا على الحق ما طلب منهم الدخول فى الإسلام .

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران : ٨٣-٨٥) . فالنص القرآنى يؤكد أن الدين عند الله الإسلام ، وأنه لا يقبل من أحد دين سوى الإسلام ، وأن من فى السموات والأرض قد أسلموا لله عز وجل طوعاً وكرهاً وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وجميع الأنبياء مسلمون (١)

وفى الحديث الشريف :

قال رسول الله ﷺ : «مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » (٢) . وقال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى إبن مريم فى الأولى والآخرة » قالوا : كيف يا رسول الله قال : « الأنبياء إخوة من علات (٣) و أمهاتهم شتى - ودينهم واحد ، فليس بيننا نبى » (٤) أى ليس بينى وبين عيسى نبى - كما جاء فى رواية أخرى .

وأما ما عليه علماء السلف من الفهم بأن الإسلام هو الدين الذى دعا إليه رسل الله جميعاً :

فقد جاء فى تفسير ابن كثير لقوله تعالى : - ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ . جمال عبد الهادى مسعود . دار طيبه ط أولى ص ٢٢

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذى عن أبى بن كعب . وأخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة وأخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله وأخرجه الإمام أحمد ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنهم أجمعين .

(٣) قال الإمام النووى : أولاد العلات بفتح العين وتشديد اللام هم الإخوة لأب من أمهات شتى وأما الإخوة من الأبوين فيقال لهم أولاد الأعيان . قال جمهور العلماء معنى الحديث أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون فى أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف

(٤) أخرجه مسلم عن أبى هريرة : أنظر صحيح مسلم شرح النورى جـ ١٥ ص ١١٩ .

نَفْسَهُ ﴾قال أبو العالية وقتادة : نزلت هذه الآية فى اليهود أحدثوا طريقاً ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى . ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾أى أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً . وقوله : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أى أوصى بهذه الملة وهى الإسلام لله [١] وفى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . أى لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع ملة ابراهيم حنيفاً أى مستقيماً [٢] .

وقد نقل الدكتور جمال عبد الهادى مسعود عن الحافظ ابن كثير فى كتابه البداية والنهاية قوله : وتقدم الحديث : «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد وأمهاتنا شتى » والمعنى أن شرائعهم وإن اختلفت فى الفروع ونسخ بعضها بعضاً حتى انتهى الجميع إلى ما شرع محمد ﷺ إلا أن كل نبى بعثه الله فإنما دينه الإسلام وهو التوحيد ، أن يعبد الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(الأنبياء ٢٥) فأولاد العلات أن يكون الأب واحد والأمهات متفرقات ، فالأب بمنزلة الدين وهو التوحيد ، والأمهات بمنزلة الشرائع فى اختلاف أحكامها . قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(المائدة ٤٨) .

ويعلق الدكتور مسعود على كلام الحافظ ابن كثير بقوله : والمقصود أن الشرائع وإن تنوعت فى أوقاتها إلا أن الجميع آمرة بعبادة الله وحده لا شريك له ، وهو دين الإسلام الذى شرعه الله لجميع الأنبياء ، وهو الدين الذى لا يقبل الله غيره يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران : ٨٥) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - كان النبى ﷺ يقرأ تارة فى ركعتى الفجر سورة (الكافرون) و (الإخلاص)، وتارة بآيتى الإيمان والإسلام ، فيقرأ قوله : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية ، فأولها الإيمان وآخرها الإسلام ، ويقرأ فى الثانية

(١) تفسير ابن كثير . دار الفكر . جـ١ص: ١٨٦

(٢) المصدر السابق ص . ١٨٧ .

: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾الآية فأولها إخلاص العبادة لله وآخرها الإسلام له . وقال ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(العنكبوت :٤٦) ففيها الإيمان ، والإسلام فى آخرها [١] .

كما نقل الدكتور عبد الهادى مسعود ما أورده شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً فى الرسالة التدمرية قوله عند شرحه لحديث الرسول ﷺ : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » وهذا الدين هو دين الإسلام الذى لا يقبل الله دينا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين ، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام [٢] .

وجاء فى شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبى العز الحنفى ، حققها وراجعها جماعة من العلماء وخرج أحاديثها فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى . ط ٨ المكتب الإسلامى . بيروت .

يقول الإمام أبو جعفر الطحاوى : ودين الله فى الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾(آل عمران . ١٩) وقال تعالى : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة : ٣) .

ويقول الشارح : ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾(آعمران ٨٥) . عام فى كل زمان ، ولكن الشرائع تتنوع ، كما قال تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة ٤٨) . فدين الإسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله ، وأصل هذا الدين وفروعه رواية عن الرسل [٣] .

وأما علماء عصرنا فإننى أسوق بعض ما قالوه عن حقيقة الإسلام وتاريخ الأمة المسلمة :

يقول الشهيد سيد قطب : إن الإسلام - بمعنى إسلام الوجه لله وحده - كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة . . هكذا اعتقد إبراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل ويعقوب والأسباط ، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية تحقيق محمد السيد الجليند مؤسسة علوم القرآن حـ٣ ص . ٢٥

(٢) انظر أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ص : ٣٠

(٣) شرح العقيدة الطحاوية . ص . ٥١٨

وعيسى ، ثم آلت أخيراً إلى ورثة إبراهيم من المسلمين ، فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها ، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى فى اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفاؤه ، لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة (١).

ويقول : الإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعى الذى ينبثق من الإيمان بالله فى الصورة التى رسمها الإسلام ، فالإيمان بالله يقتضى الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله ، وصدق كل الرسل الذين نزلت عليهم ، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل فى ضمير المسلم ، فكلهم جاء من عند من أرسل إليهم ، حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد ـ ﷺ ـ فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة (٢).

ويقول فضيلة الشيخ السيد سابق فى كتابه (دعوة الإسلام) تحت عنوان (معنى كلمة الإسلام) : ـ الإسلام فى اللغة : الخضوع والانقياد ، يقال : فلان أسلم ، أى خضع وانقاد ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران : ٨٣)

ويطلق لفظ «الإسلام» ويراد به مجموعة التعاليم التى أوحاها الله إلى سيدنا محمد ﷺوهى داعية إلى توحيد الله ، والخضوع لأحكامه والإنقياد للأصول العامة التى جاء بها الأنبياء من قبل ، يقول الله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(الشورى : ١٣).

ومن ثم فقد أطلق لفظ مسلم على كل من اتبع هذه التعاليم ، فيقال إن نوحا مسلم ، وإبراهيم مسلم ، وموسى مسلم ، وعيسى مسلم ، وكذلك يسمى بهذا الاسم كل من تبعهم وانقاد لتعاليمهم .

ولما كان سيدنا محمد ﷺ آخر من حمل هذه التعاليم ودعا إليها أطلق عليه اسم

---

(١) فى ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق حـ١ص ١١١

(٢) المرجع السابق حـ١ ص . ٣٤٢.

مسلم ، وأطلق على أتباعه إسم المسلمين ، وسمى الدين الذى دعا إليه «بالإسلام» وهذه التسمية ليست من اختراع أحد ، وإنما هى من الله سبحانه . يقول الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾(المائدة : ٣) .

فالإسلام ليس بجديد على الناس ،ودعوة محمد ﷺ ليست بدعة من البدع ، وإنما الإسلام هو المنهج الذى ارتضاه الله للناس جميعاً ، من أول الرسل إلى خاتم الأنبياء .

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ (آل عمران ١٩)، وكل ما خالف هذا المنهج فليس بدين عند الله ، والله لا يقبل أى عمل من الأعمال التى لا تتفق معه .

يقول الله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران : ٨٥). أى ومن يطلب غير دين الإسلام الذى هو دين جميع الأنبياء فلن يقبل منه ، ولذا يكون فى الآخرة من الخاسرين لكل خير .

فالآية تعنى جميع البشر ، فكل فرد من الأفراد لا يعتنق الإسلام ، ولا يدين به فإنه يجرى عليه حكم هذه الآية ، ويكون فى الآخرة من الخاسرين ، لأنه بعدم انقياده للإسلام يكون خارجاً عن منهج جميع الأنبياء والرسل .(١)

هذه هى الحقيقة الثانية والتى يؤكدها - كما رأينا - القرآن الكريم ، والسنة النبوية المشرفة ، وسلف هذه الأمة ، والعلماء من خلفها ، التى تقرر أن تاريخ الأمة الإسلامية يبدأ منذ حلق آدم - عليه السلام - مسلماً ، مفطورا على الإسلام ، وأن جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ بعثوا بدين واحد هو الإسلام .

---

(١) دعوة الإسلام . السيد سابق دار الكتاب العربى بيروت . ط أولى ص ١٢ ، ١٤

مواجهة الفكر الإلحادى
الذى يحاول تشويه سير الرسل والأنبياء

إن العلم بالحقائق التى بيناها ، والإيمان بها ، وترسيخها ضرورى لأنه يحقق عدة أمور :

الأول : التصدى لموجات الغزو الفكرى الإلحادي الذى يستهدف هدم الإسلام كدين ، وكنظام حياة لكل زمان ومكان فيبدأ بفصله عن جذوره فى أعماق التاريخ البشرى بجعل بدايته برسالة محمد ﷺ ، وبعثرة أجزاء ذلك الموكب الموصول لأنبياء الله ورسله ، من لدن آدم وحتى خاتمهم محمد ﷺ .

والذين كتبوا تاريخ الأمم ويعملون لتحقيق هدفهم السالف الذكر . . عالجوا تاريخ الأمم بمعزل عن سير الرسل والأنبياء ، فالذين عالجوا تاريخ مصر منذ أقدم العصور ، عالجوه بمعزل عن دعوة الرسل التى حمل لواءها . يوسف وموسى - عليهما ا السلام - أى عالجوه كتاريخ وثنى جاهلى محض لا أثر فيه لدعوة الرسل ، وسموه بالتاريخ القديم أو تاريخ العصور الحجرية أو عصر ما قبل التاريخ . والذين عالجوا تاريخ الجزيرة العربية ، حاولوا طمس الإسلام الذى دعا إليه هود وصالح وشعيب وإسماعيل - عليهم السلام - ، بل وطمس معالم وجودهم ، واعتبروا تاريخهم تاريخاً أسطورياً يسبق التاريخ الحقيقى لهذه الأمة التى سكنت جزيرة العرب . والذين عالجوا تاريخ الجزيرة العربية منذ القدم حاولوا مسح السمت الإسلامى الذى كان يظلل العلاقة التى قامت بين دولة سبأ ودولة سليمان وكان محورها الدعوة إلى الإسلام .

والذين كتبوا تاريخ العراق منذ القدم أسقطوا من كتاباتهم سيرة نوح وإبراهيم ويونس - عليهم السلام - ، وكلما ظهر من القرائن ما يؤكد قيام هؤلاء الرسل بالدعوة إلى الإسلام فى تلك البلاد - كمخلفات الطوفات المادية والفكرية - ذهبوا يغيبونها حتى لا ينكشف أمام القارئ القرائن الدالة على أن الله سبحانه وتعالى كان يتعهد الناس بالرسل منذ القدم ليردوهم إلى ربهم ودينهم الحق .

والذين عالجوا تاريخ بلاد الشام عالجوه بمعزل عن الرسالات السماوية التى حمل لواءها لوط وسليمان وعيسى وغيرهم من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

وحينما عالجوا سيرة محمد ﷺ عالجوها على اعتبار أنه أحد المصلحين الذين

استفادوا بجهود من سبقوه ، وأنه قد ألف من اليهودية والنصرانية والجاهلية دينا جديداً هو الإسلام .

ولقد ترتب على ذلك أثر خطير وهو أن دور العلم فى بلاد المسلمين درجت على معالجة تاريخ الأنبياء والرسل بمعزل عن تاريخ الأمم التى بعثوا فيها ، وبهذا أقروا مبدأ غير إسلامى خطط له المستشرقون ، وهو فصل حياة الأمم وتاريخها عن دينها ودعوة أنبيائها ورسلها (١) .

إن الغزو الفكرى الإلحادى يهدف من وراء التجاهل والتجهيل بالبداية الحقيقية لتاريخ الأمة المسلمة وتشويه سير الأنبياء والرسل - عليهم السلام - إلى إنكار الرسالات ثم تفسير القضايا الدينية تفسيراً تاريخياً ليصلوا بذلك إلى أن الدين من صنع البشر .

يقول أصحاب هذا الفكر الإلحادى المعادى للإسلام : إن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالإنسان ، فلم يكن فى استطاعته أن يفلت من السيول والأعاصير والطوفان والزلازل والأمراض ، فأوجد(قوى فرضية)يستغيثها ، لتنقذه من البلايا النازلة ،و هكذا ظهرت الحاجة إلى شىء يجتمع الناس حوله ، ولا يتفرقون ، 'ستغل اسم (الإله) تفوق قوته قوة الإنسان ، ويهرع الجميع إلى رضاه .

ويقولون : لقد خلق العقل الإنسانى الدين ، وأتم خلقه فى حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية (٢) .

الثانى : مواجهة من يزعمون أنهم أتباع دين سماوى هو«اليهودية» أو دين سماوى هو «النصرانية» فكل جماعة منهم فى الحقيقة أصحاب كتاب سماوى حرفوه وبدلوه - وأطلقوا على الإسلام الذى بعث به أنبياؤهم اسما اخترعوه . ولا يوجد دليل من القرآن الكريم أو سنة النبى ﷺ على أن الله أرسل رسولاً يدعو إلى دين اسمه اليهودية أو

---

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ د . جمال عبد الهادى مسعود . ولقد أشار المؤلف إلى المصادر والمراجع التى عالجت تاريخ الأمم بمعزل عن دينها ودعوات الرسل فيها (حضارة مصر الفرعونية - أحمد فخرى) (تاريخ العرب - عصر ما قبل الإسلام . محمد مبروك نافع) قصة الحضارة إدارة التأليف والنشر بجامعة الدول العربية) وقد أحسن المؤلف صنعاً حين وضع قائمة ببعض مصادر التاريخ القديم التى تتبنى الاتجاه المعادى للإسلام فى آخر كتابه .

(٢) الإسلام يتحدى . وحيد الدين خان ترجمة ظفر الإسلام خان . مراجعة وتقديم د . عبد الصبور شاهين / المختار الإسلامى القاهرة ط السابعة ١٩٧٧ ص : ٣٧ , ٣٨ ولقد أشار المؤلف إلى المصدر دائرة معارف العلوم الاجتماعية ١٩٧٠ ص : ٢٣٣ .

النصرانية ، لقد ذكر القرآن الكريم اليهود والنصارى ، ولكنه لم يذكر دينا اسمه اليهودية أو النصرانية ، ونفى أن يكون أنبياؤه يهوداً أو نصارى ، كما نهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء .

إن اليهودية هى دين أصحاب العقائد الفاسدة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة : ٣٠) والمسيحية هى دين أصحاب العقائد الفاسدة ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾(التوبة : ٣٠) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾(المائدة . ٧٣)﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾(المائدة : ١٨) .

إن هذه المواجهة تجعلنا نرفض ما يسمى بعلم مقارنة الأديان فى مجال الدراسات - التاريخية والاجتماعية ، وهو المنهج الذى يتبناه كل كتاب ما يسمى بالتاريخ القديم والآثار - على مستوى دور العلم فى بلاد العالم أجمع بلا استثناء كما يقول الدكتور جمال عبد الهادى مسعود . ويقول : وقد تبنى الكيد الشيطانى والتآمر العالمى الذى يقوم على أكتاف اليهود والنصارى والكثيرين من أبناء العرب والمسلمين منهج مقارنة الأديان فى مجال الدراسات التاريخية ، ليصلوا فى النهاية ببنى آدم أنه لا إله ولا وحى ولا رسالات ولا استخلاف ولا غاية من وراء خلق الكون والإنسان ، ولا ضابط لحركة الإنسان من دين أو خلق على سطح الأرض وهو يقوم بدوره فى تاريخ البشرية ، وبالتالى تزول الفواصل الحقيقية بين الإسلام كدين صحيح وغيره من العقائد والديانات الفاسدة كاليهودية والنصرانية والبوذية والهندوكية . وبالتالى لا توضع البشرية أمام ضرورة إعتناق الإسلام كدين ، ولكن لها الحق فى اعتناق أى فكر أو عقيدة طالما تقتنع بها بغض النظر عن صحتها من عدمه . وبالتالى يصبح أصحاب العقائد الفاسدة لهم الحق فى مباشرة الدعوة إلى عقائدهم دون حائل أو رادع من قوى المسلمين [1] .

الثالث : - رفض المصادر والمراجع التى تتبنى الاتجاه المعادى للإسلام ، والتى تعتمد فى معظمها على التوراة والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية والإنجيل بالإضافة إلى مصادر أخرى لا تصمد أمام الجرح والتعديل ، ولا يعتد بها من الناحية الشرعية ، مثل :

١ - الآثار المادية والفكرية التى خلفتها الأمم منذ أقدم العصور ، كالآثار التى خلفها الفراعنة والآشوريون والكنعانيون والعرب واليونان والروم .

٢ - ما كتبه الرحالة والمشتغلون بالتاريخ من اليونان والروم من أمثال هيرودت

(١) أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ د. جمال عبد الهادى مسعود ص ٣٥ .

(٤٠٦٧ ق . م)وبطليموس الجغرافى (١٤٠م) .

٣ - كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب قبل إخضاعها للجرح والتعديل ، وبعض تفاسير الآيات القرآنية التى تسللت إليه الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة والموضوعة .

٤ - بعض المؤلفات التى نسبت إلى أئمة الحفاظ وهم منها براء [١]

لقد آن لنا أن نستقى تاريخ أمتنا الإسلامية وسير الأنبياء والمرسلين من كتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى تعهد من أنزله بحفظه ، ومن السنة النبوية المشرفة ومن مصادرنا الإسلامية الموثقة .

يقول الشهيد سيد قطب : إن المسلم لا يملك أن يتلقى فى أمر يختص بحقائق العقيدة ، أو التصوير العام للوجود ، أو يختص بالعبادة ، أو يختص بالخلق والسلوك ، والقيم والموازين أو يختص بالمبادئ والأصول فى النظام السياسى أو الاجتماعى ، أو الاقتصادى أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنسانى وبحركة التاريخ الإنسانى . . . إلا من ذلك المصدر الربانى ، ولا يتلقى فى هذا كله إلا من مسلم يثق فى دينه وتقواه ، ومزاولته لعقيدته فى الحياة .

ولكن المسلم يملك أن يتلقى فى العلوم البحتة ، كالكيمياء ، والطبيعة ، والأحياء ، والفلك ، والطب ،و الصناعة ، والزراعة ، وطرق الإدارة . من الناحية الفنية الإدارية البحتة وطرق العمل الفنية ، وطرق الحرب والقتال - من الجانب الفنى - إلى آخر ما يشبه هذا النشاط . . . يملك أن يتلقى فى هذا كله عن المسلم وغير المسلم وإن كان الأصل فى المجتمع المسلم حين يقوم ، أن يسعى لتوفير هذه الكفايات فى هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية ، يجب أن يتخصص فيها أفراد منه ، وإلا أثم المجتمع كله إذا لم يوفر هذه الكفايات ، ولم يوفر لها الجو الذى تتكون فيه وتعيش وتعمل وتنتج . . . ولكن إلى أن يتحقق هذا فإن للفرد المسلم أن يتلقى هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية من المسلم وغير المسلم ، وأن ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم لأنها من الأمور الداخلة فى قول رسول الله ﷺ «أنتم أعلم بأمور دنياكم » . وهى لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والإنسان ، وغاية وجوده ، وحقيقة وظيفته ، ونوع ارتباطه بالوجود من حوله ، وبخالق الوجود كله ، ولا تتعلق بالمبادئ

(١) المرجع السابق . ص . ٥٣ .

والشرائع والأنظمة والأوضاع التى تنظم حياته أفرادا وجماعات ، ولا تتعلق بالأحلاق والآداب والتقاليد والعادات ، والقيم والموازين التى تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع . ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته ، أو ارتداده إلى الجاهلية .

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الإسانى كله أفرادا أو مجتمعات ، وهو ما يتعلق بالنظرة إلى « نفس» الإنسان وإلى «حركة تاريحه» ، وما يختص بتفسير نشأة الكون ، ونشأة الحياة ، ونشأة هذا الإنسان ذاته - من ناحية ما وراء الطبيعة - (وهو مالا تتعلق به العلوم البحته من كيمياء وطبيعة وفلك وطب . . . إلخ).

فالشأن فيه شأن الشرائع القانونية والمبادئ والأصول التى تنظم حياته ونشاطه ، مرتبط بالعقيدة ارتباطا مباشراً فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه إلا عن مسلم يثق فى دينه وتقـواه ، ويعلم عنه أنه يتلقى فى هدا كله عن الله . . والمهم أن يرتبط هذا فى حس المسلم بعقيدته ، وأن يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده ، أو مقتضى شهادته أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله(١) .

علينا أن نعى تحذير الرسول ﷺ لنا من مسالك اليهود والنصارى ، فقد روى البخارى فى حديث هو من معجزات السنة النبوية حيث أخبر الرسول فيه بما سيقع وقد وقع . عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه . قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال النبى ﷺ : فمن؟ . »

فالحديث يحذرنا من ألاعيب الصهيونية والصليبية ، يحذر من التقليد الأعمى ، يحذر من الأضواء الكاذبة ، ومن إلباس الحق بالباطل ، ومن تزيين المفاسد ، يحذر من الاتباع فى الابتداع ، ويخبر بما سيقع فى آخر الزمان للمسلمين وأنهم سيضعون العزة والكرامة ، وسيشعرون بالذلة والهوان والنقص ، وسيجعلون اليهود والنصارى سادة لهم ، يرفعون إليهم أبصارهم والنفس ولعة بتقليد الأقوى ، فيسلكون مسلكهم ، ويحاكونهم فى سوآتهم ونقائصهم حتى ولو سلكو أقبح المسالك ، و أضيقها حاكوهم واتبعوهم وفعلوا مثلهم ، وقد حصل الكثير من هذا فى زماننا والعياذ بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم (١).

---

(١) معالم فى الطريق سيد قطب مكتبة وهبة ط أولى ١٩٦٤ ص ١٦٨ ويراجع أيضاً فى ظلال القرآن سيد قطب تفسير سورة هود الجزء ١٢ ، وسورة إبراهيم الجزء ١٣

(١) المنهل الحديث . أحاديث مختارة من البخارى ، شرح موسى لاشين مطبعة الفجر الجديد ج٣ ص ١٥٦

الفصل الثانى

دعــوة الرســل

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (النساء : ١٦٥)

١ ـ تعريف بالرسل .

٢ ـ حاجة الناس إلي الرسل .

٣ ـ تعريف بالدعوة .

٤ ـ موضوع الدعوة .

٥ ـ كتاب الدعوة .

٦ ـ الدعوة الخاتمة .

٧ ـ تتابع دعوات الرسل وترابطها .

٨ ـ وحدة الأنبياء ودلالتها العلمية علي صدقهم .

١ ـ تعريف بالرسل

جاء في قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية : أرسل (بعث)[١] ، وجاء في مختار الصحاح : ـ أرسله في (رسالة) فهو (مرسل) و (رسول) والجمع (رسل) و (رسل) و (المرسلات) الرياح وقيل الملائكة ، و (الرسول) أيضا (الرسالة) [٢] . وتراسل القوم أرسل بعضهم إلي بعض (رسولا) أو (رسالة) . و (رسول) يجوز استعماله بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمثني والجمع [٣] .

وقد استعمل القرآن في المفرد (رسول) و (مرسل) ، وفي الجمع (رسل) و (مرسلون) قال تعالي . ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ (يونس. ٤٧) وقال تعالي : ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (الأعراف: ٧٥) وقال تعالي : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النحل : ٣٥) لصيغة الجمع وقال تعالي : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون ﴾(يس : ٥٢) .

كما أن لفظ (رسول) جاء في القرآن للمثني . قال تعالي : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِين ﴾ (الشعراء. ١٦) و لم يقل رسولا رب العالمين .

وعلي ذلك فالرسل أو المرسلون هم رجال اختارهم الله وبعثهم برسالة كلفهم حملها وتبليغها للناس ، ومنحهم من الصفات ما يهيئهم لتلقي الوحي الإلهي ، وما يمكنهم من تحمل مسئولية دعوة الله تعالي .

* هل الرسل غير الأنبياء ؟

قال تعالي : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ (الحج ٠ ٥٢) فعطف النبي علي الرسول يقتضي المغايرة أي أن الرسول غير النبي .
وقال تعالي : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ (مريم ٥٤) . وهذا يعني أن الرسالة غير النبوة وقد جاء في شرح العقيدة الطحاوية أنّ من نبأه الله بخبر السماء ، إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول ، فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها ، فالنبوة جزء من الرسالة ، إذ الرسالة

---

(١) قاموس الألفاظ والاعلام القرآنية ص ٤٤١ دار الفكر العربي ط أولي ١٩٦١ .
(٢) مختار الصحاح / ص : ١٠٢ مكتبة لبنان . ٣ـ المصباح المنير / ص ٣٠٨ دار القلم بيروت .
(٣) المصباح المنير ص : ٣٠٨ دار القلم بيروت .

تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل ، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم ، بل الأمر بالعكس ، فالرسالة أعم من جهة نفسها ، وأحص من جهة أهلها [١] .

ويري الدكتور عمر الأشقر في كتابه الرسل والرسالات أن ما ذهب إليه كثير مس العلماء في التفرقة بين الرسول والنبي بعيد لأمور :

الأول : ـ أن الله نص علي أنه أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل في قوله : ﴿ وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍ ﴾ . فإذا كان الفارق بينهما هو الأمر بالبلاغ فالإرسال يقتضي من النبي البلاغ .

الثاني : ـ أن ترك البلاغ كتمان لوحي الله تعالي ، والله لا ينزل وحيه ليكتم ويدفن في صدر واحد من الناس ثم يموت هذا العلم بموته .

الثالث : ـ قول الرسول ﷺ : « عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد » [٢] .

فدل هذا علي أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ وأنهم يتفاوتون في مدي الاستجابة لهم . ثم يختار التعريف الذي نقله عن الألوسي أن (الرسول من أوحي إليه بشرع جديد والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله) [٣] .

يؤيد ذلك ما جاء في المصباح : والنبيء علي فعيل مهموز لأنه أنبأ عن الله أي أخبر [٤] . وجاء في قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية : والنبي المخبر عن الغيب والجمع أنبياء [٥].

* عدد الرسل :

قال الله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر . ٧٨) . وقال تعالي : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (النساء : ١٦٤) وهذا يعني أن هناك أعداداً كثيرة من الرسل والأنبياء لانعرفها . وقد أخبرنا رسول الله ـ ﷺ ـ بعدة الأنبياء والمرسلين ، فقد روي الإمام

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨ ط الثامنة ١٩٨٤ المكتب الإسلامي .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي نقلا من الكتاب المذكور .

(٣) الرسل والرسالات . عمر سليمان الأشقر . مكتبة الصلاح ـ الكويت . ط ثالثة ١٩٨٥ ص ١٤ .

(٤) المصباح ص : ٨١١

(٥) قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ص : ٨١١

أحمد في مسنده عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : « ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا » .

وفي رواية أبي أمامة ، قال أبو در : قلت ، يا رسول الله ، كم وفاء عدة الأنبياء ؟ قال : « مائة وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا »[(١)] .

وقد ذكر القرآن الكريم من الرسل والأنبياءخمسة وعشرين نبيا ورسولا ، منهم ثمانية عشر في سورة الأنعام : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام ٨٣-٨٦) ، وذكر في مواضع متفرقة آدم وهودا وصالحا وشعيبا وإدريس وذا الكفل ، وخاتمهم محمد . ﷺ قال تعالى : ـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (هود. ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤) . وقال تعالى : ـ ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنبياء ٨٥) .

* أولو العزم من الرسل :

قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف ٣٥) . وأما أو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها : ما نقله البغوي عن ابن عباس وقتادة : أنهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسي ، وعيسي ، ومحمد ، ـ صلوات الله وسلامه عليهم وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (الأحزاب ٧) . وفي قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ (الشوري ١٢) . وأولو العزم هم أرباب الثبات والحزم ، وقيل : هم أصحاب الشرائع [(٢)] .

(١) مشكاة المصابيح ٣ / ١٢٢ ، وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني : إسناده صحيح .

(٢) زبدة التفسير من فتح القدير . محمد سليمان الأشقر . وزارة الأوقاف الكويت .

* **صفــة الرســل :**

قال تعالي في صفة خاتم المرسلين ﴿ وإنكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم . ٤) . وقال مخاطبا أمته ﷺ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة. ١٢٨) .

وقال في وصف خليله إبراهيم عليه السلام ، وبعض بنيه ممن اصطفاهم لرسالته : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٠) . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ (هود : ٧٥) . ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (مريم ٤١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ (مريم . ٥٤) . ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾(ص . ٤٥) .

وقال تعالي في صفة كليمه موسي عليه السلام ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ (مريم : ٥١) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (الأحزاب : ٦٩) .

وقال في وصفه علي لسان ابنة شعيب عليه السلام : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ (القصص : ٢٦) .

وقال في صفة كلمته عيسي عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٥) .

وقال علي لسانه عليه السلام : ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (مريم : ٣٢) .

وقال علي لسان نوح ، وهود ، وصالح ولوط ، وشعيب ، كل يخاطب قومه بقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (الشعراء : ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٧٨) .

بهذه الآيات البينات وبغيرها من آيات القرآن الكريم ندرك أن رسل الله كانوا أكمل الناس خَلْقا وخُلُقا . والحديث عن صفات الرسل صلوات الله عليهم يقتضي بحثا مستقلا ، ولكنني هنا اكتفي بالقدر الذي يخدم موضوع البحث ، لنعلم أن الدعاة إلي الله لابد أن تكون لهم من الصفات الخلقية والنفسية ، ومن القدرات الذهنية والعقلية ، ومن سلامة الفطرة ونقاء السريرة ما يكفل النجاح لدعوتهم إلي جانب ترسمهم لمنهج الرسل في الدعوة .

وإنني أكتفي في هذا المقام بذكر بعض ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في صفة الأنبياء في كتابه عقيدة المسلم : إن النبوة امتداد في المواهب كلها ، واكتمال عقلي وعاطفي وبدني وعصمة من الدنايا ، ورسوخ في الفضائل ، وعراقة في النبل والفضل

هم الرجال المصابيح الذين هم | كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم من أي ناحية | أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا

فالذين يرشحون للنبوة يُصْطَفَوْن لها اصطفاء .

قلوب نقية تربطها بالملأ الأعلي أواصر الطهر والصفاء .

وعقول حصيفة ناضجة لا تنخدع عن حقائق الأشياء ولا يصيبها ما أصاب كبار الفلاسفة من شرود وعماء .

وأجسام مبرأة من العلل الخبيثة ، والأمراض المشوهة أو المنفرة .

وصلة بالناس قوامها البر والخير .

فليس يتصور في حق نبي الله ، أنه أخل بحق المروءة والفضل ، بله أن يرتكب ما يخدش الشرف ، أو يقدح في العصمة .

ثم إن الرسل أمناء علي الوحي السماوي والهداية الإسلامية .

فكلامهم حكمة ، وحياتهم أسوة ، سريرتهم ، وعلانيتهم سواء .

طرائق معيشتهم الخاصة كمناهج دعوتهم العامة ، تنضح عفافا واستقامة .

ظلوا بين الناس ما شاء الله فكانت مجتمعاتهم بركة ، ثم قبضوا فخلفوا أقدس مواريث ، وأقدس تركة .

وحسبك أنهم خيرة الله من خلقه (١) .

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام ١٢٤) ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ (الحج ٧٥ ، ٧٦)

والرسل الكرام وإن كانوا يتفاوتون في صفات الكمال الإنساني ، إلا أنهم يشتركون في صفات أهلتهم للقيام بالمهمة التي أرسلهم الله من أجلها علي أتم وجه وأكمله ، ومنها الصدق ، والأمانة ، والفطنة ، والذكاء ، وكرم النفس ، والثبات علي

---

(١) عقيدة المسلم محمد الغزالي ط الرابعة دار الكتب الإسلامية . القاهرة . ص : ٢٠٣

الحق ، كما أن الله عصمهم من الزلل في التبليغ عنه ، وهم لا يتركون واجبا ، ولا يفعلون محرما ، ولا يقترفون ما يتنافي مع الخلق الكريم [١] .

* تفاوت أقدار الرسل

وأقدار الرسل تتفاوت سناء وسموا ، فالرسول في قبيلة محدودة أفضل منه الرسول لمدينة فيها مائة ألف أو يزيدون وأفضل منه الرسول لشعب بأسره وصاحب الكتاب المستقل أفضل ممن يحكم بشريعة سابقة .

ولا نزال نرقي في مراتب العظمة ، ولا نزال نحلق صعدا نحو القمة ، ولا نزال نقطع أشواطا بعد أشواط في مدارج الكمال البشري ، حتي نصل إلي مستوي تنحسر دونه أبصار العباقرة مهما طمحت ، وتتطامن عنده أقدار الأنبياء مهما عظمت لنجد صاحب الرسالة العظمي إلي خلق الله قاطبة ، ملتقي الفضائل المشرقة ، ومظهر المثل العليا التي صاغها الله إنسانا يمشي علي الأرض مطمئنا .

ذلكم هو محمد بن عبد الله ﷺ [٢] .

لقد ذكر الله في سورة الأنعام ثمانية عشر نبيا ورسولا ، فيهم أولو العزم وأصحاب الرسالات الأولي ، ثم قال﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فإن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُوا بها بكَافِرِين ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام ٨٩ ، ٩٠) .

قال المفسرون إنها تومىء إلي فضل الرسول ﷺ علي من سبقه . فإن خصال الكمال التي توزعت عليهم التقت أطرافها في شخصه الكريم .

كان نوح صاحب احتمال وجلد وصبر علي الدعوة . وكان إبراهيم صاحب بذل وكرم ومجاهدة في الله . وكان داود من أصحاب الشكر علي النعمة وتقدير آلاء الله . وكان زكريا ويحيي وعيسي من أصحاب الزهادة في الدنيا والاستعلاء علي شهواتها . وكان يوسف ممن جمع بين الشكر في السراء ، والضراء . وكان يونس صاحب تضرع وإخبات وابتهال . وكان موسي صاحب شجاعة وبأس وشدة . وكان هارون ذا رفق .

حتي تنظر إلى سيرة محمد ﷺ بعد هذه السير السابقة فتراها كالبحر الخضم تصب فيه الأنهار [٣] .

فمبلغ العلم فيه أنه بشر — **وأنه خير خلق الله كلهم**

---

(١) العقيدة . سليمان محمد عطا وآحرين ط الرابعة ١٩٨٨ من مقررات دار القرآن . الكويت .

(٢) عقيدة المسلم . محمد العزالي ص : ٢٠٤ — (٣) المرجع السابق .

٢- حاجة الناس إلى الرسل

قال الله تعالي : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف ١٧٢)

تقرر الآية الكريمة أن الله تعالي أخذ علي عباده عهدا أزليا قبل أن يوجدهم في هذه الحياة ، وأودع فطرتهم الإنسانية الإحساس القوي بخالقهم ، ورازقهم ، ولذلك كان الإيمان بالله تعالي تلبية لنداء الفطرة السليمة ، والإنسان جسم وروح ، وقد ميزه الله بالعقل ،وهو في تأمله وتفكيره متأثر بمتطلبات جسده المادية ومتطلبات روحه وعقله المعنوية ، لأنه المخلوق الوحيد المميز بين مخلوقات الأرض بخصائص نفسية وعقلية ، وطاقات روحية لاتقف عند حدود المادة ، ولا تقنع بما يرضي الجسد من إشباع لغرائزه ، ووظائفه الفطرية . . فإذا كان يسعي إلي تحصيل الطعام والشراب والملبس والمسكن لإشباع حاجاته المادية ، فإنه لابد أن يشبع حاجة روحه التي لا يشبعها إلا الإيمان ، فهو وحده غذاء الروح . . . وهو الذي يفسر له لغز الوجود ، وهو الذي يبين له الغاية من وجوده ، وينير له معالم الطريق . . .

فليست العقيدة أمرا ثانويا في حياة الإنسان ، ولا فكرة طارئة ، ولا ضالة عقلية ، وإنما هي صميم تكوينه ، ومن أول حاجاته . . .

وإذا كان الإنسان مفطورا علي الاتجاه إلي خالقه لإشباع حاجات روحه وعقله ، فإن تاريخ الإنسان يبين لنا أن كثيرا من المجتمعات البشرية قد أتي عليها حين من الدهر فقدت فيه نور بصيرتها ، وإشراقة فطرتها وران الضلال علي عقول البشر ، وأحدقت الأوهام بمعتقداتهم ، وانحط تفكيرهم حتي اتخذوا من الشمس والنجوم والحجر والحيوان أربابا وآلهة معبودة يتقربون إليها بالنفس والولد .

ومن هنا كانت حاجة الناس إلي الرسل ، وكان من فضل الله علي خلقه ، ورحمته بهم أن يرسل إليهم رسلا منهم ، ليعيدوا إلي الفطرة إشراقتها واستقامتها ، ويطهروها من شوائب الشرك والوثنية ، ويجبروا قصور العقل البشري ، لأنه إن اتجه إلي خالقه عجز عن إدراك صفات الله ، وصور عبادته ، وما يشرعه لعباده من أمور تحقق صلاح الفرد والجماعة وما يعده لهم في الآخرة من ثواب وعقاب . وكل ذلك

تكفلت به الشرائع السماوية المنزلة علي الرسل المكرمين . فإذا كان الإنسان متدينا بطبعه . فهو عاجز عن إدراك الحقيقة الإلهية إدراكا واعيا ، وعاجز عن معرفة شرع الله الذي يقوده في دنياه ، ويعده لأخراه (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله ـ الرسالة ضرورية للعباد ، لابد لهم منها ، وحاجاتهم إليها فوق حاجاتهم إلي كل شيء ، والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة ، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ، وينال من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الأموات ، قال الله تعالي : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام: ١٢٢) . ويقول : إن الله سمي رسالته روحا ، والروح إذا عدم فقدت الحياة ، قال الله تعالي : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (الشوري : ٥٢) (٢) .

واليوم ، وبعد أن بلغت الحضارة المادية ما بلغت ، والتي كانت وليدة صراع العقل والتجربة مع الدين والإيمان ـ أقصد دين القسس والنصاري الذين بنوا عقائدهم الدينية علي أسس الفلسفة اليونانية القديمة ـ وبعد أن رأينا التمرد علي الله وعلي شريعة الله ، ورفض تعاليم الرسل بحجة أن الدين يقف حجر عثرة في طريق الحضارة والرقي ، نقول : هل أصبحت البشرية اليوم قادرة علي أن تقود نفسها بعيدا عن منهج الرسل ؟

يجيب الدكتور عمر الأشقر علي السؤال بقوله : يكفي أن ننظر في حال تلك الدول التي نسميها متقدمة متحضرة كأمريكا وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين ـ لنعلم مدي الشقاء الذي يغشاهم . نحن لاننكر أنهم بلغوا من التقدم المادي شأوا بعيدا ، ولكنهم في الجانب الآخر الذي جاء الرسل وجاءت تعاليمهم لإصلاحه انحدروا بعيدا. لا ينكر أحد أن الهموم والأوجاع النفسية والعقد النفسية ـ اليوم سمة العالم المتحضر . الإنسان في العالم المتحضر اليوم فقد إنسانيته ، خسر نفسه ، ولذلك فإن الشباب هناك يتمردون ، علي القيم والأخلاق والأوضاع والقوانين ، أخذوا يرفضون حياتهم التي يعيشونها ، وأخذوا يتبعون كل ناعق من الشرق أو الغرب يلوح لهم

(١) كتاب التربية الإسلامية للصف الثالث الثانوي ـ دولة الكويت ـ ط ثانية ١٩٨٣

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية جمع ابن قاسم طبع الرياض ط أولي جـ ٩ ص ٩٣

بفلسفة أو دروشة أو طريق يظنون فيه هناءهم ، لقد تحول عالم الغرب إلي عالم تنخر الجريمة عظامه ، وتقوده الانحرافات والضياع ، لقد زلزلت الفضائح أركان الدول الكبري ، والخافي أعظم من البادي ، إن الذين يسمون اليوم العالم المتحضر يخربون بيوتهم بأيديهم ، حضارتهم تقتلهم ، حضارتهم تفرز سموما تسري فيهم فتقتل الأفراد وتفرق المجتمعات ، الذين نسميهم اليوم بالعالم المتحضر كالطائر الجبار الذي يريد أن يحلق في أجواز الفضاء بجناح واحد .

إننا بحاجة إلي الرسل وتعاليمهم لصلاح قلوبنا ، وإنارة نفوسنا ، وهداية عقولنا ، نحن بحاحة إلي الرسل كي نعرف وجهتنا في الحياة ، وعلاقتنا بالحياة وخالق الحياة ، نحن بحاجة إلي الرسل كيلا ننحرف أو نزيغ فنقع في المستنقع الآسن [١] .

لقد انتهت الآراء في أوروبا وأمريكا إلي وجوب المناداة بالعودة إلي الدين لأن التطور المادي الذي لم يصحبه سند من روح ، تطور خطر لا غاية له إلا الخراب والدمار ، ولأن النفوس قد أفسدها الطمع والجشع ، والشر ، والأنانية ، وهم أحوج ما يكونون إلي إصلاح هذه النفوس وعلاجها ، ليسود المجتمع المودة ، والرحمة ، والمعاونة ، والإيثار ، والسماحة ، والطيبة ، وهذه الفضائل لا مصدر لها إلا الدين والإيمان ، وليس من دين سوي الإسلام يستطيع تقديم هذه الفضائل الإنسانية وليس هذا هو رأينا الخاص ، وإنما هو رأي علماء الغرب الذين درسوا الإسلام ، ووقفوا علي حقائقه .

يقول جولد زيهر : إنه إذا أردنا الإنصاف ينبغي أن نؤمن بأن في منهج الإسلام قوة صالحة ، توجه الإنسان نحو الخير [٢] .

فالإسلام الذي يحفظ لنا ـ في كتابه الخالد ـ منهج الرسل وعلي رأسهم خاتمهم محمد ـ ﷺ ـ يقول عنه إميل درمنجم : ليس الإسلام عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية ، لا صلة لها بالمادة ، ولا بالحياة وإنما الإسلام عقيدة ترتكز علي المادة والروح ، والدنيا والآخرة ، جسم وروح ، دين ودولة ، وغيب وشهادة ، والإسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيدا لنظريات الاجتماع الحديثة ، بل لأنه يدفع الإنسان دوما إلي الأمام [٣] .

(١) الرسل والرسالات . عمر سليمان الأشقر ، ص ٣٠ مكتبة الفلاح ط ثالثة ١٩٨٥

(٢) إسلاما . السيد سابق ص ١٢ دار الكتاب العربي بيروت

(٣) هذا القول لإميل درمنجم نقلته من كتاب الفكر الإسلامي لمحمد الصادق عفيفي . ص ١١ مكتبة الخانجي . القاهرة .

ولقد قرأت أخيرا في جريدة (الأهرام) المصرية تحت عنوان (يوميات) عن كتاب صدر أخيرا وطبع في لغات كثيرة ، ويطالب كاتب اليوميات بترجمته إلي اللغة العربية ، وهذا الكتاب أشرف عليه وعلي نشره الروسي (أنا تولي جروميكو) والكتاب يطرح سؤالا هو اسم الكتاب (هل سوف نستمر ؟) أي هل ستعيش الإنسانية علي هذه الأرض ؟ والأسئلة الكبري في عالم اليوم لم تعد عن الصواريخ واحتمال قيام حرب عالمية ثالثة ، وما إلي ذلك . ولكنها عن عوامل فناء مختلفة وجديدة ، فالإنسان ابتكر آلاف السلع المعمرة والمدمرة ، ولكنه احتفظ بكل غرائزه البدائية من جشع وطمع وحب للكسب السريع وتحقيق أعلي ربح بأي ثمن ، يتدافع في هذا الأفراد والشعوب والدول والحكومات .

وبعد أن كان العالم مساحات شاسعة تتسع لكل هذا أو أكثر ، صار بالتقدم العلمي الهائل (قرية عالمية) كما أسماها المفكر وفيلسوف ثورة المعلومات (مارشال ماكلوهان) انكمشت الكرة الأرضية التي يقول عنها الاقتصاديون إنها السلعة الوحيدة التي سيرتفع ثمنها باستمرار لأنها صنعت مرة واحدة ولن يصنع غيرها علي الإطلاق . أ هـ [1] .

وأقول : هذا ما آل إليه أمر العالم نتيجة طغيان المادة ، وتقدم العلم بعيدا عن المنهج الإسلامي وبعيدا عن التصور الإسلامي للكون والحياة ، وكلما بعد الإنسان عن منهج الله ركب الشيطان منه كل مركب ، وأورده موارد الهلاك . وأخيرا ـ فإن ما نراه ـ ونحن علي مشارف العقد الأخير من القرن العشرين ـ ما نراه يقع في أوربا الشرقية ، وفي روسيا الشيوعية ، وفي الصين . . .

وما نراه يقع في أفغانستان وعلي الساحة الإسلامية والعربية . وعلي أرضنا المقدسة في فلسطين . . كل ذلك يؤكد أن الإسلام قادم ولا ريب ، وأنه لا مناص من العودة إلي منهج رسالات الله . . إلي منهج الإسلام .

* * * * *

---

(١) الأهرام : الخميس ٨ / ٢ / ٩٠ تحت عنوان (يوميات) .

٣- دعـوة الرسل

هي الدعوة إلي الإسلام ، وهو رسالة الله في الأرض ، ودينه للناس أجمعين ، وبها نزل آدم من الجنة ، واستخلف في هذه الأرض ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة ٣٨)

وهي رسالة رسل الله جميعا ، من لدن نوح عليه السلام إلي خاتمهم محمد ﷺ ، إنما كانت الشياطين تجتال بني آدم فيخرجون من الإسلام إلي الجاهلية ، حتي تأتيهم الدعوة علي لسان أحد رسله لتردهم من الجاهلية إلي الإسلام ، إلي أن كانت الدعوة الأخيرة نزل بها الوحي الأمين علي خاتم المرسلين محمد ﷺ ، وقد ضمن الله حفظها بحفظ كتابها ، وجعلها خاتمة لسائر الرسالات السابقة ، شاملة لجميع الناس في زمانها وفي كل الأزمان إلي يوم الدين .

وقبل الحديث عن الدعوة وكتابها وموضوعها ومنهجها ، أود أن أقدم لذلك بتعريفها لغة ، واصطلاحا .

التعريف اللغوي للدعوة :

جاء في المصباح المنير : (دعوت) الله أدعوه دعاء ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله ، ودعا المؤذن الناس إلي الصلاة فهو داعي الله ، والجمع دعاة وداعون مثل قاض وقضاة وقاضون ، والنبي داعي الخلق إلي التوحيد [1] .

وجاء في تاج العروس : الدعوة مصدر دعا يدعو دعاء ودعوة ، وبعض العرب يؤنث الدعوة بالألف فيقول « الدعوي » وتأتي بمعني الدعاء ، ومنه قوله تعالي ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [2] .

وجاء في لسان العرب : الدعاء علي ثلاثة أوجه منها توحيد الله والثناء عليه . ومنه الحديث : أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات : « لا إله إلا الله . . »والدعوي اسم لما يدعيه ، وتأتي بمعني الدعاء ، ومنه قوله تعالي : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس . ١٠)

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي تأليف أحمد بن محمد علي المقري الفيومي . دار القلم . ص ٢٦٤ مادة (دعا) .

(٢) تاج العروس . محمد مرتضي الزبيدي ١٠ / ١٢٦ . ١٢٨ والآية من سورة يونس : ١٠

يعني دعاء أهل الجنة تنزيه الله وتعظيمه (١) .

وجاء في أساس البلاغة : ودعوت فلانا ناديته ، والنبي داعي الله ، وهم دعاة الحق ودعاة الباطل ، ودعاة الضلالة (٢) .

وجاء في لسان العرب . الدعوة من الدعاء ومنه قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَق ﴾ (الرعد ١٤) بمعني شهادة أن لا إله إلا الله ، ومنه الحديث الذي ورد في قول النبي ﷺ : «قل أدعوك بداعية الإسلام» أي بدعوة الإسلام وهي كلمة الشهادة ، ومنه الحديث «ليس في الخيل داعية لعامل» أي لا حق لعامل الزكاة فيها ، ومعني دعا الرجل ناداه ، ودعوت فلانا أي صحت به واستدعيته ، ودعاه الأمير ساقه إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب ٤٦) أي داعيا إلي توحيد الله . والدعاة قوم يدعون إلي بيعة هدي أو ضلال واحدهم داع ، ورجل داعية ، وهو الذي يدعو إلي دين أو فكرة ، وأدخلت الهاء فيها للمبالغة . والنبي والمؤذن داعي الله ، والداعية صريخ الخيل في الحروب . وداعية اللبن في الضرع ، وهو ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده . ومنه حديث النبي ـ ﷺ ـ لضرار بن الأزور « دع داعي اللبن » (٣) .

وإذا استعرضنا الآيات القرآنية التي تحمل مادة (دعا) لوجدنا أن كلمة (دعوة) تفيد لغويا المحاولات القولية والفعلية من أجل تحقيق هدف أو عمل ، كالمناداة ، والطلب ، والحث ، والترغيب ، والاستمالة . . . الخ .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي قولهم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ أي ناديتهم وسألتهم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ أي اطلب منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أي نادوهم فلم يردوا عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُون ﴾ أي تطلبون .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي دعاؤهم .

---

(١) لسان العرب . ابن مظور ١٨ / ٢٨١ـ٢٨٢

(٢) أساس البلاغة . الزمخشري . مادة (دعا) .

(٣) لسان العرب ابن مطور ١٨ / ١٨٢ـ٢٨٢ وتاج العروس ١٠ / ١٢٦ / ١٢٨ .

ويلاحظ انه كما أطلق علي كلمة الدعوة الداعية ، ويراد بها شهادة الحق وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإنه يمكننا أن نطلق لفظ الدعوة علي ما يراد إبلاغه ونشره مس هدي أو ضلال ، ولفظ الداعية علي كل من يعتمد لإبلاغ الآخرين الهدي أو الضلال ، ونشره بينهم (١) .

*** التعريف الاصطلاحي للدعوة .**

من المعلوم أن الدعوة بمعني النشر والبلاغ صارت علما مستقلا له موضوعه ، وخصائصه ، وأهدافه . وهو بذلك يواكب سائر العلوم الإسلامية ، يفيدها ويستفيد منها ويشاركها في إفادة الإسلام برسم طريق منهجي علمي يكفل له الانتشار والذيوع

ومن المعلوم كذلك أن الدعوة بمعني الدين إذا أطلقت لا يراد منها إلا الإسلام بتعاليمه .

وبذلك فإن التعريف الاصطلاحي للدعوة بمعناها الأول يغاير تعريف الدعوة بالمعني الثاني ولهذا وجب ذكر التعريف الاصطلاحي لكلا المعنيين .

*** الدعوة بمعني النشر والتبليغ :**

هي العلم الذي به تعرف كافة المحاولات والأساليب المتعددة الرامية إلي تبليغ الناس الإسلام بما حوي من عقيدة وشريعة وأخلاق .

وعلي ذلك فإنها علم كسائر العلوم له قواعده ،وله موضوعه المتعلق بتعليم الدعاة كافة المحاولات الهادفة إلي تبليغ الإسلام ، والمحاولات قولية كالخطبة والدرس ، أو فعلية كالقدوة والطاعة لدين الله ، وهي فنية لأنها تراعي جانب التطبيق النظري وتلحظ عمليات التأثير في نفسية المشاهد والمستمع ، وهي متعددة لأن بعضها متجه إلي العقل ، وبعضها الآخر متجه إلي العاطفة والوجدان ، وهي هادفة ، وهدفها نشر دين الله وتبليغه للناس أجمعين (٢) .

وقد عرفها بعض العلماء بأنها : « نقل أمة من محيط إلي محيط » (٣) . وعرفها بعضهم بأنها : « إنقاذ الناس من ضلالة أو شر واقع ، وتحذيرهم من أمر يخشي عليهم

---

١) الدعوة والداعية في ضوء سورة الفرقان محمد سعيد الباروذي دار الوفاء جدة ١٩٨٧ ص ٢٣

٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د أحمد أحمد علوش دار الكتاب العربي ص ١١

٣) تذكرة الدعاة البهي الخولي ص ٢٧

الوقوع في بأسه » (١) . وكلها تعاريفات ليست متعارضة بل تتعاون في بيان أسلوب الدعوة إلي الله وما تهدف إليه .

وعلي هذا فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ كلهم دعاة إلي الله سبحانه وتعالي ، قال تعالي : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل ٣٦)

ولقد أفردت فصلا في هذا البحث لأساليب الرسل عليهم السلام في الدعوة كما رسمها منهج الإسلام العلمي .

*** تعريف الدعوة كدين :**

يمكن تعريف الدعوة كدين بمجموعة من التعاريف نذكر منها :

١ ـ الدعوة الإسلامية هي الخضوع لله والانقياد لتعاليمه بلا قيد ولا شرط ، ومن المعلوم أن الإنقياد لله دليل الخضوع له . ولذا اشترط الاختيار الحر في هذا الانقياد ليتحقق الخضوع التام .

٢ ـ الدعوة الإسلامية هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين ، وأنزل تعاليمه وحيا علي سائر المرسلين ، ثم علي رسول الله ﷺ ، وحفظها القرآن الكريم وبينتها سنة خاتم النبيين .

٣ ـ الدعوة الإسلامية هي النظام العام والقانون الشامل لأمور الحياة ، ومناهج السلوك للإنسان التي جاء بها رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ، من ربهم وأمرهم بتبليغها إلي الناس ، وما ترتب علي ذلك من ثواب أو عقاب في الآخرة

وهذه التعاريف ـ أيضا ليست متعارضة ، ولكنها تتعاون في إعطاء صورة للإسلام الذي هو الدعوة (٢) .

ولذا يمكن أن نقول بعد التعريف الاصطلاحي للدعوة بمعني النشر والتبليغ ، وتعريفها الإصطلاحي كدين ، أن الدعوة كدين هي موضوع الدعوة بمعني النشر والتبليغ وهو ما أتحدث عنه في الفصل التالي بمشيئة الله تعالي .

---

(١) الدعوة إلي الإصلاح للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٧ نقلا عن كتاب ادع إلي سبيل ربك . د مصلح بيومي . دار القلم الكويت طبعة ١٩٨٦ ص ١٤

(٢) الدعوة الإسلامية د . أحمد أحمد غلوش ص ١٣ .

٤ـ موضوع دعــوة الرسل

عرفنا أن الرسل جميعا بعثوا برسالة واحدة هي الإسلام ، وعرفنا أن الإسلام يعني الخضوع والطاعة والانقياد ، وإسلام الوجه لله تعالي ، بفعل ما أمر به ، وترك ما نهي عنه .

*** فما موضوع الإسلام الذي جاء به الرسل ؟**

إن موضوع الإسلام هو موضوع الدعوة كدين ، وهو عقيدة ، وشريعة ، وخلق .

*** أولا : العقيدة :**

هي جوهر الرسالات السماوية كلها ، وتتمثل في توحيد الله تعالي وعبادته وحده، ونبذ عبادة من دونه ، والإيمان برسل الله وما أنزل عليهم ، وما أخبروا به عن ربهم من غيب كالملائكة والجان ، والجنة والنار ، والإيمان باليوم الآخر والحساب ، والثواب والعقاب .

والقرآن الكريم يعرض هذه القضية ويؤكدها في مواضع كثيرة في مكي القرآن ومدنيه ، تتكرر الدعوة إلي توحيد الله وعبادته وحده وبنفس الألفاظ علي لسان رسله بيانا لأهمية العقيدة وتأكيدا لوحدة الدعوة .

نوح عليه السلام يقول لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف ٠ ٥٩)

وهود عليه السلام يقول لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف ٦٥)

وصالح عليه السلام يقول لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف ٧٣)

وإبراهيم عليه السلام يقول لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت : ١٦) .

وجاء علي لسان عيسي عليه السلام : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة ٠ ١١٧)

وقال في نعت النصاري ٠ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة ٠ ٣١)

وقال لخاتم رسله ـ ﷺ ـ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء : ٢٥)

وقال تعالي : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل ٣٦)

يقول الدكتور القرضاوي : هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود ، وتفسر للإنسان سر الحياة والموت ، وتجيب عن أسئلته الخالدة : من أين ؟ وإلي أين ؟ ولم ؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام ، ولا مما ابتكره محمد ـ ﷺ ـ ، إنها العقيدة المصفاة التي بعث بها أنبياء الله جميعا ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ؟ إنها الحقائق الخالدة التي لا تتطور ولا تتغير ، عن الله ، وعن صلته بهذا العالم . ما يبصر منه وما لايبصر ، وعن حقيقة هذه الحياة ودورالإنسان فيها ، وعاقبته بعدها .

إنها الحقائق التي علمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح في قومه ، ودعا إليها هود وصالح عادا وثمود ، ونادي بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله ، وأكدها موسي في توراته ، وداود في زبوره ، وعيسي في إنجيله .

كل ما فعله الإسلام ـ في صورته النهائية التي جاء بها محمد ﷺ ـ أنه نقي هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصفاها من الأجسام الغريبة ، التي أدخلتها العصور عليها ، فكدرت صفاءها ، وأفسدت توحيدها بالتثليث والشفاعات ، واتخاذ الأرباب من دون الله ، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم ، ونسبة ما في البشر من قصور ونقص إلي الله تعالي علوا كبيرا ، وشوهت نظرتها إلي الكون والحياة والإنسان ، وعلاقته بالله ووحيه ، وما جاء به من تعاليم ، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضا جديدا ، يليق بالرسالة التي اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلهية ، وأن تكون غاية لكل البشر ، إلي قيام الساعة .

جاءت عقيدة الإسلام فنقت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها علي مر العصور ونقت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور ، ونقت فكرة الجزاء الأخروي مما دخل عليها من أوهام الجاهلية ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ودجل المشعوذين (١) .

* ثانيا : الشريعة :

وهي الأوامر والنواهي أو التكاليف العملية التي يبلغها الرسول لقومه . والتي تتعلق بأشكال العبادات ، وصور المعاملات ، والحدود ، والحلال والحرام

(١) الإيمان والحياة د/ يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة . القاهرة ط السابعة ص : ١٩

وهذه تختلف من أمة لأمة ، ومن رسالة لأخري ، وهذا هو تفسير قوله تعالي : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة ٤٨) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام - واحدا، وإن تنوعت شرائعه . قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » . و « الأنبياء إخوة لعلات[1] ، «وإن أولي الناس بابن مريم لأنا ، فليس بيني وبينه نبي » فدينهم واحد وهو عبادة الله وحده لاشريك له . وهو يعبد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت ، وذلك هو دين الإسلام في ذلك الوقت .

ويقول : وتنوع الشرائع في الناسخ والمنسوخ من الشروع كتنوع الشريعة الواحدة ، فكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمدا - ﷺ - هو دين واحد ، مع أنه كان في وقت يجب استقبال بيت المقدس في الصلاة كما أمر النبي - ﷺ - بذلك إلي ما بعد الهجرة ببضعة عشر شهرا ، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة ويحرم استقبال الصخرة .

فالدين واحد كما قال تعالي . ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ وإن تنوعت القبلتان في وقت من أوقاته ، ولهذا شرع لبني إسرائيل السبت ثم نسخ بعد ذلك وشرع لنا الجمعة فكان الاجتماع يوم السبت واجبا إذ ذاك ثم صار الواجب الاجتماع يوم الجمعة وحرم يوم السبت .

فمن خرج عن شريعة موسي قبل النسخ لم يكن مسلما ، ومن لم يدخل في شريعة - محمد ﷺ - بعد النسخ لم يكن مسلما[2] .

يقول ابن كثير : أما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الشريعة الأخري وبالعكس ، وخفيفا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالي في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، قال سعيد بن أبي عروة عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرعَةً وَمِنهَاجاً ﴾ (المائدة :٤٨) يقول سبيلا وسنة ، والسنن - مختلفة ، هي في التوراة شريعة ، وفي الإنجيل شريعة ، وفي الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما شاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه .

ويقول في تفسير قوله تعالي : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ (المائدة ٤٨) لو

(١) أولاد العلات هم الإخوة لأب من أمهات شتي .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم . شيخ الإسلام ابن تيمية . ص : ٤٥٦

شاء لجمع ـ الناس كلهم علي دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ منها ، ولكنه تعالي شرع لكل رسول شريعة علي حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده ، حتي نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدا ﷺ الذي ابتعثه إلي أهل الأرض قاطبة ، وجعله خاتم الأنبياء كلهم ولهذا قال تعالي : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (المائدة . ٤٨) . أي أنه تعالي شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم أو يعاقبهم علي طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله[1] . أهـ .

والذي أحب أن أوضحه أن اختلاف الشرائع لا يعني اختلاف الأديان ، لأنه ليس اختلافا في أصول الدين وإنما قد يكون في صور العبادات أو الحدود والكفارات أو فيما يحل الشرع أو يحرم ، الشأن في ذلك شأن ما يحدث من نسخ لبعض هذه الأمور في الشريعة الواحدة .

ولذلك قال تعالي : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشوري . ١٣) .

يقول العلامة ولي الدين الدهلوي : اعلم أن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج ، تفصيل ذلك أن الأنبياء عليهم السلام أجمعوا علي توحيد الله تعالي عبادة واستعانة ، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه ، وتحريم الإلحاد في أسمائه ، وأن حق الله علي عباده أن يعظموه تعظيما لا يشوبه تفريط ، وأن يسلموا وجوههم إليه ، وأن يتقربوا بشعائر الله إلي الله ، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها ، وأن لله ملائكة لا يعصونه فيما أمر ، ويفعلون ما يؤمرون ، وأنه ينزل الكتاب علي من يشاء من عباده ، ويفرض طاعته علي الناس ، وأن القيامة حق ، والبعث بعد الموت حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وكذلك أجمعوا علي أنواع البر من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج ، والتقرب إلي الله بنوافل الطاعات من الدعاء والذكر وتلاوة الكتاب المنزل من الله ، وكذلك أجمعوا علي النكاح وتحريم السفاح وإقامة العدل بين الناس ، وتحريم المظالم وإقامة الحدود علي أهل المعاصي ، والجهاد مع أعداء الله والاجتهاد في إشاعة أمر الله ودينه ، فهذا أصل الدين.

(١) تفسير ابن كثير . المجلد الثاني مكتبة الرياض ص . ٦٧ .

وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباحها ، فكان في شريعة موسي عليه السلام الاستقبال في الصلاة إلي بيت المقدس ، وفي شريعة نبينا محمد ﷺ إلي الكعبة، وكان في شريعة موسي عليه السلام الرجم فقط ، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره ، وكان في شريعة موسي عليه السلام القصاص فقط ، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعا ، وعلي ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها [1] أهـ .

وأحب أن أضيف أن الاسلام يوجب تعانق العقيدة مع الشريعة بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخري ، علي أن تكون العقيدة أصلا تدفع إلي تطبيق الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة فمن أخذ بالعقيدة وأهمل الشريعة أو عمل بالشريعة وترك العقيدة لا يكون مسلما عند الله وهو في الآخرة من الخاسرين ، وذلك في كل دين نزل من السماء .

*** ثالثا : الأخلاق : ـ**

لقد كانت دعوة الرسل عليهم السلام إلي مكارم الأخلاق تواكب تماما دعوتهم إلي توحيد الله عز وجل ، كانت الدعوة إلي الإصلاح الاجتماعي وتصحيح السلوك الإنساني ملازمة للدعوة إلي إصلاح العقيدة ، وتصحيح العبادة .

وإذا كانت تقوي الله عز وجل هي الأساس الأول في ضبط علاقات الإنسان بمجتمعه ، وضبط علاقاته بربه ، وضبط سلوكه بحيث يصبح فاعلا ملتزما بالداخل ، وليس مجرد رد فعل للمثيرات الخارجية ـ فإننا نجد كل الرسل يدعون قومهم إلي تقوي الله تعالي .

ولما كانت القدوة الحسنة هي الأساس التربوي العلمي لغرس الفضائل والأخلاق في النفوس ـ فإننا نجد دعوة كل رسول إلي تقوي الله مقرونة بالدعوة إلي طاعة الرسول ـ والاقتداء به .

وإذا كانت سورة الأعراف عند عرضها لدعوات الرسل قد ركزت علي الدعوة إلي توحيد الله وعبادته ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ ـ فإننا نجد سورة الشعراء وهي تعرض دعوات الرسل تركز علي الدعوة إلي تقوي الله وطاعة رسله .

وعندما نستعرض آيات سورة الشعراء نجد كل رسول بعد الأمر بتقوي الله وطاعة

(١) حجة الله البالغة : للعلامة ولي الدين الدهلوي . دار المعارف بيروت ١ / ٧٦-٨٧ .

رسوله يواجه قومه بانحرافاتهم التي أغضبت ربهم ، وأفسدت مجتمعهم ، وذلك يكشف في جلاء ووضوح - عن المنهج الذي يرسمه لتصحيح سلوكهم ، والعدول عن انحرافاتهم ، إنه تقوي الله وطاعة رسوله .

قال تعالي : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُون * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء ١٠٥-١٠٨)

وقال تعالي ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُون * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء ١٢٣-١٢٦)

ثم يكشف لهم عبثهم وبطشهم : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُون * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُون * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء : ١٢٨ - ١٣١)

وقال تعالي ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُون * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء ١٤١-١٤٤)

ثم يكشف لهم عن إفسادهم في الأرض وإسرافهم في المعاصي : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِين * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُون ﴾ (الشعراء: ١٥٠-١٥٢)

وقال تعالي : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُون * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء ١٦٠-١٦٣)

ثم يستنكر عليهم ما ابتدعوه من منكرات لم يسبقهم إليها أحد من الناس ، حيث كانوا يأتون الذكران شهوة من دون النساء ، ولا يرون في ذلك سوءا أو قبحا فيعلنونه ولا يستترون ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِين * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء. ١٦٥-١٦٦)

وقال تعالي : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِين * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُون * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء١٧٦-١٧٩)

ثم يكشف لهم عن ظلمهم ، وتطفيفهم الكيل والميزان ، وأكلهم أموال الناس بالباطل وسعيهم في الأرض فسادا : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِين * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيم * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِين * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِين ﴾ (الشعراء. ١٨١-١٨٤)

ومن عجيب النسق القرآني في سورة الشعراء أن قصص الأنبياء فيها يبدأ بتوجيه

موسي عليه السلام بالرسالة إلي فرعون وملئه ، وتصف قوم فرعون بالظلم ، وتطلب إلي موسي أن يدعوهم إلي تقوي الله .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ .

(الشعراء ١٠-١١)

ومن تمام النسق القرآني أن تختم السورة الكريمة بتهديد الظالمين بما ينتظرهم من عذاب أليم ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾(الشعراء . ٢٢٧) .

وإذا تجاوزنا سورة الشعراء إلي سورة العنكبوت وجدنا إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلي عبادة الله وتقواه فيجمع بين عبادة الله وحده وثمرتها التي هي ضابط السلوك والأخلاق ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت ١٦) فإذا وصلنا إلي سورة الصافات وجدناها تحكي عن إلياس [١] عليه السلام : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الصافات . ١٢٣-١٢٦) .

وتأتي الدعوة الخاتمة ليعلن رسولها ﷺ أنه جاء ليتمم البناء ، بناء الدعوة إلي توحيد الله وبناء الدعوة إلي منهج الله ، وبناء الدعوة إلي مكارم الاخلاق «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق** »[٢] .

---

(١) جاء في تفسير الجلالين (قيل ابن أخي هارون أخي موسي وقيل غيره أرسل إلي قوم ببعلبك ونواحيها ، و(بعلا) اسم صنم من ذهب لهم وبه سمي البلد أيضا مضافا إلي (بك) والمعني : أتعبدونه؟) .

(٢) نقله ابن كثير عن الإمام أحمد برواية أبي هريرة . تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص ٤٠٤ عند تفسير قوله تعالي . ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ من سورة القلم

٥ـ كتاب الدعوة

القرآن الكريم :

إنه القرآن الكريم ، كتاب الدعوة ، وكتاب الإسلام الخالد ، وهو آخر كتاب نزل من السماء ، ولذا تعهد الله بحفظه إلى يوم الدين . ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ (الحجر : ٩) هو الكتاب الذى يحمل المنهج ـ منهج الدعوة إلى الله .

والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذى نزل به الروح الأمين علي قلب محمد رسول الله ـ ﷺ ـ بلسان عربى مبين ، وهو المنقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلا بعد جيل ، محفوظا من أي تغيير أو تبديل ، وهو المتعبد بتلاوته ، والمتحدي بأقصر سورة منه ، والمدون بين دفتى المصحف الشريف ، والمبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس . (١)

والقرآن الكريم كتاب هداية إلى الصراط المستقيم ، وكتاب الدعوة إلى الدين القويم ، ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِين ﴾ (البقرة ٢) .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم ﴾ (الإسراء : ٩)

فيه تفصيل كل شيء على علم ، وفيه تبيان لكل شيء على هدى ونور ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ (الأعراف . ٥٢) . ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِين ﴾(النحل . ٨٩)

والقرآن الكريم روح الإسلام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى . ٥٢) . وبه يحيا المسلمون حياتهم الحقيقة على هذه الأرض كما أرادها لهم ربهم . ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾(الأنعام . ١٢٢) . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال ٢٤)

والقرآن الكريم نزل بالحق والصدق والعدل ليكون أسلوب حكم ودستور حياة ، نزل مصدقا لما سبقه من الكتب ومهيمنا عليها ، يصدق الصحيح منها ، ويكشف ما أصابها من تحريف وتغيير وتبديل ، فمنزلته منها منزلة الحاكم والرقيب . ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَق ﴾(الزمر : ٤١) . ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ

---

(١) علم أصول الفقة . عبد الوهاب خلاف . دار القلم الكويت ص . ٢٢٨ وتاريخ القرآن الكريم محمد سالم محيس . مؤسسة شباب الجامعة . الاسكدرية ص ٥ .

الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ . (المائدة ٤٨)

القرآن الكريم هو الذى قال فيه من نزل عليه - ﷺ - : «فيه نبأ من كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغي الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد﴾ من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .»[1] .

القرآن الكريم هو كتاب دعوة الإسلام ، هو روحها وباعثها ، وهو قوامها وكيانها، وهو حارسها وراعيها ، وهو بيانها وترجمانها ، وهو دستورها ومنهجها ، وهو في النهاية المرجع الذى تستمد منه الدعوة - كما يستمد منه الدعاة - وسائل العمل ومناهج الحركة ، وزاد الطريق .[2] .

عناية المسلمين بالقرآن الكريم :

- ولقد عنى المسلمون منذ فجر الإسلام وانبثاق نور الهداية الإلهية على ربوع العالم بالقرآن الكريم ، مصدر تلك الهداية ، ومنبع ذلك الإشراق ، عناية كبرى شملت جميع نواحيه ، وأحاطت بكل ما يتصل به ، وكان لها آثارها المباركة الطيبة في حياة الإنسان عامة ، والمسلمين خاصة ، وأفاد منها العقل ، وأفاد منها الدين ، وأفاد منها الفن ، وأفاد القانون والتشريع ، وأفادت منها الفلسفة والأخلاق ، وأفادت منها السياسة والحكم ، وأفاد منها الاقتصاد والمال ، وأفاد منها كل مظهر من مظاهر النشاط الفكري والعلمى عرفه الناس في حياتهم المادية والروحية .

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية من آثار هذا النشاط العظيم ، بل زخرت مكتبات أخرى في لغات أخري وأمم أخري بكنوز رائعة يقف العقل أمامها حائرا مشدوها ، يخالجه مزيج من الإعجاب والمهابة ، ويملكه معنى عميق من معانى الخشوع ، أمام

---

(١) الجامع الصحيح وهو سنن الترمذى لأبى عيسى س سورة تحقيق إبراهيم عطوة ج٥/ كتاب فضائل القرآن ص. ١٧٢/٢٩٠٦

(٢) فقه الدعوة - سيد قطب ص: ١٥

العظمة التى لا كفاء لها إلا الإقرار بالعجز والخضوع .[1].

إعجاز القرآن الكريم :

لقد شاءت إرادة الله أن تكون معجزات من سبق من الرسل حسية ينتهى أثرها بانتهاء وقتها ، وتنقضى دلالتها بمضى زمانها ، فكانت معجزة الرسول غير منهجه أو غير كتابه ـ فلما بعثت العناية الإلهية محمدا ـ ﷺ ـ وليكون خاتم المرسلين ولتكون دعوته عامة للعالمين ، جعل معجزته الخالدة هى عين كتابه وهو منهجه ، فكانت معجزة عقلية علمية باقية متجددة إلى أن يرث الله الأرض من عليها ـ وقد جاء في الحديث الشريف : « **ما منَ الأنبياء نبيٌ إلا أُعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا** »[2] .

ما كادت آيات الله تتلى على قريش حتى أدركت ما فى القرآن من بيان لا يملك أي عربى إلا أن يسلم بأنه ليس من قول البشر ، فقد ثبت أن عددا من العرب أعلنوا إسلامهم فور سماع القرآن ، غير شاكين فى أن هذا كلام الله ، وربما وصلت آيات منه إلى سمع أشدهم عداوة للإسلام ، فصدق وآمن ، وأعلن إسلامه ، مدركا أن هذه الآيات لا يمكن صدورها عن إنسان .

وعجز طواغيت الشرك من قريش عن إنكار فصاحة القرآن ، ولكنهم عدلوا عن الإيمان به إلى الافتراء عليه ، لصرف العرب عن سماعه . ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ . (فصلت . ٦٢)

طال جدل المشركين ، وكثر افتراؤهم على القرآن ، وقد بلغ بهم الجحود والعناد أن زعموا القدرة علي الإتيان بمثله ، قال تعالي : ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين** ﴾(الأنفال : ٣١)

فواجههم القرآن بالتحدى بصورة متدرجة حسما لكل جدل ، وإثباتا لإعجازه . فكان أول ما نزل من التحدي آيات الإسراء المكية ردا على من جحد نبوة الرسول بحجة أنه بشر ، فطالبهم القرآن ، وهم بشر مثل الرسول ، أن يأتوا بمثل ما جاء به ، مع الاستعانة بكل طاقات الإنس والجن ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾(الإسراء ٨٨)

---

(١) تفسير القرآن الكريم ـ محمود شلتوت . المقدمة . ص. ١٣ ،

(٢) رواه البخارى ومسلم واللفظ للبخاري

وبعد أن ألقى هذا التحدى العام ، وظهر عجزهم ، نزلت آية (يونس) تتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ، من مثل هذا القرآن وأن يدعوا من استطاعوا من دون الله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾(يونس ٣٨-٣٩) ثم أعقب ذلك في سورة (هود) التى نزلت بعد سورة يونس مباشرة بأن تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثل الذى يفتريه محمد ، كما يزعمون ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .(هود ١٣-١٤) ثم ختمت الفترة المكية بآيات التحدي من سورة (الطور) مطالبة إياهم أن يأتوا بحديث مثله ، أي حديث ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ .(الطور: ٣٠-٣٤) . وظلوا عاجزين عن الإتيان بأى مما تحداهم به القرآن ، فقد جفت القرائح وتقطعت الأسباب ، مع أن اللغة لغتهم ، والبيان طوع ألسنتهم .

وفى مستهل العهد المدنى نزلت آيتا (البقرة) أولى السور المدنية متحدية قدرتهم على الإتيان بسورة واحدة من مثله ، منهية هذا الجدل الذى طال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(البقرة: ٢٣-٢٤)

ولم يبق أمام هؤلاء الكفار بعد عجزهم عن مجابهة التحدى ، إلا الإذعان والتصديق بأنه من عند الله ، معجز للبشر ، أو التصدى بالقوة الغاشمة . وإعلان الحرب ضد الحق ، واللجوء إلى المهاترة والعناد ، واختاروا لبؤسهم الحرب ، فذاقوا مر الهزيمة في ميدان القتال ، وكان يغنيهم أن يأتوا بآية من مثل هذا القرآن ولكنهم عجزوا ، وشهد الله ، وشهد الناس أن هذا القران معجزة خاتم الأنبياء من عند الله (١).

وجوه إعجاز القرآن الكريم :

لقد اتفقت كلمة العلماء على أن القرآن لم يعجز الناس عن أن يأتوا بمثله من ناحية واحدة معينة ، وإنما أعجزهم من نواح متعددة ، لفظية ومعنوية وروحية ، تساندت وتجمعت فأعجزت الناس أن يعارضوه ، واتفقت كلمتهم أيضا على أن العقول لم تصل

(١) التربية الإسلامية . للصف الثاني الثانوي . لمحمد عبد الحليم الشيخ وآخرين . وزارة التربية الكويت الطبعة الرابعة ١٩٨٣ ص: ٢٤٢ .

حتى الآن إلى إدراك نواحى الإعجاز كلها ، وحصرها فى وجوه معدودات ، وأنه كلما زاد التدبر في آيات القرآن ، وكشف البحث العلمى عن أسرار الكون وسننه ، وأظهر كر السنين عجائب الكائنات الحية ، تجلت نواح من نواحى إعجازه ، وقام البرهان على أنه من عند الله .

ويلخص فضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف ـ رحمه الله ـ فى كتابه(علم أصول الفقه) بعض ما وصلت إليه العقول من نواحى الإعجاز .[1]

أولها : اتساق عباراته ومعانيه وأحكامه :

فقد طرق القرآن موضوعات متعددة ، اعتقادية ، وخلقية ، وتشريعية ، وقرر حقائق كثيرة ، كونية واجتماعية ووجدانية ، وعبر عن كل ما قصد إلى التعبير عنه بعبارات متنوعة وأساليب شتى ، ولا نجد فى عباراته اختلافا بين بعضها وبعض ، فكلها في مستوى واحد من البلاغة والفصاحة .

كما لا تجد معنى من معانيه يعارض معنى ، أوحكما يناقض حكما ، أو مبدأ يهدم مبدأ ، أو غرضا لا يتفق وآخر ، فكما أنه لا اختلاف بين عباراته وألفاظه ، لا اختلاف بين معانيه وأحكامه .

ولقد أرشد الله سبحانه إلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز بقوله : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾ (النساء ٨٢)

وثانيها : فصاحة ألفاظه وبلاغة عباراته ، وقوة تأثيره :

ليس فى القرآن لفظ ينبو عن السمع أو يتنافر مع ما قبله أو ما بعده ، وعباراته فى مطابقتها لمقتضى الأحوال فى أعلى مستوى بلاغى ، ويتجلى هذا لمن له ذوق عربى فى تشبيهاته ، وأمثاله ، وحججه ، ومجادلاته ، وفى إثباته للعقائد الحقة ، وإفحامه للمبطلين ، وفى كل معنى عبر عنه ، وهدف رمى إليه .

ولقد تناول كثير من المفسرين والمؤلفين بيان أوجه الإعجاز البلاغى والبيانى فى القرآن الكريم ، كما فعل الزمخشري فى تفسيره الكشاف ، وعبد القاهر الجرحاني فى كتابيه (دلائل الإعجاز)و(أسرار البلاغة)، وما كتبه فى عصرنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) .

---

(١) انظر علم أصول الفقه . عبد الوهاب خلاف ـ دار القلم الكويت ط١٧ ، ١٩٨٨ ص٣٣٠

وثالثها : إخباره بوقائع لا يعلمها إلا علام الغيوب :

أخبر القرآن عن وقوع حوادث فى المستقبل لا علم لأحد من الناس بها ، كقوله تعالى : ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾(الروم. ١-٤)

وقوله سبحانه : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾(الفتح ٢٧) .

وقص القرآن الكريم قصص أمم بائدة ليست لها آثار ولا معالم تدل على أخبارهم ، هذا دليل على أنه من عند الله ، الذى لا تخفى عليه خافية في الحاضر والماضى والمستقبل .

وإلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد الله سبحانه بقوله : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾(هود. ٤٩)

ورابعها : انطباق آياته على ما يكشفه العلم من نظريات علمية :

وهو ما يسمى بالإعجاز العلمى للقرآن الكريم ، لقد أكثر العلماء الكتابة والتأليف عن هذا الوجه من وجوه الإعجاز ، وربطوا بين ما وصل إليه العقل البشري من حقائق ونظريات علمية ، وبين ما جاء فى القرآن الكريم من إشارات كونية .

القرآن الكريم أنزله الله علي رسوله ليكون حجة له ودستورا للناس ، فهو كتاب هداية ، وليس من مقاصده الأصلية أن يقرر نظريات علمية في خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وحركات الكواكب ، وغيرها من الكائنات ، ولكنه فى مقام الاستدلال على جود الله ووحدانيته ، وتذكير الناس بآياته ونعمه ، ونحو ذلك من الأغراض - جاء بآيات تفهم منها سنن كونية ، ونواميس طبيعية كشف العلم الحديث في كل عصر براهينها ، ودل على أن الآيات التى لفتت إليها من عند الله ، لأن الناس ما كان لهم بها من علم ، وما وصلوا إلى حقائقها ، وإنما كان استدلالهم بظواهرها ، فكلما كشف البحث العلمى سنة كونية وظهر أن آية فى القرآن أشارت إلى هذه السنة قام برهان جديد على أن القرآن من عند الله .

وإلى هذا الوجه من وجوه الإعجاز أرشد الله سبحانه وتعالى بقوله فى سورة فصلت : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت ٥٢،٥٣).

ومن هذه الآيات قوله تعالى فى سورة النمل فى مقام الاستدلال على قدراته ، ولفت النظر إلى آثاره : ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل :٨٨). وقوله تعالي : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾(الحجر . ٢٢) وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(الأنبياء . ٣٠) وقوله : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن . ٢٠) وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(المؤمنين : ١٢-١٤) [1] .

وأحدث ما قرأت عن الإعجاز العلمى للقرآن الكريم . مقال نشرته مجلة

(١) ألف الصدر الأعظم الغازى أحمد مختار باشا القوميسير العثمانى العالى في مصر سابقا كتابا سماه(سرائر القرآن فى تكوين وفناء الأكوان) ، تضمن تسعين آية قرآنية مطبقة على العلم تطبيقا دقيقا ، وقد نقل هذا الكتاب عن التركية السيد محب الدين الخطيب ، وطبعه مصدرا برسالة للأمير شكيب أرسلان قال فيها : إن هذا الكتاب لم يخدم القرآن بمثله إلى اليوم . (نقلا عن كتاب علم أصول الفقه عبد الوهاب خلاف . دار القلم الكويت . ط ١٧-١٩٨٨ ص : ٣٦

(الخيرية)التي تصدرها شهريا الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية ، العدد ١١ رجب ١٤١٠هـ فبراير ١٩٩٠م تحت عنوان (العلاج القرآنى لمرض الإيدز) بقلم البروفسور الدكتور/ محمد منير حسين يقول فيه : يعتبر مرض الإيدز مرضا فيروسيا يتعطل معه جهاز المناعة في الإنسان كلية . وحتى أن العدوى البسيطة قد تكون قاتلة ، وهو عادة يوجد فى الأشخاص ذوى العلاقات الشاذة ، وفى النساء بسبب الاتصال الجنسى بأكثر من رجل فى وقت واحد ، وفيما عدا نقل الدم كسبب له ، والذى يمكن أن يظهر فى التحاليل المخبرية ـ فإن أكثر الأسباب انتشارا ، والذى يمكن ضبطها هو الاتصال الجنسى ، وذلك هو السبب فى أن هذا المرض أكثر وأسرع انتشارا في البلدان التى لا تضع قيودا علي اختلاط الرجال بالنساء ، وهذا يؤيد فلسفة الإسلام في منع الدعارة ، وعدم السماح بالاختلاط الحر بين الرجال والنساء فقط ، ولكن يوضح أيضا السبب الذى من أجله أباح الله تبارك وتعالى تعدد الزوجات للرجال ، وقيد المرأة بشدة لزوج واحد فقط ، وكذلك السبب الذي من أجله حرم على المرأة المطلقة أن تباشر زواجا ثانيا قبل انقضاء مدة ثلاث دورات شهرية لها .

قال تعالي : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾(البقرة ٢٢٨) [١] إن هذه الفترة لابد وأن تكون حدا كافيا آمنا من حدوث هذا المرض ، وهذا الحد قد فرض من قبل الله تعالى ، أما ما يحدث في هذه الفترة ، باثولوجيا ، وفسيولوجيا ، وفيروسيا . . الخ فهو من المواضيع التي دعا الله المؤمنين ليخوضوا فى بحثها .

ثم ينتقل إلى آية أخرى من سورة النور ، هى قوله تعالى فى عقوبة الزانى غير المحصن : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(النور ٢).

يقول : إن مائة جلدة لكل شخص يرتكب هذه الفعلة يبدو لغير المؤمنين عملا قاسيا ، إلا أنه بالنسبة للمؤمنين فهناك غذاء للفكر في هذه العقوبة ، وبالنسبة لى فإنى أري أن الله تبارك وتعالى قد أعطى إشارة فى هذه الآية كيف تمنع خطر الإيدز الشديد من الانتشار إذا ما ارتكب شخص هذه الفعلة .

وفى الحقيقة هو ليس عقوبة فقط ، ولكن الله تبارك وتعالى يريد أن (يعقم) هؤلاء الأشخاص كى لا يصبحوا الخطر الكبير على المجتمع . . . والسؤال المطروح الآن هو

---

(١) وهذا الجزء من الآية يشير إلى عدة المطلقات والقرء من الألفاظ المشتركة فقد يراد به الحيضة وقد يراد به الطهر .

كيف من الناحية العلمية (يعقم) هؤلاء الأشخاص ؟ ما الذى يحدث عندما يحلدون مائة جلدة ؟ ما هى التغيرات الهرمونية ، والباثولوجية ، والفسيولوجية التى تحدث ؟

إنه من المعلوم تماما عندما تحدث الإصابات فى الأنسجة فإن كميات كبيرة من الهستامين ، والبراوكنين ، والسيروتونين ، ومواد أخري تنتشر في الأنسحة المصابة فى السوائل المحيطة ، وهذه وبالأخص الهستامين تزيد من سريان الدم محليا فتزيد من مسامية الأوعية الشعرية ، والأوردة الدقيقة ، فتسمح بذلك بكميات من السائل والبروتين بما في ذلك الفيبرنيوجين ، كى يتسرب إلى الأنسجة ، ويحدث الالتهابات ، وعادة ما تكون شدة عملية الالتهابات متناسبة مع درجة الإصابات . وبعد أن تبدأ عملية الالتهابات مباشرة ، فإن المساحة الملتهبة تغزوها كريات الدم البيضاء ، وخاصة النيوثروفيلس فى مستودعات النخاع العظمى ، وبما أن النيوثروفيلس هى خلايا غير مكتملة النمو ، فتكون مستعدة فى الحال أن تبدأوظيفة التنظيف لإزالة المواد الغريبة . ومع أن الاستجابة السريعة لتلف الأنسجة تحدث على شكل إنتاج سريع وحركة للنيوثروفيلس ، إلا أن استجابة طويلة المدى بطيئة تزيد فى أعداد الماكروفيج وعلى ذلك فالدفاع المزمن الطويل المدي ضد العدوى فى المقام الرئيسى استجابة ماكروفيج وليس بتروفيل ، وهذا الماكروفيج يستطيع أن يبتلع الباكتريا بدرجة أكبر ، وجزيئات أكبر كذلك ، بما في ذلك الأنسجة الميتة ، وهكذا يقوى جهاز المناعة المكتسبة لدي الإنسان ، وهكذا فإن آية سورة النور تعلمنا فى الحقيقة أن نقوم بالبحث فى أن الاستجابة المناعية لإصابة الأنسجة تعادل الجلد مائة جلدة ، ونستهدى فى هذا البحث لإيجاد علاج علمى لمرض الإيدز ، وهذا موضوع واحد من مواضيع البحث العلمى القرآنى . وصدق الله العظيم : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَق ﴾ (فصلت ٥٣) .

ثم يقول فى نهاية المقال : إننا نحن المسلمين ننشر في العالم أن ديننا عالمى ، ويقدم الحلول لكل مشكلاتنا الاجتماعية ، والتربوية ، والاقتصادية ، وغيرها ، إلا أن أغلب جهودنا تنحصر فى الخطب والمواعظ فقط ، فعلينا إذن أن نحول ، انتباهنا إلى البحث العلمى فى ضوء القرآن لنثبت أن جميع الأوامر والنواهى والحدود ، وضعها ، الله لخير البشرية ، وهذا هو الطريق الوحيد الذى لا يمكن معه أن ينكر أحد صدق القرآن الكريم .

يقول فضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف ـ رحمه الله ـ · وبعض الباحثين لا يرتضون الاتجاه إلى تفسير آيات القرآن بما يقرره العلم من نظريات ونواميس ، وحجتهم أن آيات القرآن لها مدلولات ثابتة مستقرة لاتتبدل ، والنظريات العلمية قد تتغير وتتبدل وقد يكشف الباحث الجديد خطأ نظرية قديمة ، ولكنى لا أرى هذا الرأى لأن تفسير آية قرآنية بما كشفه العلم من سنن كونية ما هو إلا فهم للآية بوجه من وجوه الدلالة على ضوء العلم .

وليس معنى هذا أن الآية لاتفهم إلا بهذا الوجه من الوجوه ، فإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على ذلك الوجه لا خطأ الآية نفسها ، كما يفهم حكم من آية ويتبين خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ [1] .

وإننى أتفق مع فضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف فى هذا الرأى ، ولكن الذى لا أوافق عليه أن يتصدى للإعجاز العلمى من ليست له قدم راسخة فى هذا المجال ، فيحاولون فى تمحل وتعسف ، دون فهم وتدقيق تصيد العبارات ، وتحميلها ما لا تحتمل ، وقد يكون ذلك بحسن نية ـ بقصد إظهار معجزة القرآن ، وقد يحدث ذلك أثرا معاكسا عند من لا يقدر القرآن قدره . إن الإشارات الكونية التى وردت فى القرآن الكريم ، تدفع الإنسان إلى اكتشاف نواميس الكون بالنظر والبحث والفرض والتجريب ، وقد دفعت بالفعل أجيالا من العلماء المسلمين كانوا روادا فى كل مجالات العلوم ـ وتلك فى حد ذاتها معجزة علمية للقرآن الكريم ـ فإذا ما تجلت الحقيقة العلمية ـ بعد ذلك ـ كانت تفسيرا حسنا للإشارة القرآنية ، ودليلا على صدق القرآن الكريم . وذلك هو الإعجاز العلمى .

ولذلك يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ وإنى لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه ، وأن يستخرجوا منه جزئيات فى علوم الطب والكيمياء والفلك ، وما إليها . . كأنما ليعظموه بهذا أو يكبروه .

إن القرآن كتاب كامل فى موضوعه ،وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها . . لأنه هو الإنسان ذاته الذى يكشف هذه المعلومات وينتفع بها . . والبحث والتجريب

---

(١) المرجع السابق ص : ٣٦ .

والتطبيق من خواص العقل فى الإنسان ، والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه ، بناء شخصيته ، وضميره ، وعقله ، كما يعالج بناء المجتمع الإنسانى الذى يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام الطاقات المذخورة فيه ، وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور ، ويوجد المجتمع الذى يسمح له بالنشاط ، يتركه القرآن يبحث ويجرب ـ ويخطئ ويصيب ، فى مجال العلم والبحث والتجريب ، وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح .

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التى يذكرها القرآن أحيانا عن الكون فى طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه ، وطبيعه التناسق بين أجزائه ، لايجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التى يذكرها القرآن ، بفروض العقل البشرى ونظرياته ولا حتى بما يسميه « حقائق علمية » مما ينتهى إليه بطريق التجربة القاطعة فى نظره .

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة ، أما ما يصل إليه البحث الإنسانى أيا كانت الأدوات المتاحة له ـ فهى حقائق غير نهائية ولا قاطعة ، وهى مقيدة بحدود تجارب وظروف هذه التجارب وأدواتها ، فمن الخطأ المنهجى ـ بحكم المنهج العلمى الإنسانى ذاته ـ أن نعلق الحقائق النهائية بحقائق غير نهائية ، وهى كل ما يصل إليه العلم البشرى .

هذا بالقياس إلى « الحقائق العلمية » والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التى تسمى (علمية) ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية ، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه ، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها . فهذه كلها ليست « حقائق علمية » حتى بالقياس الإنسانى ، وإنما هى نظريات وفروض . كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية ، إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدرا أكبر من الظواهر ، أو يفسر تلك الظواهر تفسيرا أدق ، ومن ثم فهى قابلة دائما للتغيير والتعديل والنقص والإضافة ، بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة أو تفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة .

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا تحتوى أولا على خطأ

منهجى أساسى ، كما تنطوى على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم .

الأولى : هى الهزيمة الداخلية التى تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل فى موضوعه ، ونهائى فى حقائقه ، والعلم مايزال فى موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائى ولا مطلق ، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، كلها ليس من طبيعتها أن تعطى حقيقة واحدة نهائية مطلقة .

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن الكريم ووظيفته ، وهى أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق ـ بقدر ما تسمح به طبيعة الإنسان النسبية ـ مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهى ، حتى لايصطدم الإنسان بالكون من حوله ، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه فى خلافته ، نواميسه التى تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة .

والثالثة : هى التأويل المستمر مع التحمل والتكلف لنصوص القرآن كى نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التى لاتثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد ، وكل أولئك لايتفق وجلال القرآن ، كما أنه يحتوى على خطأ منهجى كما أسلفنا

ثم يقول : ولكن هذا لا يعنى ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات ـ ومن حقائق ـ عن الكون والحياة والإنسان فى فهم القرآن . . . كلا إن هذا ليس هو الذى عنينا بذلك البيان ، ولقد قال سبحانه : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ** ﴾ (فصلت : ٥٣) ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم فى الآفاق وفى النفس من آيات الله ، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية فى تصورنا .

ويضرب لذلك مثالا بقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ فيقول : لقد كشفت الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة فى هذا الكون . . . الأرض بهيئتها هذه ، وببعد الشمس عنها هذا البعد ، وبعد القمر عنها هذا البعد ، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها ، وبسرعة حركتها هذه ، وبميل

محورها هذا ، وبتكوين ـ سطحها هذا وبآلاف من الخصائص . . . هي التي تصلح للحياة وتوائمها ، فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة . هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » وتعميقه في نظرنا [1] .

يقول فضيلة الشيخ الغزالي : إن القرآن يمتاز بخاصة لا تعرف لغيره ـ من الكتب القليلة المنتسبة إلى السماء ـ وهي حديثه المستفيض عن الكون وحثه القوي على النظر فيه ، ووصفه المتكرر لآفاقه ، واستخلاصه عظمة الخالق من عظمة المخلوق .

وإنك لتستثار طوعا أو كرها ، وتنتقل من بناء الكون إلى بانيه البديع عندما تقرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ (الفرقان ٤٥) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ (فاطر ٢٧) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (الزمر ٢١) هذه الآيات ومئات غيرها وصفت الملكوت وصفا دقيقا لا تجد في أسواره ثغرة ، وقد وثب العلم في عصرنا وثبات رحبة ، وعرف من أسرار العلم ما لم يعرفه الأوائل ، واستمع إلى آيات القرآن وهي تصف الكون والحياة فوجد تطابقا وتقاربا يقطع بأن مصدر هذا الكلام ، هو الخالق العالم نفسه : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان ٦)

ثم يقول : إن النظريات العلمية لا تفسر بها الآيات القرآنية ، وذلك ما رآه علماؤنا فإن النظريات قابلة للتغير ، ولا نعرض القرآن لظنون رجراجة ، أما الحقائق العلمية ، فإنها إذا وافقت كتابنا كانت تفسيرا حسنا له ، بل تفسيرا علميا لقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) . . . ثم يقول : إننا نحن المسلمين نتبع اليقين ونأبى الظنون والتخامين ، والإعجاز له رجاله الراسخون ، وأمثل من قرأت لهم الدكتور محمد أحمد الغمراوي طيب الله ثراه ، والدكتور موريس بوكاي زاده الله هدى وتوفيقا [2] .

---

(١) فقة الدعوة . سيد قطب . مؤسسة الرسالة ط أولي . ص ٣٥

(٢) الطريق من هنا . محمد الغزالي . وزارة الأوقاف . الكويت . ص : ١٠٤

إن آيات الله الكونية تهيب بالغافلين أن يتدبروها ، ويعملوا فيها عقولهم ، وأفهامهم ، إلا أن كثيرا منهم يصدفون عنها . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف ١٠٥)

والدعوة للتفكير فى خلق الله ومصنوعاته ظاهرة جلية بصريح النص الذى لا يحتاج إلى تأويل . قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأعراف . ١٨٥) .

والقرآن يكرم العلماء العاملين وقد أناط بهم فهم آياته ومعرفة حقيقة المراد منها قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

والدارس للقرآن الكريم يأخذ وينهل منه على قدر قدرته على الاستيعاب ، ودرجة يقينه وإيمانه ، وحسب ثقافته العلمية ومعارفه العديدة ، ودقة استنباطه ، وعمق دربته واتساع مداركه .(١)

وإن كان لى من كلمة أختم بها هذا الفصل عن كتاب الدعوة فهى كلمة رائعة للشهيد سيد قطب عن فاعلية هذا الكتاب الكريم وتفاعله مع الحياة البشرية ، وعن استمراريته وديموميته ، وعن صلته الوثيقة بالكون والحياة . يقول : إن هذا القرآن حقيقة ذات كينونة مستمرة كهذا الكون ، الكون كتاب الله المنظور ، والقرآن كتاب الله المقروء ، وكلاهما شهادة ودليل على صاحبه المبدع ، كما أن كليهما كائن ليعمل بنواميسه ، مازال يتحرك ويؤدى دوره الذى قدره له بارئه . الشمس مازالت تجرى فى فلكها وتؤدى دورها . والقمر والأرض ، وسائر النجوم والكواكب لا يمنعها تطاول الزمان من أداء دورها ، والقرآن كذلك أدى دوره للبشرية ، ومايزال هو هو ، فالإنسان مايزال هو هو كذلك مايزال هو هو فى حقيقته وفى أصل فطرته وهذا القرآن هو خطاب الله لهذا الإنسان ـ فيمن خاطبهم الله به ـ خطاب لا يتغير لأن الإنسان ذاته لم يتبدل خلقا آخر ، مهما تكن الظروف والملابسات قد تبدلت من حوله ، ومهما يكن قد تأثر أو أثر فى هذه الظروف والملابسات ، والقرآن يخاطبه فى أصل فطرته ، وفى أصل حقيقته التى لاتبديل فيها ولا تغيير ، ويملك أن يوجه حياته اليوم وغدا لأنه معد لهذا ، بما أنه خطاب الله الأخير ، وبما أن طبيعته كطبيعة هذا الكون ثابتة متحركة بدون تبديل .

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن . السيد الجميلي . دار اللبناني . ص : ١٢ .

وإذا كان من المضحك أن يقول قائل عن الشمس مثلا : هذا نجم قديم (رجعى) يحسن أن يستبدل به نجم جديد (تقدمى) أو أن هذا (الإنسان) مخلوق قديم (رجعى) يحسن أن يستبدل به كائن آخر (تقدمى) لعمارة هذه الأرض . . .

إذا كان من المضحك أن يقال هذا أو ذاك ، فأولى أن يكون هذا هو الشأن فى القرآن . خطاب الله الأخير للإنسان [1] .

---

(١)فقة الدعوة . سيد قطب . مؤسسة الرسالة . ط أولي ١٩٧٠ ص : ١٨ ، ١٩ .

٦ـ الدعوة الخاتمة

عرفنا أن كل دعوة سبقت دعوة محمد ـ ﷺ ـ كانت تكمل ما قبلها وتصدقه ، وتمهد لما سيأتي بعدها ، وأن الرسل الكرام بشروا برسول من بعدهم ، وبذلك أكدوا أن دعوتهم ليست خاتمة ، وأنها لفترة خاصة من الزمن ، ولقوم معينين ، فلما جاء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ عرف الناس أنه الرسول الخاتم الذي مهد له سائر الرسل ، وقد انتهت الرسالات برسالته ، وختمت النبوات بدعوته ـ ﷺ ـ

وأنزل الله علي خاتم رسله ـ ﷺ ـ قبيل وفاته : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ (المائدة . ٣) .

يقول الشهيد سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية : إن المؤمن يقف أمام إكمال هذا الدين ، يستعرض موكب الإيمان ، وموكب الرسالات ، وموكب الرسل ، منذ فجر البشرية ، ومنذ أول رسول ـ آدم عليه السلام ـ إلي هذه الرسالة الأخيرة ، رسالة النبي الأمي إلي البشر أجمعين . . .

فماذا يري ؟ يري هذا الموكب المتطاول المتواصل ، موكب الهدي والنور ، ويري معالم الطريق علي طول الطريق ، ولكنه يجد كل رسول ـ قبل خاتم النبيين ـ إنما أرسل إلي قومه ، ويري كل رسالة ـ قبل الرسالة الأخيرة ـ إنما جاءت لمرحلة من الزمان . . رسالة خاصة ، لمجموعة خاصة ، في بيئة خاصة ، ومن ثم كانت كل الرسالات تلك محكومة بظروفها هذه ، متكيفة بهذه الظروف ، كلها تدعو إلي إله واحد ـ فهذا هو التوحيد ـ وكلها تدعو إلي عبودية واحدة لهذا الإله الواحد ـ فهذا هو الإسلام ـ ولكن لكل منها شريعة للحياة الواقعية تناسب حالة الجماعة وحالة البيئة وحالة الزمان والظروف .

حتي إذا أراد الله أن يختم رسالته إلي البشر أرسل إلي الناس كافة رسولا خاتم ـ النبيين برسالة « للإنسان » من وراء الظروف والبيئات والأزمنة . لأنها تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ، ولا تتحور ، ولا ينالها التغيير ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (الروم : ٣٠)

وفصل في هذه الرسالة شريعة تتناول حياة « الإنسان » من جميع أطرافها ، وفي كل جوانب نشاطها ، وتضع لها المبادئ الكلية والقواعد الأساسية فيما يتطور فيها

ويتحور بتغير الزمان والمكان ، وكذلك كانت الشريعة بمبادئها الكلية وبأحكامها التفصيلية محتوية كل ما تحتاج إليه حياة « الإنسان » منذ تلك الرسالة إلي آخر الزمان ، من ضوابط وتوجيهات وتشريعات وتنظيمات ، لكي تستمر ، وتنمو ، وتتطور ، وتتجدد ، حول هذا المحور وداخل هذا الإطار [1] .

لقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة ، وفاقتها كمالا وجلالا ، يقول الحسن البصري - رضي الله عنه - « أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان (القرآن) ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان [2]

إن الدعوة الخاتمة هي الدين في صورته النهائية ، والذي ارتضاه الله دينا للبشرية كلها إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وإذا تأملت كلمة « الدين » في النصوص القرآنية التالية أدركت ما يعنيه الدين في هذه الرسالة الخاتمة .

١ - ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (آل عمران : ٨٥)

٢ - ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران : ٨٥)

٣ - ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف : ٩)

٤ - ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩٣)

٥ - ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (سورة النصر)

العلامة أبو الأعلي المودودي بعد أن عرض هذه الآيات الكريمة بهذا الترتيب في كتابه - المصطلحات الأربعة - يقول : المراد بالدين في جميع هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها الاعتقادية والفكرية والخلقية والعلمية .

فقد بين الله تعالي في الآيتين الأولين أن نظام الحياة الصحيح المرضي عند الله هو النظام المبني علي طاعة الله وعبادته ، وأن ما سواه من النظم المبنية علي طاعة السلطة المفروضة من دون الله ، فإنه مردود عنده .

---

(١) في ظلال القرآن . سيد قطب ٦ / ٤٨٢

(٢) الإكليلي للسيوطي - أضواء البيان ٣ / ٣٣٦ - نقلا من كتاب الرسل والرسالات د عمر سليمان الأشقر مكتبة الفلاح ط ثالثة ١٩٨٥ ص : ٢٤٠ .

وفي الآية الثالثة يذكر سبحانه أنه أرسل رسوله محمدا ﷺ بذلك ـ النظام الحق الصحيح للحياة الإنسانية ـ أي الإسلام ـ وغاية رسالته أن يظهره علي سائر النظم لهذه الحياة .

وفي الرابعة قد أمر الله المؤمنين بدين الإسلام أن يقاتلوا من في الأرض ولا يكفوا عن ذلك حتي تمحي الفتنة ، وبعبارة أخري حتي تمحي جميع النظم القائمة علي أساس البغي علي الله ، وحتي يخلص لله تعالي نظام الطاعة والعبودية كله .

وفي سورة النصر خاطب الله تعالي نبيه ﷺ حين تم النصر الإسلامي بعد الجهد والكفاح المستمر مدة ثلاث وعشرين سنة ، وقام الإسلام بالفعل بجميع أجزائه وتفاصيله نظاما للعقيدة والفكر والخلق والتعليم والمدنية والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وجعلت وفود العرب تتتابع من نواحي القطر وتدخل في هذا النظام ، فإذ ذاك ـ وقد أدي النبي ـ ﷺ ـ رسالته التي بعث لأجلها ـ يقول له الله تعالي : إياك أن تظن أن هذا العمل الجليل الذي قد تم علي يديك من كسبك وسعيك ، فيدركك ـ العجب به ، وإنما المنزه عن النقص والعيب ، والمنفرد بصفة الكمال هو ربك وحده ، فسبح بحمده واشكره علي توفيقه إياك للقيام بتلك المهمة الخطيرة واسأله : اللهم اغفر لي ما عسي أن يكون قد صدر مني من التقصير والتفريط في واجبي خلال الثلاث والعشرين سنة التي قمت بخدمتك فيها [(١)] .

خصائص الدعوة الخاتمة :

للدعوة الخاتمة سماتها التي تنفرد بها ، وخصائصها التي تميزها عن غيرها من دعوات لحقها التبديل والتحريف كما حدث لدعوة موسي ، ودعوة عيسي عليهما السلام ، كما تختلف عن المذاهب الوضعية والفلسفات المعاصرة ، التي هي من نتاج فكر بشري قاصر لايمكن أن يحقق إنسانية الإنسان ، ولا يضمن له السعادة والاطمئنان .

ولكن جاءت دعوة الإسلام في صورته النهائية بعقيدة كاملة ورسالة جامعة ، تشمل كل ما في الكون ، وتضع الحلول الدقيقة لكل مشكلة أيا كان نوعها : سياسية ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو أخلاقية .

---

(١) المصطلحات الأربعة . أبو الاعلي المودودي دار التراث العربي القاهرة ـ بتصرف ـ ص : ٨٧ .

ومن هذه خصائص :

١ ـ الربانية :

فهي دعوة ربانية مستمدة من كلام الله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من القرآن فهو الذي أرسي دعائمها ، وبين معالمها ، ومن صحيح السنة المبينة للقرآن .

والدعوة الإسلامية بهذه الخصيصة إنما تختلف اختلافا جوهريا عن جميع التصورات الفلسفية التي يأتي بها الفكر البشري ، حول الحقيقة الإلهية ، أو الحقيقة الكونية ، أو الحقيقة الإنسانية بما بينها من ارتباطات ، كما تتميز عن المعتقدات الوثنية التي تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصورات البشرية ، فالتصورات الاعتقادية السماوية التي جاءت بها الديانات قبل الإسلام قد دخلها التحريف بما أضيف إلي أصول الكتب المنزلة من شروح وتأويلات ، وزيادات ، وتصورات ، ومعلومات بشرية ، أدمجت في صلبها فبدلت طبيعتها الربانية ، وبقي الإسلام وحده ، محفوظ الأصول ، لم يشب نبعه الأصيل كدر ، ولم يلبس فيه الحق بالباطل (١) .

وصدق الحق تبارك وتعالي : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

٢ ـ الشمول :

جاءت شريعة الدعوة الخاتمة شاملة لكل أجناس البشر ، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلي الوفاة ، وبذلك تشمل كيان الفرد كله ، والمجتمع بأسره .

والناظر فيها يري أنها تتعهد الإنسان جنينا في بطن أمه ، وبعد مولده ، وفي شبابه، وفي رجولته ، وتسايره هكذا في أطواره المختلفة حتي تسلمه إلي أجله . ويري أنها تضع القوانين التي تمهد لوجود الإنسان مستقيما سويا في الدنيا والآخرة ، وتنظم سائر ما تركه بعد موته .

ولاتفرق الدعوة بين ذكر وأنثي ، ولا تضع في اعتبارها ميزة للون أو الجنس ، أو لعارض من عوارض الدنيا كالمال والجاه والأسرة . وبذلك تحقق تشريعاتها الإخاء والعدل والحرية والمساواة ، وتلك الأمور هي غاية ما تتمناه الإنسانية الرشيدة لنفسها (٢) إنها الشريعة التي تحقق الضرورات الخمسة التي تتعلق بها مصالح الدنيا والآخرة ،

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب جـ١ ص ٤١٩٠ .

(٢) الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د أحمد غلوش . دار الكتاب المصري ص . ٢٠٠ ـ بتصرف .

وتحافظ عليها ، وهي : الدين ، والعقل ، والنفس ، والمال ، والعرض . وبالمحافظة عليها تتحقق السعادة وينتشر السلام .

إنها الشريعة التي تتفق مع فطرة الإنسان ، وترفع الحرج عن المكلفين ، ولا تكلفهم فوق طاقاتهم ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ وقد علم الله أتباع هذه الشريعة أن يدعوا الله بقولهم : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ (البقرة . ٢٨٦)

وهي مع يسرها لم تدع جانبا من جوانب الحياة إلا عالجته ، ولا مشكلة إلا وضعت لها حلا في كل زمان ومكان ، فهي في الأمور التي لا تتغير بتغير الإنسان أو الزمان والمكان ـ كأمور العقيدة والعبادات وأصول المعاملات نراها تفصلها بحكمة ودقة لا يقبل معها زيادة أو نقصان ، أما بقية التشريعات فقد وضعت لها القواعد العامة والمبادئ الكلية التي تفتح باب الاجتهاد أمام الفقهاء ليبينوا فروع هذه القواعد .

يقول الشهيد حسن البنا : وقد أكدت مؤتمرات التشريع الدولية علي أن الإسلام قد وضع من القواعد الكلية ما يترك للمسلم بابا واسعا في الانتفاع بكل تشريع نافع مفيد لا يتعارض مع أصول الإسلام ومقاصده ، وأثاب علي الاجتهاد بشروطه ، وقرر قاعدة المصالح المرسلة ، واعتبار العرف ، واحترام رأي الإمام . كل هذه القواعد تجعل التشريع الإسلامي في الذروة السامية بين الشرائع والقوانين والأحكام(١) .

٣ ـ العموم :[عالمية الدعوة]

في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلي عموم دعوة محمد ﷺ ، ـ بل إنها تذكر هذه العالمية صراحة في قوله تعالي : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء . ١٠٧) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (سبأ : ٢٨) ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف ٠ ١٥٨)

فهذه الآيات تفيد صراحة أن الدعوة الإسلامية للعالمين ، وأنها تعم المعاصرين لنزول القرآن ومن سيأتي بعدهم إلي يوم القيامة ، بل إنها تشمل الجن والإنس باتفاق العلماء(٢) .

---

(١) مجموعة رسائل الإمام حسن البنا . المؤسسة الإسلامية ط ثانية ١٩٨١ ص ٠ ١٦٥ .

(٢) الدعوة الإسلامية د أحمد علوش ص : ٢١٤) .

ولقد شاءت إرادة الله أن تظل هذه الدعوة الخاتمة مرتبطة باسم (الإسلام) ، ولم ترتبط باسم شخص أو قبيلة ـ كما ارتبطت اليهودية باسم (يهوذا) وكما ارتبطت المسيحية بالمسيح أوأنصار المسيح ـ فظلت مرتبطة بما يعبر عن الفطرة الإنسانية وهو الانقياد والخضوع للخالق سبحانه وتعالي ، وهذا يؤكد عمومها .

ومما يؤكد عمومها أيضا اتفاقها مع الدعوات السابقة في أصولها ، وتصديقها لكل الكتب السماوية التي سبقتها ، وإيمانها بكل الرسل السابقين ، وهذا جمع للأسرة الإنسانية في إطار الدعوة الإسلامية ، ولذلك يجد الجميع تكريما لرسلهم في هذا الدين مما يجعلهم يؤمنون بهم وهم يؤمنون بهذا الدين .

إن تأكيد عالمية هذا الدين من الأمور الهامة في هذا العصر ، لأن أعداء الدعوة يريدون إثبات خصوصية الإسلام بالعرب ، وأنه دين جنس معين كاليهودية ، ويذكرون أن الاتجاه به إلي غير العرب إنما هو خروج عن طبيعة الإسلام ، وفي تصورهم أنهم بهذه الأباطيل سيقفون في وجه المد الإسلامي في أقطار العالم المختلفة ، ولا يقف الأمر بأعداء الإسلام عند هذا الحد ، بل إنهم يباشرون النزاع المسلح ، ويحاولون إبادة المسلمين في كثير من البلاد التي يوجد فيها أقليات إسلامية ، ولكن هذه المحاولات سوف تبوء بالفشل ، وسوف ترتد سائر موجات الإلحاد والتبشير علي أعقابها خاسرة مدحورة ، وستبقي الحقيقة المجردة الناطقة بعالمية الإسلام (1) .

إن إقبال كثير من غير العرب من شتي بقاع الدنيا من فئات مثقفة ، وفيهم علماء وباحثون علي اعتناق الإسلام ـ لأكبر شاهد علي عالميته .

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة ٣٢) .

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه ـ الحق المر ـ : عالمية الرسالة الإسلامية عقيدة من مقررات الفكر الإسلامي ، تعتمد علي نصوص قاطعة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ ويستطيع قارئ القرآن الكريم أن يطالع هذه العالمية في سور : التكوير ، والقلم ، وص ، وسبأ ، والفرقان ، والأنبياء ، والأعراف ، والأنعام ، ويوسف . . .

ولفتنا النظر إلي أن هذه السور جميعها مكية بل نزل بعضها في السنة الأولي من بدء الوحي ، مما يرد أوهام المستشرقين الذين زعموا أن فكرة العالمية طرأت علي الرسول بعد ما نجح في إخضاع العرب عسكريا ، فأغراه النصر الذي أحرزه بأن يمد رسالته إلي

(1) انظر معالم الدعوة الإسلامية في عهدها المكي د حليفة حسين العسال . دار الطباعة المحمدية .

الأجناس الأخري .

وينضم إلي نصوص القرآن الكريم في تقرير عالمية الدعوة حشد من السنن القولية والعملية بلغ حد التواتر ، ما نازع فيه منازع ، بل لم ترق إليه شبهة .

وقد توارثت هذه العقيدة أجيال المسلمين المتعاقبة ، فلم يشغب عليها شاغب ، ـ وعندما حاول الصليبي أن يهمس بكلام آخر نظر علماء المسلمين إلي هذه المحاولة باحتقار ، وعدوها من سموم الحقد الموروث [1] .

٤ ـ الوسطية .

والدعوة الخاتمة دعوة إنسانية ، ودعوة مستمرة حتي آخر الزمان وأكبر أدلة استمراريتها هو ما يحمله منهجها من توازن واعتدال ، فهي شريعة الوسط لأنها تلبي حاجات الروح والجسم وحاجات الفرد والجماعة في توازن تام لا إفراط فيه ولا تفريط . قال تعالي : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة . ١٤٣) .

هي في العقيدة وسط بين الذين ينكرون الإله ويزعمون أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا وليدة المصادفات والتفاعلات المادية ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ (الجاثية : ٢٤) . وبين الذين يقولون بالتعدد ، ويتخذون مع الله أندادا ، تقرر في صراحة وجلاء أن الله واحد ، وأنه المعبود الذي لايعبد سواه ﴿ قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَم يَلِد وَلَم يُولَد * وَلَم يَكُن لَهُ كُفُواً أحد ﴾ (سورة الإخلاص) ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ (النحل ٥١) ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام ١٦٢ـ١٦٣)

هي في الأخلاق وسط بين الذين يتحللون من كل الفضائل والذين يشتطون في تصور الفضيلة والتزام طرف التشدد فيها : تقرر أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : لا جبن ولا تهور ، لا بخل ولا تبذير ، لا استكبار ولا استخذاء ، لاجزع ولا استكانة ، وأساس ذلك كله قوله تعالي : ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْط

---

(١) الحق المر محمد الغزالي . دار الشروق ط أولي ١٩٨٩

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء : ٢٩) ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان : 67) .

وهي في صلة الإنسان بالحياة وسط بين المادية البحتة ، التي لاتعرف شيئا وراء ما يقع عليه الحس من طعام وشراب وشهوات وغلبة وبطش وجمع الأموال ، وتكاثر وتفاخر ، والروحية البحتة التي تزهد في الحياة وتعرض عنها إعراضا تاما ، فلا زواج ولا سعي ولا عمل ، ولكن تبتل مطلق ، وإهمال للأسباب . يقرر الإسلام في ذلك الوسط أيضا فيقول : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (القصص : ٧٧) ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الجمعة 10) ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (الأعراف : 32)

وهي في طريقة التشريع ووضع قوانين الحياة وسط : لم تدع الناس يشرعون لأنفسهم في كل شيء ، ولم تقيدهم بتشريع من عندها في كل شيء ، بل نصت وفوضت ، نصت فيما لاتستقل العقول بإدراكه ، كالعبادات زمانا ومكانا ، وكيفية ونحو ذلك وفيما لاتختلف المصلحة فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، كالمواريث وأصول المعاملات من بيع وشراء وتحريم لأكل أموال الناس بالباطل ونحو ذلك ، وفوضت فيما يدرك العقل الخير فيه ، وتختلف المصلحة فيه بتغير الأزمنة والأمكنة والأشخاص ، ومن هنا وجد الاجتهاد ، وكان من أركان الشريعة الإسلامية وحفظ الله به للعقل الإنساني كرامته .

وهي في تحديد علاقة الفرد بالجماعة وسط : لم تترك الفرد طليقا يفعل ما يشاء ولم تدعه كالوحش في الفلاة يجري ويمرح ويعبث ، ويفترس ما يقدر عليه ، ويتحكم فيه الأقوي منه ، ولم تلغ شخصه ، وتنس استقلاله وتضيعه في غمار الجماعة لا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا فيها ، ولا يعرف لنفسه وجودا غير وجودها ، كأنه جزء من آلة يتحرك بحركتها ويسكن بسكونها ، ولكنها اعتبرته ذا شخصية مستقلة وفي الوقت نفسه اعتبرته لبنة في بناء المجتمع ، فأثبتت له بالاعتبار الأول حق الملكية لماله ودمه والهيمنة علي نفسه وولده ، ومنحته في هذه الدائرة حق التصرف بما يراه خيرا له وسبيلا لسعادته في حياته ، وأوجبت عليه بالاعتبار الثاني حقا في نفسه بالخروج للغزو والجهاد في سبيل رد العدوان عن الوطن ، وحقا في ماله بالبذل والإنفاق في سبيل

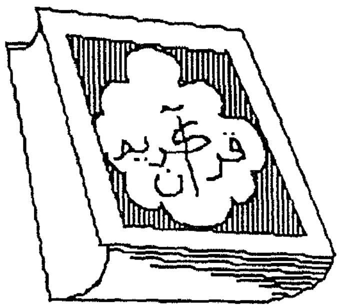
الله ، وأوجبت عليه إرشاد الأمة ، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وأوجبت عليه أن يعمل لإنجاب النسل الصالح ، وتكثير سواد الأمة به ، فيختار الولود ذات الدين والخلق، لتقوي بذلك الأمة ويعلو شأنها .

وفي مقابل هذه الحقوق التي قررتها الشريعة علي الفرد للجماعة ، أوجبت علي الجماعة للفرد حقوقا لا سعادة إلا بها ، كفلت له حفظ دمه وماله وعرضه ، وشرعت لحمايته حق القصاص وحق الحد والتعزير ، وجعلت له حقا في أن تعينه بمالها إذا افتقر ، بذلك تبادل الفرد والجماعة الحقوق والواجبات ، وجعلت سعادة الحياة منوطة بالتعادل بين الجانبين ، وعدم طغيان أحدهما علي الآخر ، فلو ضن الفرد بنفسه أو ماله أو لسانه علي المجتمع ساءت حالته ، وأدركه الضعف والانحلال ، ولو ضن المجتمع بقوته علي الفرد فلم يكفل له سعادته ولم يحفظه في ماله ونفسه وعرضه ولم يعنه في حالة فقره أو ضعفه ، أشقاه وعرضه للهلاك ، وبذلك وذاك تصبح الحياة عبئا ثقيلا لايحتمله ، بل جحيما لاتطاق .

وكذلك كان شأن الشريعة الإسلامية في تحديد علاقة الأمة بغيرها من الأمم : لم ترض للمسلمين بحياة الضعف والذلة ، وأن يكونوا عزلا من القوة ينتظرون حظهم ويترقبون مصيرهم ، وما تقرره الأمم الأخري في شأنهم ، ولم ترض لهم كذلك بحياة الظلم والاستبداد والفتك بالضعفاء ، والاعتداء علي الآمنين في أوطانهم وأموالهم ، ولكنها أمرت المسلمين بإعداد القوة عددا وعدة ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ (الأنفال : 60) وأمرتهم أن يدعوا إلي الله بالحجة والبرهان لا بالالتجاء إلي القوة والقهر﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ (البقرة : ٢٥٦) ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ (يونس : 99) .

ونظرت إلي الحرب وأسبابها الداعية إليها والمفضية إلي إيقاد نيرانها نظرة تتفق وغايتها من الصالح العام والمساواة بين الناس والسير فيهم علي سنن العدل والرحمة ، وحاصرت أسبابها في دائرة معقولة تتناسب وكونها ضرورة من الضرورات هي دفع الظلم والعدوان ، وإقرار حرية التدين ، والدفاع عن الأوطان ، وإن القرآن الكريم ليرشد إلي ذلك في عدة مواضع إذ يقول : ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ (البقرة . ١٩٠) ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة . ٣٦) ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج ٣٩ـ٤٠)[١].



(١) انظر تفسير القرآن الكريم . محمود شلتوت ، الأجزاء العشرة الأولى . دار القلم القاهرة ص : 40

٧- تتابع دعوات الرسل وترابطها

أولا : وحدة المصدر والهدف :

دعوات الرسل عليهم السلام مصدرها واحد ، هو خالق الكون ، وخالق الحياة ، وخالق الإنسان ، وقيوم السموات والأرض ، مصدر الخير والرحمة ، العزيز الحكيم ، القائل : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ (النساء : ١٦٣ ، ١٦٤)

وهدفها واحد ، هو تبليغ رسالات الله ، وتعريف الناس بخالقهم ، وإرشادهم إلي ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم ، وإيقاظ قلوبهم بالتبشير والإنذار ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ١٦٥) .

والكتب السماوية التي نزلت علي الرسل مصدرها واحد هو مصدر الحق والهدي والنور ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران ٢ ، ٤)

ولقد عرضت سورة المائدة الهدف من إنزال التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وهي أعظم الكتب المنزلة من عند الله في سبع آيات هي قوله تعالي : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ

هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٤٤-٥٠)

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات الكريمة : لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة ، منهج حياة واقعية ، جاء الدين ليتولي قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها ، ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ، ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدي في الهيكل والمحراب ، فهذه وتلك - علي ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتهما في تربية الضمير البشري - لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ، ما لم تقم علي أساسهما منهج ونظام وشريعة وتطبق عمليا في حياة الناس ، ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ، ويؤاخذ الناس علي مخالفتها ويؤخذون بالعقوبات .

والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد ، يملك السلطان علي الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان علي الحركة والسلوك ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا ، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة

فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقي ، حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر ، بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع ، وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا ، حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين وبين اتجاهين مختلفين ، وبين منهجين مختلفين . وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن الكريم في مناسبات شتي : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء : ٢٢) ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ

وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون : ٧١) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية : ١٨) .

من أجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة ، وسواء هذا الدين لقرية من القري ، أو لأمة من الأمم ، أو للبشرية كافة في جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة لحكم واقع ، إلي جانب العقيدة التي تنشئ التصور الصحيح للحياة ، وإلي جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله ، حيثما جاء دين من عند الله ، لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة (١) .

ثانيا : وحدة المعارضة :

لقد واجه الرسل الكرام البشرية بدعوة واحدة ، وعقيدة واحدة ، وكذلك واجهت الجاهلية في كل زمان ومكان دعوة الرسل مواجهة واحدة ، وكما أن دعوة الرسل لم تتبدل ، فكذلك مواجهة الجاهلية لم تتبدل .

يقول الشهيد سيد قطب : إنها حقيقة تستوقف النظر حقا ، إن الجاهلية هي الجاهلية علي مدار الزمان ، إن الجاهلية ليست فترة تاريخية ، ولكنها وضع واعتقاد وتجمع عضوي علي أساس هذه المقومات .

الجاهلية تقوم ابتداء علي أساس من دينونة العباد للعباد ، ومن تأليه غير الله أو من ربوبية غير الله ـ وكلاهما سواء في إنشاء الجاهلية ـ فسواء كان الاعتقاد قائما علي تعدد الآلهة أو كان قائما علي توحيد الإله مع تعدد الأرباب ـ أي المتسلطين ـ فهو ينشئ الجاهلية بكل خصائصها الثانوية الأخري .

ودعوة الرسل إنما تقوم علي توحيد الله وتنحية الأرباب الزائفة وإخلاص الدين لله ـ أي إخلاص الدينونة لله وإفراده سبحانه بالربوبية ـ أي الحاكمية والسلطان ـ ومن ثم تصطدم اصطداما مباشرا بالقاعدة التي تقوم عليها الجاهلية ، وتصبح بذاتها خطرا علي وجود الجاهلية . وبخاصة حين تتمثل دعوة الإسلام في تجمع خاص يأخذ أفراده من التجمع الجاهلي وينفصل بهم عن الجاهلية من ناحية الاعتقاد ، ومن ناحية الولاء . الأمر الذي لابد منه للدعوة الإسلامية في كل مكان وفي كل زمان .

---

(١) في ظلال القرآن . سيد قطب . جـ٦ ص : ٨٩٥ ، ٨٩٦ .

وعندما يشعر التجمع الجاهلي ـ بوصفه كيانا عضويا واحدا متساندا ـ بالخطر الذي يتهدد قاعدة وجوده من الناحية الاعتقادية ، كما يتهدد وجوده ذاته بتمثل الاعتقاد الإسلامي في تجمع آخر منفصل عنه ومواجه له . . . فعندئذ يسفر التجمع الجاهلي عن حقيقة موقفه تجاه دعوة الإسلام (١) .

وسورة إبراهيم تعرض هذه المواجهة بين رسل الله ـ عليهم السلام ـ وبين الجاهلية في كل زمان ومكان ، فتسوق إلينا هذا العرض علي لسان موسي ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم : ٩ـ١٥) .

الكفر والتكذيب والاحتجاج ببشرية الرسول ، والتشبث بما كان عليه الآباء ، واتهام الرسل بالسفه والسحر والجنون ، والسخرية والاستهزاء ، والصلف ، والعناد ، وطلب الآيات ثم التهديد بالقتل أو الطرد والإبعاد . إنها أسلحة الجاهلية في مواجهة دعوات الرسل ، تكاد تكون واحدة . . . ولعل هذا هو السر في أن القرآن الكريم أفرد مساحات واسعة لقصص الرسل والأنبياء لإيضاح أسس الدعوة ووحدتها ، وبيان ما يعترض طريقها من صعاب ، وتثبيت قلب النبي ﷺ : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (فصلت : ٤٣) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (البقرة : ١١٨)

---

(١) في ظلال القرآن . ج ١٣ ص : ١٥٨ ط دار إحياء التراث العربي .

﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(آل عمران: ١٨٣)

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (آل عمران : ١٨٤) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (فاطر : ٤) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (فاطر : ٢٥) فهؤلاء قوم نوح يقولون له : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (هود : ٢٧) ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ (الشعراء ١١١) وهؤلاء قوم صالح يقولون له : ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الشعراء . ١٥٤) وهؤلاء أصحاب الأيكة يقولون لشعيب : ﴿ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (الشعراء : ١٨٦) .

ثم يتطورالصراع من التكذيب وإنكار أن يكون الرسول بشرا يوحي إليه إلي التطاول علي رسل الله بالسب والإيذاء ، والتشبث بما كان عليه الآباء والأجداد .

ففي قصة نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأعراف: ٦٠) ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح . ٢٣) .

وهؤلاء قوم هود يقولون : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ (هود : ٥٣ ، ٥٤) ويقولون له : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (الأعراف : ٦٦) .

وقوم صالح : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ (هود : ٦٢) .

وهؤلاء قوم شعيب : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود : ٨٧)

وهذا فرعون والملأ من قومه لما جاءهم موسي بالحق ، ﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(يونس : ٧٦)

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس : ٧٨)

ثم يحتدم الصراع بين الحق والباطل ، وتصر الجاهلية علي موقفها ، إنه العناد والإصرار علي الكفر ، لقد أعماهم عن الهدي وأحاطت بهم الشهوات ، ولم تغن عنهم النذر ولا الآيات ووصل بهم الضلال إلي الحد الذي يستعجلون به العذاب .

فهذا نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ (نوح : ٥-٧) وهؤلاء قومه : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (الشعراء : ١١٦) ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (هود : ٣٢)

وهؤلاء قوم هود : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (الأعراف : ٧٠)

وقوم شعيب : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هود : ٩١)

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (الأعراف ١٢٧)

وهذا خاتم النبيين ﷺ يقول له ربه : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٣٠) وصدق الله العظيم :
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ (الفرقان : ٣١)

ثالثا : وحدة المنهج :

لقد كان منهج الرسل في دعوة أقوامهم ، والرد علي أباطيلهم ، وتفنيد مزاعمهم منهجا واحدا ، تبدأ الدعوة في بيان واضح وبلاغ موجز يوضح فيه الرسول دعوته :
﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف : ٥٩)
بهذا البلاغ الواضح يضع نوح قومه أمام حقيقة الألوهية ، وحقيقة البعث ، هناك إله

خالق هو وحده المستحق للعبادة . . . وهناك بعث بعد الموت للحساب . . في يوم عظيم . . . فيه عذاب عظيم .

وكذلك فعل كل الرسل ، فتصدي له الملأ من قومه ، وكذبوه ، واستبعدوا أن يوحي إلي بشر مثلهم .

وفي مواجهة التكذيب والاحتجاج ببشرية الرسل ، يؤكد الرسول ـ وفي أسلوب هادئ ـ علي إخلاصه لدعوته ، ويؤكد علي بشريته مبينا أن النبوة نعمة من الله ورحمة يختار لها من يشاء من البشر ، ثم يوحي إليه بما يشاء ، وما عليه إلا البلاغ ، وقومه بعد ذلك مخيرون بين الهدي والضلال ، وأما الآيات التي يطلبونها فإنها متروكة لمشيئة الله وتقديره ينزلها إن شاء في الوقت الذي يشاء إن مهمته هي الإنذار ، وهو لا يطلب علي مهمته أجرا وإنما يبتغي هدايتهم وصلاحهم ، وإنما أجره علي الله الذي أرسله وكلفه .

يقول نوح لقومه : ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ (الأعراف : ٦٣) وكأنه يقول لهم : إن الأمر الطبيعي أن يكون الرسول رجلا من بين من أرسل إليهم ، فكيف عمي ذلك عليكم ، إن عجبكم هذا هو في الحقيقة مثار العجب .

ثم يؤكد بشريته بقوله : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ (هود : ٣١)

وهو مخلص في دعوته لا يسألهم أجرا ولا يريد لهم إلا الخير ، وهم بعد ذلك أحرار فيما يختارون ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (هود : ٢٨ ، ٢٩) .

وهذا ما قاله هود لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (هود : ٥١)

وهذا ما قاله صالح لقومه : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ (هود : ٦٣)

وهذا ما قاله شعيب لقومه : ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (هود ٨٤) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا

أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود : ٨٨)

ويقول الله لخاتم رسله ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (الكهف ١١٠) ويقول له : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام ٥٠) ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (سبا : ٤٧) ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان : ٥٧)

وفي مواجهة العناد والإصرار علي الكفر ، والتشبث بما كان عليه الآباء نري الرسول يجادلهم بالتي هي أحسن ، ويوجههم إلي احترام عقولهم ، وإلي النظر في مظاهر قدرة الله من حولهم ، ويذكرهم بأنعم الله عليهم .

يقول نوح لقومه : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ (نوح : ١٣-٢٠)

ويقول هود لقومه : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الشعراء : ١٣٢-١٣٥)

وهذا صالح يقول لقومه : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء ١٤٦ ١٥٠)

وإبراهيم عليه السلام يقول لقومه : ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (الأنبياء : ٥٦)

وفي قصة موسي : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (الشعراء . ٢٣-٢٤) .

وفي دعوة موسي لبني إسرائيل : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (إبراهيم ٦)

ثم انظر إلي منهج الرسل في توجيه أقوامهم إلي أحداث التاريخ ليتدبروا ويعتبروا بما حل من العذاب والهلاك بالمكذبين من قبلهم ، والرسول بهذا المنهج يوجههم إلي أنه ليس بدعا من الرسل ، وأن تكذيبهم له تكذيب بكل الرسالات التي سبقته .

فنري هودا عليه السلام يقول لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (الأعراف : ٦٩) .

ونري صالحا عليه السلام يقول لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾ (الأعراف : ٧٤) .

ونري شعيبا عليه السلام يقول لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (هود : ٨٩) .

وسورة غافر تحكي لنا ما قاله مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ (غافر ٣٠ ، ٣١) ولكنها سنته التي لا تتخلف في إهلاك المكذبين الطاغين ، ثم يقول لهم : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ (غافر : ٣٤)

والرسول الخاتم - ﷺ - مأمور أن يتبع المنهج نفسه : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (فصلت : ١٣-١٨) .

وفي مواجهة التطاول علي رسل الله ، وتهديدهم ، وملاحقة المؤمنين لهم ، ومحاولة فتنتهم عن دينهم ـ وتلك أخطر مراحل الصراع ـ هنا لابد من المفاصلة بين الحق والباطل ، هذه المفاصلة تكون بأمرين :

الأول : تمسك الرسول بالصف المؤمن ، لقد انقسم القوم إلي أمتين متفاصلتين علي أساس العقيدة ، أمة مهتدية وأمة ضالة ، لقد أصبح المؤمنون هم أمته وأهله ، وهم حملة مشاعل الهداية بعد هلاك المكذبين المستكبرين ، ولن تجدي محاولات عزل القائد عن المؤمنين برسالته والملتفين حوله . ومن هنا قال أول الرسل لقومه : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (هود ٢٩) تجهلون القيم الحقيقية التي يقدر بها الناس في ميزان الله ، وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلي الله ، ومن هنا كان خطاب الله لآخر رسله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف ٢٨) .

الثاني : هو إعلان البراءة من المشركين ومواجهة تهديدهم بالتحدي وإنذارهم الإنذار النهائي بعذاب الله الواقع بهم ، والمصير الأليم الذي ينتظرهم .

فهذا نوح عليه السلام بعد أن بلغ الصراع ذروته يقول لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾ (يونس ٧١) .

إن كنتم لم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم ، وتذكيري بآيات الله ، فأنتم وما تريدون ، وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا علي الله فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم نفذوا ما اعتزمتم عليه دون إمهال .

إنه التحدي الصريح المثير ، لا يقوله إلا الواثق من عدته ، وعدته هي إيمانه ، هي الثقة في رب الكون والمسيطر عليه فكان تحدي نوح هو تحدي القوة الحقيقية الكبري للقوة الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وكذلك كان موقف هود عليه السلام : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ (هود . ٥٤-٥٥) وموقف شعيب عليه

السلام : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ (هود ٩٣) .

امضوا في طريقكم وحطتكم فقد نفضت يدي منكم ، إني عامل علي طريقتي ونهجي وترقبوا العاقبة التي تنتظركم وتنتظرني

وهكذا ينتهي الصراع وتمضي سنة الله التي لا تتخلف في نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين .

رابعا : وحدة النهاية :

إننا إذا تتبعنا نهاية الصراع في كل دعوة من دعوات الرسل عليهم السلام نجد النتيجة واحدة وهي نجاة المؤمنين وهلاك المكذبين ، لأنها سنة الله الجارية ، سنة الله في أخذ الظالمين عندما يتمحض الحق والباطل ، ويقفان وجها لوجه في مفاصلة كاملة ، حينئذ تجري سنة الله التي لاتتخلف . . .

كانت النهاية في قصة نوح : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ (الشعراء ١١٩ ، ١٢٠) .

وكان مصير المكذبين من قومه : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ (نوح : ٢٥)

وكانت النهاية في قصة هود : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف . ٧٢)

وكانت النهاية في قصة ثمود : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ (هود . ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨)

وكانت النهاية في قصة لوط : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف : ٨٣ ، ٨٤) .

وتصور لنا سورة الحاقة مصارع الغابرين ممن كذبوا المرسلين : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ

بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ [1] * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾

(الحاقة ٤ـ١٠)

وفي سورة فصلت يأمر الله خاتم رسله ـ ﷺ ـ لينذر قومه ، ويحذرهم مغبة إعراضهم وتكذيبهم ، فسنة الله لاتتخلف ، وقد يحل بهم ما حل بعاد وثمود إن هم ظلوا علي عنادهم وكفرهم . قال تعالي : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (فصلت ١٣ـ١٨)

وفي سورة العنكبوت : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٠) وسورة الفرقان تصور لنا ما حدث لفرعون وملئه ، وما حاق بقوم نوح ، وما حل بعاد وثمود وأصحاب الرس ، وما استحقه المكذبون في كل القرون من تدمير وتتبير .

قال تعالي : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ (الفرقان : ٣٥ـ٣٩) .

(١) بالطاغية : بالصيحة (صيحة جبريل علية السلام) .

خامسا : تتابع الرسالات وترابطها :

ولأن هدف الدعوات واحد فإنها ترابطت في دقة ، وتماسكت في تعاون واضح وبدت كسلسلة متشابكة مكونة من مجموعة من الحلقات ، كل دعوة تمثل حلقة فيها ، وهي مع زميلاتها تعطي تكوينا متكاملا يستفاد به ، ولذلك قامت كل دعوة بدورها في هذا الترابط حيث تكمل ما سبقها وتصدقه وتمهد لما سيأتي بعدها .

انظر إلي قول الله تعالي : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الصف . ٦)

فتري أن عيسي عليه السلام يصدق ما سبقه من التوراة ، ويبشر بخاتم الأنبياء محمد ﷺ .

وإلي قوله تعالي لخاتم رسله ﷺ : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة : ٤٨) .

فتري أن القرآن الكريم لايكذب كتابا سبق ، وإنما يصدقها جميعا ، ويهيمن عليها لأنه يراقبها ويكشف ما دخل فيها من تحريف وتغيير وتبديل .

وإلي قوله تعالي في سورة الصافات بعد الحديث عن نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ (الصافات : ٨٣) . أي من تبعه في أصل الدين ، وإن طال الزمان بينهما ، وهو ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وكان بينهما هود وصالح (١) .

وانظر إلي قوله تعالي علي لسان يوسف عليه السلام ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ (يوسف : ٣٨) .

ويقول لخاتم رسله ﷺ : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٣) ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦١)

---

(١) تفسير الجلالين : بتحقيق وتعليق د. شعبان محمد اسماعيل ط الشمرلي . ص ٣٧٧ .

ويطلب منه أن يقتدي بهدي الأنبياء من قبله ، فبعد أن ذكر في سورة الأنعام ثمانية عشر رسولا ونبيا ممن اجتباهم وهداهم وأنعم عليهم بنعمة الرسالة فحملوها إلي أقوامهم وصبروا وصابروا حتي تعلو راية الحق وتزول دولة الباطل ، قال له : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾(الأنعام ٩٠)

ويشير النبي ﷺ إلي هذا الترابط والتكامل بقوله : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1] .

فصاحب البنيان هو الله سبحانه وتعالي ، والرسل بدعواتهم لبنات فيه ، والنبي ﷺ ودعوة الإسلام تمام هذا البناء وآخر اللبنات ، وكلها تتضافر في إعطاء البيت كماله الدقيق ، وجماله اللافت للعقول المدركة . والمثل الذي ضربه الرسول لدعوته ودعوات الرسل من قبله يظهر مدي الترابط بينها .

وليس أدل علي وحدة الرسل عليهم السلام ، وترابط رسالاتهم من أن الإيمان برسل الله جميعا ، والكتب التي أنزلها عليهم ركن من أركان الإيمان وأصل من أصول عقيدة المسلم من أمة محمد ﷺ .

قال تعالي : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة : ٢٨٥) .

(١) سبق تخريج الحديث في الفصل الأول . واللفظ هنا صحيح مسلم بشرح النووي . جـ ١٥ باب الفضائل . دار الريان للتراث . ط أولي ١٩٨٧ .

٨- وحدة الأنبياء ودلالتها العلمية علي صدقهم :

إن قصص الأنبياء في القرآن الكريم تؤكد أن القوانين الإلهية التي تحكم الكون المادي والاجتماعي ثابتة فعالة ، تنطبق علي كل الجماعات ، بغض النظر عن حجمها ووقتها ودورها الحضاري ، أي بغض النظر عن معايير الكم والكيف والحجم ، والقوة المادية أو الاجتماعية ، تلك المعايير البشرية التي تتسم بالنسبية والتاريخية والتغير ، فوراء كل هذا تكمن سنن الله الحاكمة والضابطة للإنسان ومجتمعه وتاريخه [١]

﴿ أو لمْ يسيرُوا في الأَرْض فينظرُوا كيْف كان عاقبةُ الَّذين من قَبْلهِمْ كانُوا أَشدَّ منْهُمْ قُوّة وأثارُوا الأرْض وعمرُوها أكْثر ممّا عمرُوها وجاءتْهُم رُسُلُهُم بالْبيِّنات فما كان اللّهُ ليظْلمهُم ولكن كانُوا أنفُسهُم يظْلمُون ﴾ (الروم ٩)

﴿ فأَمَّا عادٌ فاسْتكْبرُوا في الأرض بغيْر الحقّ وقالُوا منْ أشدُّ منَّا قُوَّةً أو لمْ يروْا أنّ اللّه الّذي خلقهُمْ هُو أشدُّ منْهُمْ قُوَّةً وكانُوا بآياتنا يجحدُون ﴾ (فصلت ١٥)

تشير هذه الآيات وغيرها إلي أن منطق القوة والبطش لا يستطيع الوقوف أمام سنن الله الاجتماعية والتاريخية ، أو أمام قوة الخالق سبحانه ، وفي التاريخ القديم والحديث ما يثبت هذا بشكل قاطع ، وينظر القرآن إلي القوة مادية واقتصادية وعسكرية علي أنها ليست إلا بعدا واحدا من أبعاد التقييم الحضاري والإنساني ، فإلي جانب هذه القوة تأتي عوامل متعددة في مقدمتها نوعية العقيدة ، وأهداف وأسلوب استخدام هذه القوة ، ومدي ما يقدمه المجتمع من إسهام حضاري في تقدم الإنسان والشعوب اجتماعيا ، ونشر الحق والدعوة إلي الله

ويدلنا التاريخ علي أن القوة العسكرية تبقي عاجزة إذا لم تحركها شخصيات متماسكة قوية تؤمن بالحق الذي تدافع عنه ، ولعل من أبرز الأمثلة القريبة علي ذلك سقوط العسكرية الألمانية النّازيّة في النصف الأول من هذا القرن ، وسقوط النظرية الشيوعية في النصف الثاني الذي نعيشه من هذا القرن أيضا وما نراه علي الساحة الفلسطينية والساحة الأفغانستانية

نحن المسلمين ندعو كل عالم من علماء عصرنا وأقصد العالم الذي سلمت فطرته

---

(١) انظر المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع - د. نبيل محمد توفيق السمالوطي دار الشروق ط أولي ٩٨

وصفا وجدانه ، وتخلص من أهواء نفسه ونزواتها ولم يعمه تعصب لجنس أو دين - ندعوه أن ينظر في سيرة هؤلاء الصفوة المختارة من بني البشر ، سيرة الأنبياء والمرسلين ، وليكن مصدره القرآن الكريم ، أولا لأنه كتاب نزل من رب العالمين ، وثانيا لأنه الكتاب الذي تعهد الله بحفظه فلم يصبه تحريف أو تبديل أو تغيير .

وقبل ذلك ندعوه إلي أن يتأمل الأحداث التي يعيشها وما يحدث في عالمنا من انقلابات سياسية وعسكرية ، ومن حوادث اجتماعية ، وما ظهر من نظريات سياسية وعلمية ، حيث يجد البلد الواحد تتعاقب عليه نظم سياسية متباينة ، وكلما جد نظام نقض ما كان قبله وحمل الناس علي ما جاء به ، وحملهم أيضا علي معاداة ما سبقه . . . كلما جاءت أمة لعنت أختها . . . سيري نظريات جدت ، وأخري اندثرت ، سيري ما تحمس له الناس بالأمس وعبدوه ، عادوا اليوم فنبذوه وطرحوه . . . وليدع بعد ذلك عصره جانبا .

ثم ينظر في سير الأنبياء والمرسلين فسيري من استقراء التاريخ أن حوادث اجتماعية كبيرة وانقلابات سياسية وحربية هائلة ، حصلت علي أثر ظهور رجال حفظ التاريخ أسماءهم إلي الآن ، ظهروا في أمم مختلفة ، وفي أزمنة متعاقبة ، متحدين في الوجهة ، متوافقين في الغاية ، يظهر أمرهم أولا ضعيفا هينا ، ثم يقوي ويشتد ، ولا يزال كذلك حتي تصير كل قوة بإزائهم ضعفا ، وكل مقاومة استسلاما ، وهم في زمان قوتهم كما في زمان ضعفهم كبراء الأفئدة لاتستخفهم المموهات الأرضية واللذات الوهمية ، أحرار لم تأسرهم قوانين الدنيا ولا سواحر الحياة ، مسلمين وجوههم لله ، لا يخافون بطش جبار ، ولاسطوة غاشم ، داعون إلي سبيل الله لايفترون ولا يملون ، ولايضعفون ولا يجبنون ، جسوم آدمية وأخلاق ملكية ، قد وسع الناس حلمهم وعلمهم ، واتسع للكل صدرهم ووجههم ، فقراء لكن تستخذي الملوك أمامهم ، علماء لكن يرتعد العتاة بحضرتهم .

هؤلاء القادة العظماء الذين برهنت أفعالهم علي صدق أقوالهم ، وجاءت الحوادث مؤمنة علي دعائهم ، اتحدوا كلهم علي القول بأنهم رسل الله إلي خلقه ، وأمنته علي أسرار وحيه ، وأن بينهم وبين العالم العلوي صلة مستمرة ، ومداد لا ينقطع ، وأنهم جاءوا للأرواح ، والعقول بريحانها ، وللأفئدة بمطلوبها ، وللصدور بشفائها .

سيري العالم العصري هذه الحوادث الكبري في التاريخ يتلو بعضها بعضا كأنها سلسلة متجانسة الحلقات ، فلم يسعه إلا الاعتراف لأولئك الرسل الكرام بوظيفتهم ، وكيف لايعترف لهم بها وقد ادعوها وأقاموا الدليل المحسوس علي أنهم رجالها ، وأصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له ، وهو أمر جلل ، وعمل دونه كل عمل .

وسيري العالم العصري نفسه مرغما علي الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم ، لأنهم قالوا نحن أنبياء ، وجاءوا لمن بين ظهرانيهم بألوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم ، وقالوا نحن رسل الله ونصبوا الأعلام الواضحة علي صدق دعواهم ، قالوا من آمن بنا نجا ومن أعرض عما جئنا به هلك ، فكان ما قالوه رغما عن تألب أعدائهم عليهم وتمالئهم علي إحباط سعيهم .

قال كل منهم إني جئت بشريعة ناسخة لشريعة من كان قبلي أو مكملة لها ، وفعل كما قال ، وأيده الله رغما عن كل معارضة ومنابذة [1] .

---

(١) انظر الإسلام في عصر العلم . محمد فريد وحدي ص ٥٠٣ ، ٥١٢ ، ٥١٣ (بتصرف)

الفصل الثالث

قصص الأنبياء ودلالته على صدقهم

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾

(آل عمران : ٦٢)

١ ـ أنواع القصص القرآنى .

٢ ـ فنية القصص القرآنى وإعجازه .

٣ ـ قصة آدم ـ عليه السلام ـ والتصور الإسلامى للخلق .

٤ ـ تكرار القصص القرآنى . أهدافه وإعجازه .

٥ ـ أهداف القصص القرآنى .

١ ـ أنواع القصص القرآنى :

استخدم القرآن الكريم عدة أساليب فى عرض الوقائع والأحداث التاريخية من أجل استخلاص العبر والسنن التاريخية التى تحكم المجتمع والتاريخ الإنسانى ، ومن بين هذه الأساليب الأسلوب القصصى .

ويمكن استخلاص ثلاثة أنواع من القصص القرآنى :

أولاً : قصص الأنبياء وتتضمن دعوتهم إلى أقوامهم والمعجزات التى أيدهم الله سبحانه وتعالى بها ، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها ، وعاقبة المؤمنين والمكذبين ، ومن أمثلة هذا النوع من القصص ، قصص نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه .

ثانياً : قصص قرآنى يتعلق بحوادث عابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم ، كقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وطالوت وجالوت ، وأهل الكهف ، وذى القرنين ، ومريم ، وقارون وأصحاب السبت ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ، وغيرهم .

ثالثاً : قصص تتعلق بالأحداث والوقائع المعاصرة للرسول ، كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى سورة التوبة ، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب ، وأحداث الهجرة ، والإسراء والمعراج ، ومواقفه ـ ﷺ ـ مع يهود المدينة .

٢ ـ فنية القصص القرآنى وإعجازه :

ترد قصص الأنبياء فى القرآن كجزء من نسيجه الدينى ، بمعنى أن القصة فى القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً فى موضوعه ، وطريقة عرضه ، وإدارة حوادثه ، شأن القصة الفنية الحرة ، إنما ترد القصة فى القرآن مقيدة بغرض دينى ، وترد أساساً للدعوة أو للدعاية لهذا الغرض الدينى ، ولقد كان المفروض ـ طبقاً لهذا التقيد ـ أن تجىء القصص خالية من القيمة الفنية ، ونحن نعرف الآن أنه يستحيل على كاتب من البشر أن يوظف فنه للدعاية لشىء ويستطيع أن ينتج فناً فى نفس الوقت .

يثير الدهشة العميقة أن يكسر هذا القانون النقدى فى قصص القرآن الكريم ، فإذا

نحن أمام قصة تدعو مباشرة لشيء ، بينما هي في نفس الوقت عمل فني معجز .

ولعل هذه أول إشارة لافتة لإعجاز القرآن وكونه من عند الله تعالى . . . يستحيل على بشر مهما أوتي من عبقرية فنية أن يقدم أدباً ودعاية في نفس الوقت . . يستحيل أن يقدم فنا معجزاً ودعوة مباشرة في نفس الوقت ، غير أن قصص الأنبياء في القرآن تفعل هذا كله بشكل ناعم لا تحس فيه الجهد ، وإنما يدهشك أن يكون الأمر غير ما هو كائن (١)

يقول الشيخ محمد عبده جاءت آيات القصص على أسلوب القرآن الكريم الخاص الذي لم يسبق إليه ، ولم يلحق به . فهو في القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ، ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام ، وترتيبه على حسب الوقائع التي في القصة الواحدة ، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا ، ويهز النفس للاعتبار هزاً (٢) .

ومع هذه الفنية ، وهذا الإعجاز ، فإن القصص القرآني حق كله ، وصدق كله ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة

قال تعالى ﴿ إِنَّ هذا لهُو الْقصصُ الْحقُّ وما منْ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٦٢) .

وقال تعالى : ﴿ وكُلاًّ نَّقُصُّ عليْك منْ أنباء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحقُّ وموْعظةٌ وذكْرىٰ للْمُؤْمنين ﴾ (هود . ١٢٠) .

وقال تعالى ﴿ نحنُ نقُصُّ عليْك أحْسن الْقصصِ بمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنت من قبْله لمن الْغافلين ﴾ (يوسف ٣)

وقال تعالى : ﴿ قال فما بالُ الْقُرُون الأُولىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ علْمُهَا عندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضلُّ ربي ولا ينسى ﴾ (طه ٥١ ٥٢)

وقال تعالى . ﴿ نحْنُ نقصُّ عليْك نبأَهُم بالْحقِّ ﴾ (الكهف : ١٣) .

★ ★ ★ ★

(١) أنبياء الله احمد بهجت دار الشروق ط ١٠ ١٩٨٧ ص ٢١

(٢) تفسير المنار جـ ص ٢٤٦

٣ـ قصة أبي البشر وأول الأنبياء : آدم عليه السلام :

ويبدأ القرآن الكريم ـ بترتيب المصحف الشريف ـ بعرض واقعة خلق الإنسان ، ذلك العرض الذي يتكرر في سور ومقاطع كثيرة من القرآن الكريم ، من زوايا متعددة ، ولم يعرض لنا القرآن الكريم تفاصيل محددة عن هذا الخلق ولا الفترة الزمنية التي تم فيها ، وقد ورد في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة ٣٠ـ٣٩) هذا العرض القرآني التاريخي يضع لنا حجر الزاوية لكافة العروض القرآنية التالية في الزمن ، وعلى المستوى الحضاري العام يطرح عدداً من المبادئ الأساسية الخطيرة حول تركيب الإنسان ، ووظيفته في العالم ومصيره في الآخرة ، ومصير العالم كله . . الخ . هذه الواقعة الخطيرة وهي خلق آدم وهبوطه من الجنة إلى الأرض هو بداية التاريخ الإنساني ، والقصة القرآنية الصادقة تضع لنا خصائص الإنسان الأساسية التي لا زالت تلازمه ، وستظل حتى قيام الساعة ، من عظمة وضعف ، وصراع وميل شهوى ، وحاجة مستمرة إلى الالتقاء بالسماء لتلقي الهداية عنها ، وبيان ملامح الطريق . وهذا هو تفسير إرسال الله للرسل والأنبياء ، كما توضح القصة مصير الإنسان ، وأساس الثواب والعقاب بعد الرحلة التاريخية ، والمعاصرة ، والمستقبلة للإنسان على وجه الأرض [١] .

---

(١) المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع . د . نبيل محمد توفيق السمالوطي . دار الشروق جدة ط الأولى ١٩٨٠ . ص : ٤٤ ، ٤٥ .

إن إبرز إيحاءات قصة آدم ـ كما وردت فى هذا الموضع ـ هو القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان ولدوره فى الأرض ولمكانه فى نظام الوجود ، وللقيم التى يوزن بها ، ثم لحقيقة ارتباطه بعهد الله ، وحقيقة هذا العهد الذى قامت خلافته على أساسه .

وتتبدى تلك القيمة الكبرى التى يعطيها التصور الإسلامى للإنسان فى الإعلان ، العلوى الجليل فى الملأ الأعلى الكريم ، إنه مخلوق خليفة فى الأرض ، كما تتبدى فى أمر الملائكة بالسجود له ، وفى طرد إبليس الذى استكبر وأبى وفى رعاية الله له أولا وآخرا (١) .

إن قصة آدم عليه السلام لها مغزاها العميق هنا فى هذا البحث ، لأن منهج الإسلام العلمى فى دعوة الرسل مبنى أساساً على التصور الإسلامى لخلق الإنسان ، ووظيفته ، وخصائصه الأساسية والتى لا زالت تلازمه ، وصراعه الأبدى مع الشيطان ، وحاجته المستمرة إلى هداية الله .

٤ ـ تكرار قصص الأنبياء (أهدافه وإعجازه) :

يتضمن القرآن الكريم الكثير من القصص التى تتكرر فى أكثر من موضع ، ويتعدد ذكرها فى القرآن ، وتعرض فى صور مختلفة من التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، وما شابه ذلك ، ويحقق هذا الأمر مجموعة من الوظائف والأهداف الهامة ، نوجزها فيما يلى :

أولاً : بيان بلاغة القرآن فى أعلى مراتبها : فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة ، والقصة المكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر كما يصاغ فى قالب مختلف بحيث لا يمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد فى نفس الإنسان معان لا تحصل له بقراءتها فى المواضع الأخرى .

ثانياً : قوة الإعجاز : فإيراد المعنى فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى (٢) .

ومن المعروف أنه يستحيل على كاتب قصة بشرى ، مهما تكن درجة كفاءته ونبوغه ككاتب . . أن يحكى لك نفس القصة ثلاث مرات أو خمس مرات أو عشر مرات ، ثم يحتفظ بنفس مستواه فى المرات العشر . . لابد أن يهبط مستواه فى تسعة

(١) فى ظلال القرآن . سيد قطب جـ١ ص : ٦٠ .

(٢) المنهج الإسلامى فى دراسة المجتمع . د . نبيل محمد السمالوطى : ص : ٤٣ .

أعشار ما يحكيه . . ولابد أن يكرر نفس ما قاله بنفس التأثير الأول . . لا يمكن أن يأتى بجديد .

هذه مسألة بديهية ، غير أنك تنظر فى قصص القرآن ، فيروعك أن ترى القصة مقدمة عشر مرات يحكيها الله عشر مرات أو خمس عشرة مرة ، نفس القصة ، بنفس المستوى ، بتأثير مختلف .

يظل مستوى القصة فى الذروة رغم تكرارها ، ويتغير تأثيرها وإيحاؤها بكلمة تضاف أو جزء يحذف ، أوعبارة جديدة أو جملة لم تكن موجودة .

شئ معجز يقطع بأن صاحب قصص القرآن ليس هو النبى البشر ، إنما هو رب العالمين سبحانه .

ولهذا السبب يحكى القرآن الكريم القصة مرة ، ومرتين ، وعشر مرات ، وفى كل مرة يعطيك تأثيراً معيناً ، ويملؤك بإيحاء خاص يختلف عما سبق أن أعطاه إياك ، وهذه المعجزة فى الكتابة ، لا ترى لها مثيلاً فى أي كتاب على الأرض غير هذا الكتاب الكريم الذى أسلمه لنا محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ وهو رجل لم يكن يكتب ولم يكن يقرأ (١) .

ثالثاً : الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها فى النفوس ، فالتكرار دليل الاهتمام والتأكيد ، كما هو الحال فى قصة موسى مع فرعون لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل بشكل معجز ، على أن القصة لا تتكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها فى السور الأخرى .

رابعاً : اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة ، حيث تذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام ، وتبرز معان أخرى فى سائر المقامات حسب اختلاف مقتضى الحال ، وهى لا تعطى أحداثها دفعة واحدة ، بل تتخير حدثا مفيداً للغرض وتهتم به

٥ ـ أهداف القصص القرآنى :

أولاً : بيان منهج الدعوة إلى الله تعالى ، وأسسها ، وأصول الشرائع التى بعث بها كل نبى . قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء : ٢٥) .

(١) أنبياء الله . أحمد بهجت ص ٢١ ، ٢٢ .

ثانياً : تثبيت قلب الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وقلوب المؤمنين على دين الله ، وتقوية ثقتهم بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله .

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود ٠ ١٢٠) .

ثالثاً : إظهار صدق محمد - ﷺ - في دعوته بما أخبر به عن أحوال السابقين عبر القرون والأجيال .

رابعاً : مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى ، وتحديه لهم بما جاء فى كتبهم قبل التحريف والتبديل كقوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٣) .

خامساً : جاذبية أسلوب القصص القرآنى مما يؤثر فى السامع ، ويرسخ ما تحتويه من عبر وعظات فى النفوس .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (يوسف : ١١١) .

وبعـد :

فإن القرآن الكريم حرص على أن يوضح للمؤمنين أنه ليس كتاب تاريخ ، وأنه لا يحصر كافة الأنبياء السابقين ، ولا يعرض جميع أحداث الماضى ، وأنه يستهدف . فيما عرضه من قصص الأنبياء وغيرهم تقديم القواعد والخطوط الأساسية التى تحكم مسيرة تاريخ الإنسان ، وبيان مصيره . يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (غافر : ٧٨) .

ويمكن القول بأن الهدف الأساسى الذى يقف خلف هذا القصص الحق ، وهذه العروض التاريخية يتمثل فى إثارة الفكر البشرى ، ودفعه للبحث عن الحق ، وتقديم خلاصات للتجارب البشرية ، والخروج بالعبر والسنن التى تحكم حركة الإنسان ومصيره ، وإزاحة ستار النسيان عن الإنسان ، وامداده بالطاقات التى تضىء له الطريق ، وتقويه على مقاومة الإغراء ، تجنباً للمصير السيئ وتساعده على الفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة .

هذا إلى جانب تقديم الدليل على سعة علم الله ، وتثبيت فؤاد النبى - ﷺ - وتحدى الكافرين ، والتأكيد على وحدة المبادئ ووحدة الدعوة التى نادى بها كل الأنبياء من آدم إلى محمد - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهى دعوة (لا إله إلا الله) .

الفصل الرابع

الإسلام والعلم

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾

(النساء : ١١٣)

١ ـ منزلة العلم في الإسلام .

٢ ـ ما العلم الذى يدعو إليه الإسلام .

٣ ـ الإسلام والعقل .

٤ ـ دفاع عن الإسلام .

٥ ـ الخطر ..... والعلاج .

الإســلام والعـلم

١ ـ منزلة العلم فى الإسلام :

لقد امتن الله على عباده بنعمة العلم بعد نعمة الخلق ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾(العلق : ١ ـ ٥) . وامتن على رسوله ـ ﷺ ـ بنعمة العلم فقال : ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ (النساء : ١١٣) وجعل العلم قرين النبوة(١) .

فقال فى يوسف عليه السلام : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ (يوسف : ٢٢) وعن لوط عليه السلام : ﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ﴾ (الأنبياء : ٧٤) . وعن داود وسليمان عليهما السلام : ﴿ ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ (الأنبياء : ٧٩) وعن موسى عليه السلام : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾ (القصص : ١٤)

وشرف العلماء فجعلهم شهود وحدانيته بعد ملائكته : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾ (آل عمران : ١٨) . يقول الإمام الغزالى ـ رحمه الله ـ فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفاً وفضلا وجلاء ونبلا . (٢) .

والعلماء هم الذين يخشون ربهم لما يرون من دلائل خلقه ، وبديع صنعه ، فقال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر : ٢٨) وهم الذين يرون الحق فيما أنزل من ربهم فيهتدون به إلى الصراط المستقيم ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (سبأ : ٦) وهم الذين يفقهون آيات الله ويعقلونها ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية شاهدة بفضل العلماء وعلو مكانتهم ، ورفيع منزلتهم . قال تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾(المجادلة: ١١) . وقال تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ (الزمر : ٩) وفى هذه الآية من تشريف العلم ما فيه إذ حكم بأن أهله يمتازون على سواهم ، ثم حصر التذكر فى أولى الألباب ، ولا مقوم للألباب غير العلم . (٣) .

---

(١) فسر الشوكانى ـ الحكم ـ فى الآيات بالنبوة . فتح القدير . للشوكانى المجلد الثالث ص : ٤١٦ .

(٢) الإحياء للغزالى ١ ـ ٥

(٣) روح الدين الإسلامى . عفيف طيارة ص ٢٦٨

وقال رسول الله ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » (١) .

إن حكمة الله اقتضت أن يخلق الإنسان لغاية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) . واستخلفه في الأرض لتحقيق تلك الغاية : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة : ٣٠) ولن يكون قائماً بالخلافة ، قادراً على تحمل تبعاتها إلا بالعلم ، وذلك ما أشار إليه الحوار الكريم بين الله تبارك وتعالى وملائكته الكرام ، حين خفيت على الملائكة حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض وعمارتها على يد هذا الخليفة الذي قد يفسد أحيانا ، وقد يسفك الدماء أحيانا ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل .

﴿ قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٣٠) ثم يبين سبحانه لملائكته أنه لما اختار هذا المخلوق ليكون خليفة في الأرض زوده بقدرات خاصة تؤهلة لهذه الخلافة ، وفي مقدمتها قدرته على التعلم ، وبالعلم يبلغ ما أراده الله له من تسخير قوى الكون والسيادة على سائر الكائنات ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة : ٣١ـ٣٣) .

إن الإسلام الذي ارتضاه الله دينا للبشرية ، إنما هو عقيدة وشريعة ، إيمان وعمل ، ولن يكون إيمان بغير علم ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (محمد : ١٩) ولن يكون عمل إلا على أساس من الإيمان والعلم ، ومن هنا ندرك الحكمة من جعل الإسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » (٢) . ، ورغب فيه وجعل طلبه عبادة وطريقاً إلى الجنة ، « من سلك طريقاً يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » (٣) .

وحرم كتمان العلم . . قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح نقلا عن الإحياء للغزالي ١ / ٧ .

(٢) رواه ماجد في المقدمة باب ١٧ ، انظر المعجم المفهرس جـ ٤ ص ٣٣٢ .

(٣) رواه الترمدي . كتاب العلم باب ٩ انظر المعجم المفهرس حـ ٤ ص : ٣٢٦ .

لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ (آل عمران : ١٨٧) وقال ﷺ : « من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » (١) .

وحذر الرسول من الإفتاء بغير علم لأن فى ذلك ضلالاً وإضلالا فيقول : « إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً ، ولكن يقبض العلماء فيرفع العلم معهم ، ويبقى فى الناس رءوساً جهالا يفتنوهم بغير علم ، فيضلون ويضلون » (٢) .

والقرآن الكريم يبين أنه لا حد للعلم : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف : ٧٦) حتى يخفف العلماء من كبريائهم ، ويطلبوا المزيد من العلم ، ويعدوا أنفسهم لتلقى نقد الناقدين .

ويطالب القرآن المسلمين بأن يطلبوا العلم ليهديهم إلى القول الفصل فى كل ما يرجون معرفته من حقائق علوية وكونية . (٣) . ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٤).

والحق أن الحديث عن العلم وصلة العلم بالإسلام حديث يطول ، ويكفى أن نقول إن مادة (العلم) وردت فى القرآن الكريم ـ كتاب الإسلام الخالد أكثر من ستمائة وثلاثين مرة . (٤) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى . دار الريان ط أولى ١٩٨٧ ـ ١٦ / ٢٢٥ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة . انظر المعجم المفهرس جـ ٤ ص ٣١٧ .

(٣) روح الدين الإسلامى . عفيف طبارة ص ٢٦٨ .

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى . دار ومطابع الشعب .

٣ ـ ما العلم الذى يدعو إليه الإسلام ؟

والآن لنا أن نتساءل : ما العلم الذى يدعو إليه الإسلام ؟ هل هو العلم الدينى فقط كما يدعى البعض ؟ أم هو العلم على إطلاقه دينيا كان أو دنيوياً ؟ .

لقد أفرد الإمام الغزالى ـ رحمه الله ـ فى كتابه الإحياء بابا تحدث فيه عن العلم المحمود والعلم المذموم وأقسامهما ، وفيه بيان ما هو فرض عين ، وما هو فرض كفاية ويرى أن العلوم التى لا يستغنى عنها فى أمور الدنيا كالطب والحساب إنما هى من فروض الكفايات ، أى التى لابد أن تقوم بها طائفة من الأمة لصلاح شأنها . (١) .

إذن فالعلم الذى يدعو إليه الإسلام هو كل علم يدفع الجهل ، سواء أكان فى الأمور الدينية أم فى الشئون المادية .

إن القرآن الكريم يحث الإنسان على النظر والتأمل فى نفسه ، وفى الكون من حوله لإدراك عظمة الله وقدرته المتجلية فى خلقه ، ولتحقيق سيادته على الكون الذى سخره الله له تحقيقاً لمعنى الاستخلاف . ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات : ٢١) ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (يونس : ١٠١) ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية : ١٧ ـ ٢٠) .

إن الآيات التى وردت فى القرآن الكريم تحض على تعلم العلوم الطبيعية كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم : ٢٢) وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٧ ، ٢٨) .

وواضح من السياق فى الآيات أن المراد بالعلماء هنا العالمون بالآيات وأسرار الخلق التى أودعها الله فى هذه الأرض ، وموضوع هذه الآيات هو نفس موضوع العلم الطبيعى فالعلم الطبيعى يبحث عن الأشياء الكونية وطبائعها ، وخواصها والعلاقات بينها ثم عن حقيقتها إن أمكن ، أى عن آيات الله المودعة في هذه الأشياء .

---

(١) إحياء علوم الدين . الغزالى ١ / ١٧ .

ففى آيه فاطر مثلا لا يُعرف سر نزول الماء من السماء إلا بعلم الطبيعة ، ولا يعرف تركيبه وخواصه إلا بعلم الكيمياء ، ولا يعرف الإنبات والإثمار إلا بعلم النبات ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها البيض والحمر إلا بعلم طبقات الأرض ، ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام إلا بعلمى أصل الشعوب والحيوان ، ثم انظر إلى تذييل الآية : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فقد حصر الله الخشية الكاملة من الله فى العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية ، لأن العلماء إذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الطبيعة على خشية الله خالقها . (١) .

٣ـ الإسلام والعقل :

وإذا كان الأصل فى العلم هو تحكيم العقل فى كل ما يعرض للإنسان من أمر ، وإذا كان القرآن يدعو إلى النظر والتأمل والتدبر والتفكير فإن العقل هو أداة ذلك كله ، وكما أن الإسلام دين الفطرة السليمة فهو دين العقل السليم ، ولم يتوان الإسلام فى تحرير العقول من الخرافات والأوهام ، وفى المحافظة عليها مما قد يعتورها من فساد وضعف وما قد يرين عليها نتيجة عوامل النشأة والتربية والتقليد الأعمى ، فالعقل فى الإسلام هو مناط التكليف ، والخمر محرمة لأنها تفسد العقل ، والتقليد مذموم لأنه إهدار لقيمة العقل الذى كرم الله الإنسان به وميزه على سائر المخلوقات .

إن مادة (عقل) وردت فى القرآن الكريم تسعا وأربعين مرة وكلمة (الألباب) أى العقول وردت ست عشرة مرة وجاءت كلمة (النهى) بمعنى (العقل) مرتين (٢) وكلها تمجيد للعقل وحث على استخدامه ، وعيب على إهماله .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد : ٤) وفى معرض الدعوة إلى استقلال الفكر وذم التقليد يقول : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٠) ثم يعجب من أولئك الذين يرون آيات الله فى خلقه ، ويمرون عليها دون أن يُعْملوا عقولهم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات : ١٣٧ : ١٣٨) .

ويعيب على الذين يهملون استعمال العقول بأسلوب مؤثر يفعل في السامع مالا

(١) روح الإسلام . عفيف طارة ص . ٢٧٦

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى .

تفعله أقصى الزواجـر : ﴿ إِنَّ شَـرَّ الدَّوَابِّ عِـنْدَ اللَّهِ الصُّـمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٢) . ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان : ٤٤) . وجعل الرجس فى الدنيا والعذاب فى الآخرة لاحقا بأولئك الذين أهملوا عقولهم وسفهوا أنفسهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس . ١٠٠) ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك . ١٠) .

٤ ـ دفاع عن الإسلام :

إذا كان موقف الإسلام من العلم كما رأينا ، وموقفه من العقل كما علمنا ، فلماذا إذن يُفْتَعَلُ صراع بين الإسلام والعلم ؟ ولمصلحة من افتعال هذا الصراع ؟ وما حقيقته ؟ ولماذا نرى عالما فرنسياً هو (أرنست رينان) يؤلف كتابه (الإسلام والعلم) يتهم الإسلام بأنه كان حرباً على حرية الفكر ، وأنه كبت جميع الحركات العلمية ، وحارب العلم والفلسفة ؟ .

فى الواقع أن إلصاق هذه التهم بالإسلام لا يعدو أحد أمرين : إما جهل بحقيقة الإسلام ، وهو جهل مركب لأنه إدراك للشيء على وجه يخالف ما هو عليه (١) . وإما عن قصد وعمد وسوء نية لتشوية وجه الإسلام ، ولصرف الناس عنه مستغلين ما آل إليه حال المسلمين اليوم من ضعف وانحلال .

أما الأمر الأول فقد وقع من أولئك الذين نظروا إلى الإسلام على أنه دين كبقية الأديان . دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة الاطلاع على مبادئه أو مطالعة كتابه . وذلك حين نشب الصراع فى العصر الوسيط فى أوربا بين العلم والدين ، وحين لاقى العلماء الكونيون من رجال الدين فى أوربا ما لاقوا . وأسست محاكم خاصة لمحاكمة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه مما يعده رجال الدين مخالفا لآراء الكنيسة ، وعذب وقتل كثير من العلماء من ذوى المكانة العالية ، واحتدم الصراع ، وخرج العلم منتصراً ، ولكنه من فداحة ما لحقه من اضطهاد رجال الدين جعل بعض أنصاره أكبر همهم ليس الانتقام من رجال الدين فحسب ، ولكن من الدين نفسه ، وزعموا أن أصوله من أوهام الجماعات الأولية ، وأكثروا من الحط من كرامة الدين فى كل فرصة سنحت لهم ، حتى أفضت هذه الحال إلى نفور مستمر من الأديان ، وإلى انتشار الإلحاد بين كثير من الطبقات ، وما زال ينتشر حتى اعتبر التمسك بالدين دليلاً على الجهل .

(١) علماء الأصول يقسمون تعلق الإدراك بالأشياء على النحو التالى

١ ـ العلم وهو إدراك الشيء على ما هو عليه .

٢ ـ جهل بسيط وهو عدم الإدراك بالكلية .

٣ ـ جهل مركب وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه

٤ ـ ظن وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح .

٥ ـ وهم وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد راجح

٦ ـ شك وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مساو

انظر . الأصول من الأصول . محمد بن صالح العثيمين . دار عالم الكتب الرياض . ص : ١٨

ويتحدث الداعية الإسلامى أبو الأعلى المودودى فى كتابه (نحن والحضارة الغربية) عن تطور الصراع فى أوربا بين العلم والدين أو صراع العقل والتجربة مع الدين والإيمان وعن الفلسفة والعلوم التجريبية (SCIENCE) بدء بديكارت (DECARTES) فى القرن السابع عشر الميلادى ، وحتى دارون (DARWIN) فى القرن التاسع عشر الميلادى إلى أن قال : هاتان هما الفلسفة والعلوم التجريبية اللتان قد نتجت عنهما الحضارة الغربية ، وهى كما ترى لا دينية بحتة لا مجال فيها لمخافة إله فى السماء عليم قدير ، ولا وزن فيها لنبوة أو وحى وإلهام ، ولا تصور فيها لحياة أخرى بعد الموت ، ولا خوف من المحاسبة على أعمال الحياة الدنيا كما لا وجود فيها لمسئولية ملقاة على الإنسان ، ولا مكان فيها لمقصد أو غاية أجل وأسمى من المقاصد الحيوانية لحياة الإنسان ، هذه حضارة مادية تماماً يخلو نظامها من كل ما تقوم عليه حضارة الإسلام من خشية الله واتباع القصد ، وحب الصدق ، وطلب الحق ، وطهارة الأخلاق ، والنزاهة والأمانة والبر ، والحياء والتقوى والنظافة ، ونظريتها على نقيض من نظرية الإسلام ، وطريقها واسع فى الجهة المعاكسة لطريق الإسلام .

ومن سوء المصادفات أن القرن الذى بلغت فيه هذه الحضارة الجديدة أوج كمالها من المادية والدهرية والإلحاد كان هو القرن الذى ابتليت فيه ممالك الإسلام من لدن مراكش إلى الشرق الأقصى بغلبة أمم الغرب فى الحكم والسياسة ، فكان هجوم الغرب على الشعوب المسلمة فى ميدان القلم والسيف معا (١) .

وهنا يأتى دور هؤلاء الذين أساءوا إلى الإسلام بسوء نية وعن عمد وقصد والذين سخرتهم الصهيونية العالمية للقضاء على الإسلام وكانت حركات الاستشراق ومحاولات الدس للإسلام ، وكان الخطر الأكبر على هذه الأمة الذى حاق بها من داخلها من أبنائها المتغربين أو المستغربين والذين تتلمذوا على يد هؤلاء المستشرقين ، وأصبح محالا للعقول التى راعتها غلبة الغرب السياسية وبهتتها أن لا تتأثر بروعة الفلسفة والعلوم الغربية وببريق المدينة التى نشأت فى أحضانها ، وساءت الحال خاصة فى الأمم المسلمة التى دخلت تحت حكم دولة من دول الغرب ، لأنها اضطرت لأجل الحفاظ على مصالحها الدنيوية إلى تحصيل علوم الغرب ، ولما لم يكن هذا التحصيل مقصوداً من ورائه طلب العلم مجرداً ، وكان يجلس التلامذة الشرقيون أمام أساتذتهم الغربيين بعقول مرتاعة مفتتنة ، درج النشء المسلم الجديد على أشد ما يكون من

(١) نحن والحضارة الغربية أبو الأعلى المودودى ص ٢٢٠

الإنفعال والتأثر بالأفكار الغربية والنظريات العلمية ، وظلت عقلياتهم تتلون بلون الغرب ، وبقي يمتد فى نفوسهم نفوذ المدنية الغربية ولم يفتح عليهم بالبصيرة النافذة التى تميز بين الصحيح والزائف .

٥ ـ الخطر .... والعلاج

ويعقد الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتابه (الإسلام فى عصر العلم) فصولا عن (تأثير المدنية على العقائد) و (فتنة المدنية الغربية) و (المخلص من فتنة المدنية الغربية) و (المفتونون بالمدينة الغربية) . وينبّه إلى أمرين خطيرين يجب الالتفات إليهما وهما :

الأول : القوى الأوربية المحللة ، ويقصد بالقوى المحللة أن الضعيف من الأمم معرض لتحليل القوى وهضمه والفناء فى جسمه ويضرب لذلك مثلا بأحدنا يدخل مدرسة أوربية خاصة تخرج القادة والزعماء ، فيخرج من كان معه من الأجانب يتولى إدارة بلاده بين عالم عمرانى وفيلسوف اقتصادى ، وقائد عسكرى أو سياسى ، بينما يخرج هو لا يدرى أى شيء يعمل وربما جاء ساخطا على بلاده زاريا على أهلها ويود أن لو لم يكن من بنيها ، فإذا بنا وقعنا فى أيدى فتنة آسرة تسلبنا إرادتنا وعزيمتنا وتتخذنا آلة لتحليل من دوننا من أبناء أمتنا ، ثم يقول : تلك القوى المحللة دائبة لا تكل ، وكلما أدمنت وتمادت مصت دماءنا وأفنت قوانا ، واستنزفت حيويتنا شيئاً فشيئاً .

الثانى : المفتونون منا بمدينة الغرب ، والمعجبون بها إعجابا لا حد له ، فهم في تحمسهم لعاداتها وأصولها ونصحهم للأمة بالأخذ بها يساعدون فعل تلك القوى المحللة مساعدة خطيرة للدرجة القصوى . ألا ترى تزاحم أمم أوروبا على فتح المدارس ببلاد الشرق تصرف المصاريف عليها وهى أحق بها فى بلادها ؟ ماذا يعنى ذلك من تلك الأمم إن لم يكن السعى فى نشر لغتهم وعاداتهم بيننا تسهيلاً لتحليلنا لما قرره العلم من أن اللغة والعادات من أكبر المحللات لعناصر الأمم المستضعفة ؟ فهؤلاء الذين يلقبون بعضهم بعضا بالمصلحين من أكبر أعوان تلك القوى المحللة من حيث لا يدرون ، بل من حيث يريدون الإصلاح ، فإن كان هنالك وجه للتخوف والشك فى المستقبل فهو من جهة هذين الخطرين الكبيرين ليس إلا [١] .

ويقول العلامة المودودى ـ بعثا للأمل وبحثا عن العلاج ـ ما من شك فى أن السواد الأعظم من المسلمين لا يزال إلى هذا اليوم يعتقد بصدق دعوة الإسلام ويريد

(١) الإسلام فى عصر العلم . محمد فريد وجدى . دار الكتاب العربى ط الثالثة ١٩٦٧ .

أن يبقى مسلماً . ولكن كثيراً من العقول الناشئة لا تزال تتأثر بالفكر الغربى والحضارة الغربية وتنحرف عن جادة الإسلام انحرافاً هو إلى الزيادة والانتشار كل يوم ، إن سيطرة الغرب الفكرية وتمكنه العلمى بصرف النظر عن غلبته وإستيلائه السياسى ـ قد غمر الجو الفكرى العالمى بحيث أصبح لا يتأتى لأولى النظر أن ينظروا بعين المسلم ولا لأولى الفكر أن يفكروا بأسلوب الفكر الإسلامى . وهذا الوضع الحرج لن يخرج عنه المسلمون ما لم ينبغ فيهم عباقرة من أهل الفكر الحر ، وبعبارة أخرى إن الإسلام فى أوقاتنا هذه لفى حاجة إلى نهضة جديدة ، وإن إنتاج المفكرين والمحققين من أسلافنا القدامى لم يعد ذا غناء وكفاية لأن الدنيا قد بعدت فى سيرها إلى الأمام ، ولم يعد من الممكن أن يرجع بها القهقرى إلي المراحل التى تجاوزتها قبل ستمائة سنة (١) .

إن الزعامة فى ميدان العلم والعمل اليوم لاريب مكفولة لمن يتقدم بالدنيا إلى الأمام لا لمن يجذبها إلي الوراء ، فإذا كان الإسلام يريد أن يعود إلى مكانته من سيادة العالم فلا سبيل إليها إلا أن ينبغ فى المسلمين رجال من أصحاب الفكر والتحقيق ، يهدمون بقوة فكرهم ونظرهم وبحثهم واكتشافهم تلك الأسس القائم عليها صرح الحضارة الغربية ، ثم يمارسون مشاهدة الآثار والبحث عن الحقائق على هدى الأسلوب القرآنى للفكر والنظر ، ويبنون بذلك نظاما للفلسفة جديداً منتزعاً من الفكر الإسلامى الخالص ، ويرفعون قواعد علوم طبيعية (Natural Scienc) جديدة تنهض عمارتها على الخطوط المرسومة فى القرآن الكريم ، ويبطلون النظرية الإلحادية إبطالاً ، ويؤسسون الفكر والتحقيق على النظرية الإلهية ، ثم يتقدمون بهذه الحركة ـ حركة الفكر والتحقيق الجديد ـ بقوة وعزيمة تضمنان السيطرة على جميع العالم ، وتقوم فى الدنيا حضارة الإسلام الحقة مكان حضارة الغرب المادية (٢) .

ولا يظنن ظان أن ما ينشده العلامة المودودى أمر محال ، أو هو ضرب من الخيال ، وإنما هو أمر ممكن التحقيق ، بل هو وعد ناجز من الله تعالى لعباده المؤمنين العالمين : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (النور : ٥٥). ولقد تحقق وعده لمحمد ـ ﷺ ـ وأتباعه الأولين ، إن الحال التى كان عليها المسلمون يوم نزل هذا الوعد باستخلافهم ، والتمكين لدينهم فيصبح أسلوب حكم ، ودستور حياة ، ويتحقق لهم

(١) نحن والحضارة الغربية : أبو الأعلى المودودى ص : ٢٤ .

(٢) المرجع السابق . ص : ٤ .

الأمن بعد الخوف حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ، والذئب على غنمه ـ كانوا فى حال من الخوف والضعف لا يمكن معها تصور تحقيقه لولا علمهم بأن الوعد نازل من السماء وأن الواعد هو الله .

إن وعد الله لا يتخلف ، وما على المؤمنين اليوم إلا الوفاء بالشروط لكى يتحقق الوعد ، ولن يتأتى ذلك إلا عن طريق التربية ، تربية جيل من المؤمنين العاملين ، جيل يؤمنون بربهم وينظرون إلى الحياة بمنظور إسلامى ، ويبحثون عن الحقائق على هدى الأسلوب القرآنى للفكر والنظر ، ويدعون إلى الأصول الأولية التى هى دعائم كل مدنية ، يدعون إلى الفضائل ويزجرون عن الرذائل .

جيل لا يحقر مدنية الغرب ، بل يحفلون بما وصلت إليه من مظاهر الرقى الإنسانى فى عالمى الصناعة والعلم الطبيعى ، وإنما يحقرون النظرية المادية التى قامت عليها هذه العلوم ، ومن ثم جاءت بأوخم العواقب من ظلم وفساد ، وحروب مدمرة ، وإهدار لآدمية الإنسان .

جيل يوفقون بين علمهم وعملهم ، وبين عواطفهم وأسلوب حياتهم ، شديدو الإرادة ، قويو العزيمة ، لا يبالون بما ينتاب جسومهم فى مرضاة أفئدتهم .

جيل يرون الناس حولهم على طرائق من الأثرة شتى ، فيهم بهم خاطر لمجاراة الناس ، فيردهم عن ورود هذا القذر وجدان عال ، وعاطفة كريمة ، فيحجمون ، وربما تألموا لإحجامهم لغلبة الفتنة المحيطة بهم ، ومن هؤلاء يكون الدعاة على درب المرسلين ، وعلى منهج الإسلام القويم .

ولكن . ما سبيلنا إلى تربية هذا الجيل ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى بحث جديد ، ولكننى أكتفى هنا بنقل خلاصة محاضرة ألقاها فضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق فى المؤتمر التربوى بجمعية المعلمين الكويتية . قال : والخلاصة أن علم التربية الذى يدرس الآن فى معاهدنا وجامعاتنا كثير منه علم فاسد أخذناه من أهل الضلالة الذين لا يتسع المقام لبيان فساد عقائدهم ، ومناهجهم ونظرياتهم (١) .

وقد غاب عن حملة هذا العلم فى بلادنا العربية النماذج الحقة للتربية ، وغاب

---

(١) يقصد علماء العرب ومفكريهم قديماً وحديثاً ، وفلاسفة الشرق الوثنيين ، فمن سقراط وأرسطو وأفلاطون إلى لوثر وفرنسيس بيكون ، وجون لوك إلى جاك روسو إلى هاربرت سنسر ثم جون ديوى ، ومن كونفوشيوس إلى بوذا وزرادشت .

والمحاضرة كانت بعنوان . توجيهات تربوية مستقبلية لبناء الإنسان الصالح فى الوطن العربى مارس ١٩٨٨ .

عنهم الرسول ـ ﷺ ـ أعظم مصلح ومرب عرفته البشرية ، غاب عنهم المدرسة الفكرية والتربوية لابن عباس وابن مسعود الذى علم أمة كاملة فى العراق ، غاب عنهم المدرسة الفقهية العلمية التربوية للإمام أبى حنيفة والمثال الأعظم فى الزهد غاب عنهم مدرسة الإمام مالك التى كان يأتيها طلاب العلم شهراً راجلين من بلاد المغرب والأندلس . غاب عنهم مدرسة الإمام الشافعى العالم المتنقل الذى أسس علم أصول الفقه وتصدى للانحراف الفكرى والعقائدى الذى نشأ فى وقته ، وقوم أجيالاً كاملة ، وخلف بعده رجالا وتراثاً وعلما ما زال يسطع نوره فى الخافقين ، حتى قال عنه صفوة تلاميذه أحمد بن حنبل (كان الشافعى كالشمس للدنيا ـ والعافية للناس) .

غاب عنهم مدرسة الإمام أحمد بن حنبل الذى كان يلتف حول درسه مئات الألوف ـ ولما سجنه المهدى ليقول إن القرآن مخلوق التف حول سجنه أكثر من مائة ألف طالب ـ وبأيديهم الأوراق والأقلام ينتظرون ماذا يتكلم به حتى يكتبوه .

غاب عن هؤلاء ، ولم يدرسوا المدرسة الكبرى للإمام ابن تيمية ، والتى خرجت عشرات العلماء فى كل علم ، كابن كثير ، وابن القيم ، والإمام الذهبى ، والحافظ بن رجب ، وكل واحد من هؤلاء قمة فى العلم .

غاب عنهم أن ابن تيمية هذا ترك وحده فى علم المنطق والإلهيات والأخلاق والديانات والشرائع ، ما لو جمعت كل حكمة فلاسفة الشرق والغرب ما بلغت ورقة منه ، وأنه لا وجه ـ لمقارنة بين ما تركه ابن تيمية وما تركه هؤلاء إلا كوجه المقارنة بين التبر والتراب .

ومن أجل ذلك فإن أمامنا طريقاً طويلا ليتخرج عندنا علماء تربية يؤمنون بالإسلام ويعرفون تاريخه ، لأنه لا يمكن لمن نشأ على غير الإسلام أن ينشىء الأجيال عليه ١٠ هـ .

وإذا قيل : وما علاقة ما كتبت أو نقلت عن الإسلام والعلم فى هذا الفصل بموضوع بحثنا (منهج الإسلام العلمى فى دعوة الرسل)؟ .

قلت : إن ذلك هو لب البحث وأساسه ، لأننا ، بصدد الحديث عن المنهج العلمى ، وإذا كنا ببحثنا هذا نبحث عن الدعاة والمصلحين محاولين ردهم إلى النبع الصافى لدعوة الإسلام على لسان رسل الله وأنبيائه ، وأن نطلعهم على المنهج الذى رسمه الله

تعالى لدعوتهم ـ وهو العليم بما يصلح خلقه ـ فكان لدعوتهم النصرة والغلبة ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة : ٢١) .

وإذا كنا نؤمن بأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، فلابد أن يقف الداعية على أدواء الأمة وعللها ، وأن يتعرف على أبعاد دعوته المكانية والزمانية والبشرية . حتى تؤتى دعوته ثمارها بإذن الله .

*****

الفصل الخامس

منهج الإسلام العلمى فى الدعوة

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ الأنعام : ١٢٤ .

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ يوسف : ١٠٨ .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل : ١٢٥ .

١ ـ المنهج ... والمنهج العلمى .

٢ ـ حقائق عن الإسلام والمنهج العلمى .

٣ ـ منهج الإسلام فى الدعوة .

أ ـ أركان الدعوة وركائزها .

ب ـ التركيز على منافذ العلم وأدوات التحصيل .

جـ ـ النظرة الشاملة إلى الإنسان .

د ـ النظرة الشاملة إلى المجتمع .

هـ ـ استخدام المنهج التاريخى .

و ـ أساليب الدعوة ووسائلها (منهج الرسل فى التبليغ) .

١ـ المنهج ، والمنهج العلمى

تعريف المنهج :

وما دمنا بصدد الكتابة عن (منهج الإسلام العلمى فى دعوة الرسل) فلابد أن نقف على معنى كلمة (منهج) ، وأن نعرف ما هية (المنهج العلمى) قديما وحديثا ، ثم ننتقل إلى منهج الإسلام فى دعوة الرسل .

أما عن كلمة (منهج) فقد جاء فى المصباح : (المنهج) الطريق الواضح ، و(المنهج) و(المناهج) مثله ، ونهج الطريقُ وضح واستبان ، وانهجته أوضحته . وجاء فى مختار الصحاح : (المنهج) بوزن المذهب و(المنهاج) الطريق الواضح ، و(نهج) الطريق أبانه وأوضحه و(نهجه) أيضا سلكه ، وبابهما قطع .[١] ولم ترد مادة (نهج) فى القرآن الكريم غير مرة واحدة ، فى قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة ٤٨) . وقد جاء فى غريب القرآن : (المنهاج) الطريق الواضح يقال نهجت لى الطريق أى أوضحته .[٢]

وكتب التفسير لم تخرج عن هذا المعنى لكلمة المنهاج عند تفسير الآية الكريمة ، ففى تفسير أبى السعود : (المنهاج) الطريق الواضح فى الدين ، من نهج الأمر إذا وضح وفى فتح القدير : (المنهاج) الطريق الواضحة البينة .[٣] .

وقد ورد اصطلاح (منهج النبوة) فى الحديث التالى .

قال ﷺ : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضا ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »[٤] .

---

(١) المصباح المنير ، ومختار الصحاح . مادة (نهج) .

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة . تحقيق السيد أحمد صقر دار الكتب العلمية . بيروت

(٣) تفسير أبى السعود دار إحياء التراث بيروت جـ٣ ص ٤٥ وفتح القدير للشوكانى دار المعرفة بيروت جـ٢ ص ٤٨ .

(٤) رواه أحمد . ٤/ ٢٧٣ سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى الحديث رقم ٥ . نقلا عن كتاب منهج الأنبياء . محمد سرور . الأرقم ط ثالثة ١٩٨٨ ص : ٢٩ .

ولكن كلمة منهج - كما يقول علماء المناهج - لم تأخذ المعنى الاصطلاحي إلا في القرن السابع عشر ، فقد جاء أصحاب (مطق بورروبال) ، فعنوا بتحديد المنهج بكل وضوح ، وجعلوه القسم الرابع من مطقهم ، وعرفوه بأنه (فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين ، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين) فثمة إذن نوعان من المنهج . أحدهما للكشف عن الحقيقة ويسمى التحليل أو منهج الحل ، ويمكن أن يدعى أيضا منهج الاختراع ، والآخر ، وهو الخاص بتعليمها للآخرين بعد أن نكون قد اكتشفناها ، ويسمى بالتركيب أو منهج التأليف ، ويمكن أن ندعوه أيضا (منهج المذاهب) . [1] .

ثم جاء (فرنسيس بيكون) (١٥٦١-١٦٢٦) وغرس بذور المنهج العلمي عندما هاجم دون هوادة المنهج الاستنباطي في الوصول إلى النتائج على أساس مقدمات مسلم بها ، واقترح الوصول إلى نتائج عامة تبنى على الوقائع التي نلاحظها ، على أن منهج بيكون الذي يستمر في جمع الحقائق عشوائيا ، كان يعطي في النهاية أكداسا هائلة من المعلومات لاعلاقة لها بالمشكلة ، وما اشترطه من حصر جميع الحقائق كان أمرا فوق طاقة البشر .

لذلك حاول رجال مثل (نيوتن) ، و(جاليليو) وخلفاؤهم أن يصمموا منهجا أكثر فاعلية في تحصيل معرفة موثوق بها ، وجمعوا لذلك بين عمليات التفكير الاستنباطي والاستقرائي وأنتج هذا الجمع من الفكر والملاحظة منهج البحث العلمي الحديث . [2]

وتكونت فكرة المنهج العلمي بالمعنى المستعمل اليوم ، ومعناه إذن : الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل ، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجه معلومة .

وإذا كان المنهج كما رأينا هو البرنامج الذي يحدد لنا السبيل للوصول إلى الحقيقة أو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، فإن من الممكن أن نفهم هذا اللفظ بمعنى عام ، فتدخل تحته كل طريقة تؤدي إلى غرض معلوم نريد تحصيله . [3]

---

(١) مناهج البحث العلمي . أحمد بدوي . وكالة المطبوعات الكويت ط. ثالثة ١٩٧٧ ص ٤٠ .

(٢) مناهج البحث في التربية وعلم النفس . د ديو بولد ب فان دالين . ترجمة محمد نبيل نوفل وآخرين مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٧٩ .

(٣) مناهج البحث العلمي . أحمد بدوي ص ٦ .

تعدد المناهج .

والواقع أن عدد المناهج لا يكاد ينحصر ، ففى داخل كل علم عدة مناهج ، بل إنه لمن المستحسن أحيانا أن تستعمل مناهج خاصة لمسائل جزئية داخل العلم الواحد ، غير أنه من المستحسن أيضا أن نرد هذه المناهج العديدة إلى مناهج نموذجية قليلة تفرع عليها المناهج الجزئية الأخرى ، مناهج نموذجية نستطيع في نهاية الأمر حصرها فى ثلاثة أو أربعة :

١ - **المنهج الاستدلالى أو الرياضى** : وهو الذى نسير فيه من مبدأ إلى قضايا تنتج عنه بالضرورة دون التجاء إلى التجربة ، وهو منهج العلوم الرياضية خصوصا .

٢ - **المنهج التجريبى** : ويشمل الملاحظة والتجربة معا ، وهو الذى نبدأ فيه من جزئيات أو مبادىء غير يقينية تماما ونسير منها حتى نصل إلى قضايا عامة ، لاجئين في كل خطوة إلى التجربة كى تضمن لنا صحة الاستنتاج ، وهو منهج، العلوم الطبيعية على وجه الخصوص .

٣ - **المنهج الاستردادى أو المنهج التاريخي** : وهو الذى نقوم فيه باسترداد الماضى تبعا لما تركه من آثار ، أيا كان نوع هذه الآثار ، وهو المنهج المستخدم فى العلوم التاريخية والأخلاقية .

٤ - **ونستطيع أن نضيف إليها منهجا رابعا هو المنهج الجدلي** : الذى يحدد منهج التناظر والتحاور فى الجماعات العلمية أو فى المناقشات العلمية ، ولا يمكن لهذا المنهج أن يأتى بثمار حقيقية إلا إذا أسعفته المناهج الثلاثة السابقة .

والواقع أن الفصل بين المناهج العلمية غير ممكن فى البحث العلمى ، فالرياضة قد تعتمد على المنهج التجريبى إلى جانب اعتمادها على المنهج الاستدلالى ، وأى علم من العلوم الطبيعية لابد أن يلجأ إلى المنهج الرياضى ، وفى علم كالجيولوجيا يلجأ العالم الطبيعى إلى المنهج الاستردادى ، وإنما قام العلماء بهذا التقسيم للمناهج من أجل دراستها فحسب . [١] .

وضع المناهج العلمية

والسؤال الآن - من الذى يضع قواعد المناهج العلمية ؟ هل هو الفليسوف أو العالم؟ وهل توصل الإنسان إلى منهج كامل للبحث عن الحقيقة ؟

(١) المرجع السابق . ص . ١٨

ويجيب عن السؤال الأول الدكتور عبد الرحمن بدوى بأن مهمة الفليسوف لا تتنافى هنا مع مهمة العالم ، لأنها خطوة تليها ، فالواجب أن يبدأ العالم المتخصص فيرشدنا إلى المنهج العلمى الذى اتبعه فى أبحاثه وأن يقدم لنا تقريرا مفصلا عن الخطوات التى مر بها وهو بسبيل بحثه فى ميدانه الخاص ، ثم يأتى عالم آخر أوسع أفقا وأميل إلى النظرة العامة أى يكون ذا نزعة فلسفية ، فيحاول أن ينسق بين هذه التقريرات التى قدمها العلماء المتخصصون كى يستخلص منها الخصائص العامة للمناهج المختلفة .

ثم يأتى الفليسوف المنطقى فى الدرجة الثالثة فيحاول إرجاع هذه المناهج إلى صفات ذاتية فى العقل الإنسانى ، محاولا أن يصوغ النتائج التى وصل إليها السابق فى صيغ واضحة تنظم على هيئة مذهب فى العقل الإنسانى ، من حيث طبيعة اتجاهاته فى البحث عن الحقيقة .

وواضح من هذا أنه ليس من وظيفة الفليسوف المنطقى الباحث فى علم المناهج أن يعطى تعاليم ونصائح جزئية يفرض على العالم المتخصص اتباعها ، بل كل ما يقدمه له إشارات عامة وتوجيهات كلية يدعوه إلى الاهتداء بها أثناء بحثه ، وليس فيها أى إثقال عليه أو خنق لروحه ، إذ لا يفرض عليه أن يتبعها كما هى ، بل للعالم المتخصص مطلق الحرية فى اتباعها أو عدم اتباعها ، وتعديلها بما يتلاءم وموضوع بحثه الخاص . وعلى الفليسوف أو المنطقى أن يفهم أن المناهج ليست أشياء ثابته ، بل هى تتغير وفقا لمقتضيات العلم وأدواته .

والواقع أن المناهج العلمية لابد أن تعدل ، بل وترفض من جيل إلى جيل إذا ما ثبت عدم صلاحيتها ، فإن التطبيق العلمى فى اختلاف باستمرار ، والمنهج بالتالى لابد أن يعدل على الدوام . والنتيجة لهذا إذن أن المناهج العلمية فى تغير ، وهذا التغير يتعين بتقدم العلم وحاجاته ، وهذه أمور لا يقدرها إلا العالم المتخصص أولا وبالذات فمرد الأمر فى النهاية إذن إلى العلماء والمتخصصين ، وما علي الفليسوف الباحث في المناهج إلا أن يتابع مناهج العلماء المتخصصين وأن يستقريها لديهم ثم يحاول أن ينسقها فى نماذج عامة ويربطها من بعد بطبيعة العقل الإنسانى ، وليس له إذن أن يقدم نصائح جزئية لهؤلاء ، بل توجيهات عامة ، لهم أن يأخذوا بها أو أن يستلهموها ، كما لهم أن

يرفضوها . [1] .

وأما عن السؤال الثاني فيجيب عنه (فان دالين) بقوله : لم يتوصل الإنسان بعد إلى منهج كامل للبحث عن الحقيقة ، رغم التحسينات التى أدخلها على أساليبه فكل من السلطة ، والخبرة ، والتفكير الاستنباطى والاستقرائى [2] . لها جميعا أوجه ضعف ، ولها حدودها كأدوات للبحث ، وقد أثبت التفكير التأملى أن المنهج العلمى الذى يستخدمه الباحثون له فائدته كوسيلة للبحث في العلوم الطبيعية بصفة خاصة .

ويرى بعض النقاد أن المنهج العلمى لا يمكن استخدامه إلا فى العلوم الطبيعية بينما يشك آخرون فيما إذا كان المنهج العلمى يتبع منهجا واحدا في البحث ، ويرى الباحثون اليوم أنه من المستحيل وضع مجموعة جامدة من القواعد المنطقية ليتبعها الباحثون فى مجالات العلوم الطبيعية ، والآثار والرياضيات ، وعلم النفس ، والاجتماع ، والتربية والتاريخ .

إن العلوم تختلف عن بعضها ، وبالتالى تتعدد المناهج . ومع ذلك فثمة عدد من السمات العامة تميز البحوث العلمية ، مما يشير إلى وحدة المنهج العلمى . ولذلك يجيب بعض الباحثين عندما يسألون عن وجود منهج علمى عام بقولهم .

« . . . يمكن أن نعتبر العلم ، إذا نظرنا إليه بطريقة مجردة ، منهجا عاما ولكن هذا المنهج العام يأخذ أشكالا متباينة عندما يدرس العلماء مشكلات خاصة ، وكثير من ألوان التباين تكون من الأهمية والشمول بحيث يمكن اعتبارها مناهج مستقلة ، العلم إذن منهج عام جدا ، يأخذ أشكالا متباينة ، وهو يتفرع إلى مناهج أقل تعميما تستخدم في دراسة مشكلات خاصة »[3] .

ولمزيد من الإيضاح حول ما قيل عن نقد المناهج الوضعية ـ على لسان علماء الغرب أنفسهم ـ أذكر هنا بعض ما جاء في كتاب فضاء المعرفة : يرى(أرى ايتال) (١٩٧٢) بأن هناك خمسة مصادر وضعية أساسية لبناء المعرفة ، وهى تتوزع بين الخبرة الشخصية ، والجهات الرسمية ، والاستدلال ، والاستقراء ، والمنهج العلمى .

(١) المرجع السابق . ص. ١٢ .

(٢) يشير بذلك إلى ما ذكره فى الفصل الثانى من كتابه (مناهج البحث) عن طرق تحصيل المعرفة ويلخصها فى السلطة وتدخل فيها التقاليد والكنيسة والدولة وقدامى العلماء وآراء الخبراء وفى الخبرة الشخصية والاستنباط والاستقراء إلى أن وصل إلى المنهج العلمى

(٣) مناهج البحث فى التربية وعلم النفس ص ٤٢

ويقول عن الخبرة الشخصية والجهات الرسمية : ولكننا لا نستطيع أن نمنح الموثوقية المطلقة للأحكام الصادرة عن هذين المصدرين فى حقل المعرفة .

أما الاستدلال أو الاستنتاج فيقوم على مبدأ القياس المنطقى ، الذى يعتمد على التوصل إلى نتيجة من بناء علاقة بين قضية كبرى وقضية صغرى ، والنقد الأساسى لهذا المصدر ينطلق من أن الاعتماد على صحة قضية كبرى يعتوره الشك فى كثير من الأحيان ، وبالتالى فإن الشك بالنتيجة أمر قائم .

أما الاستقراء فإنه يقوم أساسا على دراسة وتمحيص مجموعة من القضايا الجزئية ليصار بعد ذلك إلى إطلاق حكم عام على قضية أساسية ، ونقطة ضعف هذا الأسلوب تكمن فى أن استقراء جميع القضايا الأولية أو الجزئية لقضية أساسية غير ممكن عمليا ، وبالتالى فإن تحقيق الاستقراء الكامل أمر متعذر ، إن لم يكن مستحيلا فى كثير من الأحيان ، فالاستقراء ليس منهجا يقينيا ، ولم يستطع العلماء فى هذا الحقل تقديم حلول مقبولة ليقينية الاستقراء . إننا بالطبع لا نرفض استخدام هذين المصدرين المهمين، ولكننا نشير إلى أن الاعتماد على أى منهما بصورة مطلقة غير كاف .

وأخيرا يبقى المنهج العلمى الذى يراه معظم العلماء المعاصرين أسلوبا مميزا للتوصل إلى بنية معرفة أكثر موثوقية فهو يجمع بين عمليات الفكر الاستدلالى والاستقرائى وهو محصلة الملاحظة والفكر الناقد والفرض والتجربة .

ويقر معظم العلماء المعاصرين هذا المنهج كمصدر أكثر موثوقية للمعرفة وفى هذه الحال لابد وأن يرد السؤال : ما مدى مصداقية هذا المنهج كمصدر للمعرفة الموثوقة ؟ وفى الحقيقة فإن هناك جدلا حول مصداقية هذا المنهج أو ضرورة تفرده فى أساليب البحث العلمى .

فمثلا يعتقد (كنت : ١٩٦٢) بأن العلماء المبدعين لا يطيقون حصر أبحاثهم بأى منهج، وهو يرى بأن المنهج الأفضل هو المنهج الفعال ، فى التوصل للحلول المناسبة . ويشير (تون) إلى أن العلماء البارزين لا يلتزمون بمنهجية محددة بل يبتدعون مناهجهم الخاصة ، ويوافق (نوكيد : ١٩٧٩) على هذا الرأى حيث يعتقد بأن المنهج وسيلة ليس إلا ، وبالتالى فلا ينبغى أن نلتزم به كعقيدة ، فلا عجب وأن يدعو إلى الفوضوية كأحد المناهج الممكنة لحل المسألة .

وفى هذا الصدد نرى (فيرابند : ١٩٥٢) فى كتابه (التحرر من المنهج) يدعو إلى عدم

الالتزام بمنهج محدد ، حيث يعتقد بأن الأخذ بمنهج محدد إنما يقوم على فهم ساذج للإنسان وطاقاته . [1] .

وهذا الكلام ليس خارجا عن نطاق بحثنا ، وإنما هو من صحيحه ولبه ، لأننا - بمشيئة الله - سنتبين أن للفكر الإسلامى منهجا أصيلا لا يحتاج فيه إلى تقليد ، بل إن الفكر الإسلامى كان المنبع وكان الأساس لكل ما ظهر ويظهر من مناهج الغرب وعلومهم ، وإنما نعرض ما قالوا لأننا أصبحنا فى عصرنا هذا - والغلبة لهم - فى حاجة أن نقارعهم بسلاحهم نفسه ، الحجة بالحجة ، والدليل بالدليل ، بالتى هى أحسن ، نحتاج أن نقدم صورة صحيحة عن الإسلام فى معالمه الأساسية ، وخطوطه الكبرى ، ومناهجه الأصيلة ، ليستطيع أى فرد أن يوازن بينه وبين غيره من الديانات الأخرى ، والمذاهب الوافدة .

ولقد رأينا وعلى لسان علماء الغرب أنفسهم عيوب هذه المناهج فهم يرون أن الاعتماد على قضية كبرى - فى الاستدلال - أمر يعتوره الشك ، وفى الاستقراء يرون أن تحقيق الاستقراء الكامل أمر متعذر ، وعلى هذا فالاستقراء ليس منهجا يقينيا ، وفى المنهج العلمى القائم على الملاحظة والفكر والفرض والتجربة يرون عدم تفرده في أساليب البحث العلمى ، كما أنه لا يصلح للتوصل إلى بناء كثير من المعارف ، ومن ثم نادوا بعدم التقيد بمنهج معين .

فإذا ما أتينا إلى منهج الإسلام العلمى وجدناه مبرأ من كل هذه العيوب ولم لا ، وواضعه هو خالق الإنسان والأكوان والأحداث ، فإذا استخدم المنهج الاستدلالى فهو منهج صادق لأن قضاياه لا يعتورها الشك ، وإذا استخدم الاستقراء فهو استقراء العالم بكل ذرة فى السموات والأرض ، وإذا وجه إلى الملاحظة والفرض والتجربة كان منهجا صادقا لأن الفرض هنا فرض من يعلم النتيجة قبل وقوعها .

وإذا كان (فيرابند - ١٩٥٢) فى كتابه (التحرر من المنهج) يدعو إلى عدم الالتزام بمنهج محدد ، حيث يعتقد بأن الأخذ بمنهج محدد إنما يقوم على فهم ساذج للإنسان وطاقاته ، فإننا سنرى أن منهج الإسلام العلمى فى دعوة الرسل لم يأخذ بمنهج محدد لأن محور الدعوة هو الإنسان بكل مكوناته ، وبكل طاقاته .

والسؤال الآن : هل للإسلام منهج علمى للبحث عن الحقائق ، أو للوصول إلى

---

(١) فضاء المعرفة د عادل عبد الكريم ياسين ، مؤسسه التقدم العلمى الكويت ط أولى ١٩٨٤ ص ٣٤، ٣٥

الغايات التى ينشدها ؟ وهل وضع الإسلام للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - منهجا علميا فى دعوة الناس ؟ ذلك ما سنحاول الإجابة عنه بإذن الله - فيما يلى

٢ - حقائق عن الإسلام والمنهج العلمى

قبل أن أتحدث عن منهج الإسلام العلمى فى الدعوة أود أن أشير إلى عدة حقائق يراد لها أن تستقر فى الأذهان .

الحقيقة الأولى : أن الإسلام نفسه بمفهومه الشامل هو منهج حياة المسلم ، منهج عقيدته وعبادته ، منهج سلوكه وخلقه . هو البوتقة التى ينصهر فيها الإنسان ليصير إنسانا مسلما ، هو المعمل الذى تعاد فيه صياغة الإنسان ليخرج إنسانا حيا ، جديرا بالأمانة التى حمله الله إياها ، وخلقه من أجلها ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾(الأنعام : ١٢٢) .

إن الإسلام يمثل منهجا متكاملا للحياة البشرية ، يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية ، فى جميع حالاتها ، وفى كل صورها وأشكالها . [(١)] .

وهو منهج قائم على العلم المطلق : بحقيقة الكائن الإنسانى ، والحاجات الإنسانية وبحقيقة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ، وبطبيعة النواميس التى تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية . . ومن ثم لا يفرط فى شىء من أمور الحياة الدنيا ، ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنسانى ، ولا أى تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس الكونية ، إنما يقع الإعتدال والتوافق ، والتوازن والتناسق . الأمر الذى لا يتوافر أبدا لمنهج من صنع الإنسان الذى لا يعلم إلا ظاهرا من الأمر ، وإلا الجانب المكشوف فى فترة زمنية معينة ، ولا يسلم منهج يبتدعه هذا الإنسان من آثار الجهل الإنسانى ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعضها الآخر ، ومن الهزات العنيفة الناشئة عن التصادم ، ولذا رأينا علماء المناهج أنفسهم يقررون أن مناهجهم فى تغير مستمر ، وأنها لابد أن تعدل على الدوام .

وهو منهج قائم على العدل المطلق : . . أولا . . لأن الله يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق . . وثانيا . . لأنه - سبحانه - رب الجميع ، فهو الذى يملك أن يعدل بين الجميع ، وأن يجىء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف - كما

---

(١) راجع فى ظلال القرآن . تفسير سورة المائدة

أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط - الأمر الذى لا يمكن أن يتوافر فى أى منهج أو فى شرع من صنع الإنسان ، ذى الشهوات والميول ، والضعف والهوى - فوق ما به من الجهل والقصور - سواء كان المشرع فردا ، أو طبقة ، أو أمة أو جيلا من أجيال البشر . .

فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها ، فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى فى الحالة الواحدة فى الجيل الواحد .

وهو منهج يتناسق مع ناموس الكون كله : لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله ، صانع الكون ، وصانع الإنسان ، فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كونى ، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه ، بشرط السير على هداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التى تحكمها ، ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذى يعيش فيه ، وتأخذ الشريعة التى تنظم حياته طابعا كونيا ، ويتعامل لا مع نفسه فحسب ، ولا مع بنى جنسه فحسب ، ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء فى هذا الكون العريض ، والذى يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفذ منه ، ولابد من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

ثم إنه المنهج الوحيد الذى يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان : . . . ففى كل منهج - غير المنهج الإسلامى - يتعبد الناس الناس ، ويعبد الناس الناس ، وفى المنهج الإسلامى - وحده يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك .

لأن كل مسلم يسير على هذا المنهج يردد قول صاحب المنهج : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣) .

ومع أن منهج الإسلام قائم على العلم المطلق ، وقائم على العدل المطلق ومتناسق مع ناموس الكون كله ، وهو المنهج الذى يتحرر فيه الإنسان من العبودية لغير الله ، إلا أن إرادة صاحب المنهج شاءت أن يكون للإنسان الذى وضع المنهج من أجله حرية اختيار هذا المنهج واعتناقه بعد أن أودع فى فطرته الإحساس القوى بخالقه، وزوده بالعقل وبكل ما يهيئه ليكون خليفة فى الأرض ، وبين له الهدى والغى على لسان رسله ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقرة ٢٥٦) . ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس ٩٩). هذه هى الحقيقة الأولى .

أما الحقيقة الثانية : فهى أن الإسلام منهج يعالج كل قضايا الإنسان وكل قضايا مجتمعه ، وهى قضايا غاية فى التعقيد والتشابك والتداخل ، فأى منهج - غير منهج الإسلام - هذا الذى يستطيع أن يدرس الإنسان والمجتمع الإنسانى ويعالج قضاياه ، ويمكن أن يقال عنه إنه منهج علمى أو موضوعى ؟ .

لقد أعجبنى الأستاذ منير شفيق وهو يتحدث عن معيار العلمية والموضوعية ، فيقول : ما هو المقياس أو المعيار أو المنهج ، أو المفهوم الذى يحكم على مقولة ما بأنها موضوعية وعلمية أو بأنها ليست كذلك ؟

إذا جاء طبيب وعالج إنسانا مصابا بمرض نفسى عن طريق إجراء عملية جراحية استأصل فيها مرارته ، فهل يكون ذلك العلاج موضوعيا وعلميا ، أم يكون نقيضا للموضوعية - والعلمية ؟ ثم إذا جاء طبيب آخر وعالجه على أسس نفسية واجتماعية فهل يكون هذا العلاج نقيضا للموضوعية والعلمية ؟

من المؤكد أن العلاج الذى أعطاه الطبيب الأول يتنافى مع الموضوعية والعلمية على رغم المبضع وغرفة العمليات المعقمة ، كما أن العلاج الذى أعطاه الطبيب الثانى هو الذى يستحق أن يسمى موضوعيا وعلميا على الرغم من عدم استخدامه المبضع وغرفة العمليات ، وعلى الرغم من اهتمامه بالجوانب النفسية أو الروحية ، أو لجوئه إلى تصحيح مفاهيمه الفلسفية والاجتماعية .

طبعا فى المقابل ، إن الاقتصار على استخدام المعالجة النفسية والروحية فى معالجة مرض عضوى يحتاج إلى استئصال المرارة يناقض العلمية والموضوعية . إن المراد من هذا كله هو الوصول إلى حقيقة أساسية وهى أن ما يحدد الموضوعية والعلمية عند معالجة قضايا المجتمع والإنسان لا يرتبط بالجوانب المادية الملموسة تلقائيا ، ولا يبتعد عن الجوانب النفسية والروحية والفكرية والأخلاقية تلقائيا ، بل يمكن القول بأن الذين ذهبوا هذا المذهب وعاملوا الموضوعية والعلمية بهذه التلقائية وتلك ، أثبتوا أنهم أبعد ما يكونون عن الموضوعية والعلمية ، لأنهم فعلوا ما فعل الطبيب الذى عالج كل الأمراض بالمبضع وغرفة العمليات ولم يقدم العلاج المناسب لكل حالة وفق حالتها ، ومن ثم اعتبار تقديم العلاج المناسب لكل حالة وفق حالتها ، معيارا للموضوعية

والعلمية يقود إلى نزع السلاح الذى يستخدمه المغتربون فى مواجهتهم للإسلام وردهم على عقيدته ونظريته ومفاهيمه ومعاييره ومنهجه فى تناول قضايا الإنسان والمجتمع .

إن دراسة الإنسان والمجتمع تواجه بحالة مركبة من الجوانب الروحية والعقيدية والفلسفية والاقتصادية والمادية والطبقية واللغوية والفردية والجماعية والمصلحية والجغرافية والتاريخية ، ولهذا فإن أى فهم للإنسان والمجتمع لا يتعامل مع هذا الكل المركب والمعقد ، ولا يرى تداخل هذه الجوانب وتأثيراتها المتبادلة ولا يحدد كيفية هذا التداخل ، وسماته ، ونسبه ، فى كل حالة ، وفق ما هي عليه فعلا ، يضل ضلالا بعيدا ، والضلال هو عدم العلمية وعدم الموضوعية .

ومن هنا . فإن الموضوعية والعلمية فى دراسة الإنسان والمجتمع تتنافيان مع النظريات وحيدة الجانب ، أى تلك التى لا توازن موازنة سليمة بين مختلف الجوانب وفي كل حالة ، وهذا ما تقع فيه النظريات التى ترى الإنسان كائنا اقتصاديا أو كائنا ماديا ، أو بيولوجيا فقط ، ولا تراه بكلياته وشموليته .

ولهذا فإن أية نظرية تمسك بهذا الجانب المادي أو ذاك ، وتعتبره سمة الإنسان الأساسية لا يحق لها أن تدعى احتكار العلمية والموضوعية بل لا يحق لها ادعاء العلمية والموضوعية ، لأنها لم تنظر إلى الحالة الإنسانية الاجتماعية على حقيقتها وفق السنن المتحكمة فيها ، وعلي سبيل المثال ، إذا نظرت إلى الفلاح فى بلادنا ولم تلحظ منه غير وقوفه وراء محراثه وعلاقته بملكية الأرض ، فإنها تكون قد رأت سمة واحدة من السمات التي يتكون منها ، وغفلت عن رؤية ذلك الفلاح ضمن عقيدته الإسلامية ، وحضارته العربية الإسلامية ، وتجاهلت نمط روابطه الاجتماعية ، الأمر الذى يقود إلى عدم فهم ذلك الفلاح ويؤدى إلى طرح حلول لمشاكل لا علاقة له بها ، ولا تستطيع أشراكه فى الحل ، وربما تكون ضده أيضا ، بل قد تقترح عليه حلولا تزيد حاله سوءا ، وهذا يتنافى والعلمية والموضوعية ، كما يتنافى والمعاصرة بالمعنى الدقيق للكلمة .

أما من الجهة الأخري فعندما يفهم ذلك الفلاح بمختلف سماته ، وتحدد أهمية كل سمة على ضوء حالته المعطاة يمكن أن يوصف ذلك بالعلمية والموضوعية .

من هنا تدرك بطلان تلك المقولات التي تتهم الإسلام بالتأخر واللاعصرية واللاعلميةواللاموضوعية ، لمجرد مجيئه قبل أربعةعشر قرنا ، كما ندرك بطلان تلك المقولات التي تدعى المعاصرة والتقدم والعلمية والموضوعية لمجرد كونها ابنة القرن الثامن عشر أو التاسع عشر أو العشرين .

ولهذا فليفتح كل كتابه ، وليقدم برهانه ، وليطرح مقولاته ليظهر من أهدي سبيلا وأصوب رأيا ، وأعدل حكما ، وأصح نهجا ، وأحسن عملا ، وأقوم أخلاقا ، فذلكم سيكون هو العصري والعلمى والموضوعى والسائر إلى الأمام حين تحمل كلماته مفاهيم الهدي والحق والصواب والعدل والعمل الحسن والخلق القويم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإجابة عن مشكلات عصرنا وتحدياته . [١] .

الحقيقة الثالثة : أن ما حققه الغرب من تقدم علمى وفكري وما وصل إليه ـ من رقى مادى وحضاري ، إنما يرجع في حقيقةالأمر ـ فى جوانبه الإيجابية ـ إلى القرآن الكريم ـ وإلى حضارة المسلمين ، أولئك الذين دفعهم القرآن الكريم إلى النظر والتفكر ، والتأمل ، والتدبر ، والتفاعل مع الكون من حولهم ، فأثاروا الأرض وعمروها ، وبنوا حضارة شامخة ، شهد لها العدو قبل الصديق . فهذا جيبون يقول ـ عند ذكر الحماية والرعاية التى بذلها المسلمون للعلوم : كان أمراء المسلمين فى الأقاليم يناظرون الملوك في حماية العلم والعلماء ، وكان من نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة ، ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية في بغداد ، وأوقف عليها خمسة عشر ألف دينار سنويا ، وكان عدد الطلاب فيها ستة آلاف لا فرق بين غنى وفقير . فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكفون التلامذة الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ، ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة ، وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سداً لحاجة أهل العلم وشهوة الأغنياء فى جمع الكتب . [٢] .

يقول الأستاذ الأمريكى درابر في كتابه (التنازع بين العلم والدين) : أما فى عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضا من محللاتها الشهيرة مثل حمض الكبريتيك وحمض النيتريك والكحول ، واستخدم العرب علم الكيمياء فى الطب ، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والأقرباذنيات واستخراج الجواهر المعدنية ، أما فى علم الميكانيكا فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام ، وعرفوا تقريبا ناموس الجذب فى الأجسام ، وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة ، أما فى الأيدرو ستاتيك ، وهو علم موازنة السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها ، فقد كانوا

(١) الإسلام فى معركة الحضارة منير شفيق . دار القلم . الكويت ١٩٨٩ .

(٢) نقلا عن كتاب (الإسلام في عصر العلم) محمد فريد وجدى . ص . ٤٥١

أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية ، وكتبوا عن الأجسام السابحة والغائصة تحت الماء ، أما فى نظريات الضوء والإبصار ، فقد غيروا الفرض اليوناني الذى مقتضاه أن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئى وقالوا بعكس ذلك ، أى أن الإبصار يحصل بوصول الشعاع من المرئى إلى العين ، وكانوا يعرفون نظريات انعكاس الأشعة وانكساراتها ، وقد اكتشف الحسن الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى الجو ، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق ، وكذلك نراهما قليلا بعد أن يغيبا [١] .

هذا قليل من كثير جدا يبين فضل المسلمين الأولين على العالم أجمع من جهة العلم والعرفان ، وأن المسلمين الأولين قد سبقوا الأوربيين إلى كل مجال عقلى وباحة فلسفية ، وأنهم قد وضعوا علوما جديدة لم تكن من قبل ، وقد نشروا الصنائع والفنون فى جميع أرجاء العالم ، حتى كانوا أينما حلوا ـ يقول المورخ الفرنسى دروى ـ يحل العلم والتقدم والحياة . [٢] .

وهنا أقول إن علماء المسلمين لم يصلوا إلى هذه النتائج المبهرة فى العلم والمعرفة إلا لأنهم هدوا إلى طرائق من البحث سليمة ، وإلى مناهج علمية صحيحة قادهم إليها كتابهم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والسؤال : إذا كان هذا تراثنا وإذا كانت هذه أصالتنا ، فما بال كثير من متعلمى المسلمين يتهمون آباءهم ويظنون أن الأوربيين هم مفاتيح كنوز العلم ، ومقاليد أسرار الفلسفة والحكمة ، وأنهم مكتشفو المعارف الإنسانية كلها .

إنه التآمر الاستعماري الصليبى الصهيوني ، إنها حملات الاستشراق ، والتبشير . التى حاولت وتحاول طمس مآثر المسلمين ، وحجب أسمائهم ، حتى لم يعد أبناؤنا يرون إلا الأسماء الأجنبية .

تلك كانت وما زالت محاربة الاستعمار للعروبة والإسلام ، فهو يعمل على حجب حسنات الأمة العربية ، ويبث في جوانبها الإحساس بمدي تقدم الفكر الغربي ، ومدى الإحساس بالتخلف العربى لنظل مشدودين إلى عجلته ، وقد ملأنا الإحساس بالنقص ، فيسلبنا بذلك كل مقومات العلم الحقيقى ، والتقدم والحضارة .

لقد وجهت إلى فكرنا العربى الإسلامى حملة غير منصفة من أجل تصويره علي

(١) المرجع السابق ، ص : ٤٥٣

(٢) المرجع السابق : ص ، ٤٥٥ .

نحو من أنحاء القصور أو الضعف أو التبعية ، وقد أريد بهذه الحملة أول ما أريد بها هدم (قيمنا) وقتل (مقوماتنا الأساسية) وتشويه ملامح (شخصيتنا) وإبرازنا علي النحو الذي ـ لا طابع له ولا قيم ولا مقومات .

وتلك كانت مهمةالاستعمار الفكري والغزو الثقافى وهى قضية كبري لها دخائل ودقائق ، وفى حاجة الي اليقظة والحزم والدقة لمواصلة كشف جوانبها وتعميق البحث عن جذورها . (١) .

يقول الدكتور عبد الحليم منتصر وكثيرون غيره من أبناء الجيل الماضى : لم تكن تطرق مسامعنا ونحن طلاب إلا الأسماء الأجنبية ، أسماء : شارل ، ووالتن ، ونيوتن، وداروين ، وأرشميدس . . . وغيرهم ، وكأنها مؤامرة، لحجب علماء الأحقاب الإسلامية الذين ظهروا ونبغوا خلال العصور الوسطى التى تقع بين العصرين: القديم والحديث من أمثال ابن سيناء وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والخوارزمى ، وابن النفيس والرازي . . . وغيرهم من العلماء الذين يزدهى بهم العلم في كل عصر ، ويحق لنا أن نفخر بهم . (٢) .

ويقول الأستاذ أنور الجندى : إن كثيرا من كتاب الغرب يحاولون عبور مرحلة طويلة من الزمن والتاريخ بأحداثها وآثارها البعيدة المدي فى الثقافة الإنسانية ، فيربطون حضارة الإغريق بحضارة أوروبا الحديثة متخطين تسعمائة عام من أنضر أيام الحضارة والفكر (٦٥٦ ـ ١٥٠٠) (٣) . إنهم يقولون بأن الفكر الغربى الحديث قد ابتدع (المنهج العلمي) الذى لم يعرفه العرب والمسلمون من قبل ، وينسبون هذا المنهج إلى الفليسوف الفرنسى ديكارت (١٦٠٠م) ويقوم هذا المذهب عند ديكارت على أربع قواعد :

الوضوح : بحيث لا أنظر إلى أى شىء بعين الحقيقة إلا بعد أن أدرك أنه كذلك ، ومعنى ذلك أنى أتلافى التسرع والتنبؤ ، ولا أتبنى من الآراء إلا ما تجلى لعقلى بوضوح وسرعة يحولان دون الشك فيه .

التحليل : ويعنى تجزئة كل مشكلة من المشاكل التي أقوم بدراستها إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء ، وذلك للتمكن من حلها على أصلح وجه .

---

(١) أضواء على الفكر العربى الإسلامى . أنور الجندى . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٦

(٢) نقلا عن كتاب (الفكر الإسلامى) . محمد الصادق عفيفى . ص ٢١٧ .

(٢) يقصد فترة ازدهار الحضارة الإسلامية

التدرج : وهو تسيير تفكيري بانتظام فأبدأ بأبسط الأمور وأسهلها فهما ، وأصعد تدريجيا لمعرفة أكثرها تعقيدا على افتراض وجود النظام أيضا بين الأمور التي لا يتعلق بعضها ببعض .

الإعادة والاستقصاء : ويعنى القيام بإحصاءات تامة فى كل لحظة ، والقيام بإعادات عامة لأتأكد من أنى لم أهمل شيئا .

ثم يقول وإذا كانت هذه هى نظرية الغرب في البحث العلمى القائم علي أساس الإنصاف والنزاهة ، وطرح التعصب والهوي الشخصى ، فهل يمكن القول بأنها طبقت تطبيقا صحيحا مع مفاهيم الفكر العربى الإسلامى ومقوماته ؟ وهل تخلص علماء الغرب من عواطفهم وأهوائهم في النظر إلى قيمنا . والواقع أن هذه النظرية قد انحرفت عن أصولهافى كل ما يتصل بالعرب والإسلام .

بل إن الإدعاء بأن هذه النظرية من ابتداع الفكر الغربى ليس صحيحا على إطلاقه ، والحقيقة المؤكدة أن العرب والمسلمين عرفوا (المنهج العلمي) وقوموه ووضعوا قواعده وأسسه وطبقوها تطبيقا منصفا في كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر .

وأن الإسلام فى أسسه الأولى التى أوردها القرآن الكريم قد دعا إلى (البرهان) في كل قضية ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (البقرة ١١١) .

ومن هنا نشأ فى مجال الفكر العربى الإسلامى ما يسمى بالبحث عن الدليل ، والنهى عن التقليد ، وعدم الثقة بالنص إلا بعد مطابقته للعقل ، وإقرار مصدره .

ثم تحدث عن بعض علماء المسلمين مثل : ابن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) ومخالفته لأرسطو وأفلاطون فى كثير من النظريات والآراء ، وابن رشد (١١٢٦ـ١١٩٨) وطريقته فى البحث ، وابن الهيثم (٩٦٥ـ١٠٣٥) ورأيه الواضح ونظريته فى مجال تقنين أصول البحث العلمى ، والبيروني (٩٧٣ـ١٠٤٨) ومذهبه العلمى ، والقاضى عياض وما فى رسالته عن (علم المصطلح) من الدقة والتفكير والاستنتاج ، والعلامة النظّام وكتاباته عن الشك والتجربة ، وجابر بن حيان ودعوته إلى إجراء التجربة ، وابن حزم ونظريته فى المعرفة . [1] . يقول الشهيد سيد قطب : ويكفى أن نعلم أن الاتجاه التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الأوربية الحاضرة ، لم ينشأ فى أوروبا ، وإنما نشأ فى الجامعات الإسلامية فى الأندلس والمشرق ، مستمدا أصوله من التصور الإسلامى وتوجيهاته إلى الكون وطبيعته الواقعية ومدخراته وأقواته ، ثم استقلت النهضة العلمية

---

(١) أضواء على الفكر العربيالرسلامى . أنور الحندى ص٢٢٠ .

في أوربا ، واستمرت تنميه وترقيه ، بينماركد وترك نهائيا في العالم الإسلامي بسبب بعد هذا العالم تدريجيا عن الإسلام ، بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع ، وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من العالم الصليبي والصهيوني ، ثم قطعت أوروبا ما بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الإسلامية ، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله ، في أثناء شرودها عن الكنيسة التي كانت تستطيل على الناس ـ بغيا وعدوانا ـ باسم الله .

وكذلك أصبح نتاج الفكر الأوروبي بجملته ـ شأنه شأن نتاج الفكر الجاهلي في جميع الأزمان وفي جميع البقاع ـ شيئا آخر ، ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الإسلامي ، ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلا للتصور الإسلامي . . ووجب على المسلم أن يرجع إلى مقومات تصوره وحدها ، وألا يأخذ إلا من المصدر الرباني إن استطاع بنفسه وإلا فلا يأخذ إلا عن مسلم تقي ، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئن إلى الأخذ عنه . [1] .

لقد آن الأوان أن نعود إلى تراثنا ، وأن تؤصل ثقافتنا ، وأن نعود إلى المعين الصافي ـ إلى قرآننا وسنة نبينا ـ ﷺ . هذا أولا وبلا تحفظ أو اختيار ، ثم إلى تراثنا الزاخر على مر العصور .

إنني بذلك لا أدعو إلى تقديس التراث بكل ما فيه من صواب وخطأ ، ولست من الذي يعتبرون أن الماضي دائما خير من الحاضر ، وأن الأول لم يترك للآخر شيئا ، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، ولست من الذين يرفضون كل ما وصل إليه الغرب من علم وتقدم .

ولكنني أقول ما قاله الدكتور يوسف القرضاوي : من الواجب أن نحدد مفهوم التراث ثم نقومه بعد ذلك ، فمن الناس من يدخل في مفهوم التراث عندنا نحن المسلمين : القرآن والسنة ، وهذا مالا خيار لنا في الالتزام به بموجب عقد الإيمان ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب ٣٦ .) . [2]

إنني قصدت هنا أن أبين أن أصول المنهج العلمي موجودة في إسلامنا ، في كتابنا ، في دعوتنا ، في تراث أسلافنا . وهي أصول تحمل التصور الإسلامي ولا تنفك عنه ولذا فهي تبني الحياة ، وتعمر الأرض ، وتسعد البشر .

---

(١) معالم في الطريق سيد قطب مكتبة وهبة ط أولى ١٩٦٤ ص ١٧٤ .

(٢) الوقت في حياة المسلم . يوسف القرضاوي . مؤسسة الرسالة ١٩٨٤

٢ ـ منهج الإسلام العلمى فى دعوة الرسل

عرفنا أن منهج الإسلام منهج شامل ، قائم على العلم المطلق ، وقائم على العدل المطلق ، ومنهج متناسق مع ناموس الكون كله ، وهو المنهج الذى يعالج كل قضايا الإنسان ، وكل قضايا مجتمعه .

هذا المنهج الشامل يحمل فى طياته مناهج متعددة ، لكل ناحية من نواحى هذا الدين الكامل . . . فلمعرفة الله منهج ، ولتوحيده منهج ، وللعبادات منهج ، وللمعاملات منهج ، وللحكم منهج ، . . . الخ .

وللدعوة إلى الله ـ وفى مقدمتها دعوة الرسل ـ منهج . . .

وهو منهج علمى لأن واضعه هو العليم الحكيم . ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه :٩٨) . وهو منهج علمى لأنه نزل بعلم الله . ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ (النساء .١٦٦) . وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف ٥٢) فهو سبحانه بينه ، وأنزله على عباده بعلم ، ليس كمن يتكلم بلا علم [١] .

وهو منهج علمى لأن الدعاة به ـ وهم رسل الله ـ آتاهم الله حكما وعلما ، فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه : ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف ٦٢) . وهذا إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (مريم :٤٣) .

ويقول الله تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف :٦٨) .

وقال لخاتم رسله ـ ﷺ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء :١١٣) .

فما المنهج العلمى الذى وضعه الإسلام فى دعوة الرسل ؟ . . .

لقد حاولت من خلال تتبعى لآيات القران الكريم ـ وبخاصة ما يتصل منها بدعوة الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ أن أضع تصورا لذلك المنهج .

---

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية . تحقيق محمد السيد الجليند . مؤسسة علوم القرآن جـ٣ ص :٥٢٦ .

إن منهج الإسلام فى دعوة الرسل يقوم - فى تصورى - على عدة أسس أهمها :ـ

أولا : أركان الدعوة وركائزها .

ثانيا : التركيز على منافذ العلم وأدوات التحصيل .

ثالثا : النظرة الشاملة إلى الإنسان .

رابعا : النظرة الشاملة إلى المجتمع .

خامسا : استخدام المنهج التاريخى .

سادسا : أساليب الدعوة ووسائلها (منهج الداعية)

وتفصيل ذلك :

أولا : أركان الدعوة وركائزها

نعلم أن الرسول رجل بعينه ، بعثه الله فى مكان بعينه ، وفى زمان بعينه إلى قوم معينين ، يدعوهم إلى الله ، بأسلوب معين .

وإذا كان المنهج التجريبى لا تقوم التجربة فيه إلا إذا قام بها عالم متخصص وفي معمل أو مكان معد لإجراء التجربة ، وفى زمن أو مناخ صالح لإجراء التجربة ، وعلى أفراد أو مجموعات تصلح محلا للتجربة ، فإن الدعوة لا تؤتى ثمارها إلا بداعية مختار ومعد إعدادا خاصا ، وفى مكان صالح لنمو الدعوة وانتشارها ، على أن يكون الداعية على علم تام بأحوال من يدعوهم ، ولغاتهم ، وعقائدهم ، وطرائق تفكيرهم ، وأوضاعهم السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية إلى غير ذلك مما يعينه على نجاح دعوته .

ومن هنا نرى أن منهج الدعوة يرتكز على أربع ركائز أو يقوم على أربعة أركان هى :ـ

١ ـ اختيار الرسول (إعداد الداعية) .

٢ ـ اختيار المكان (أرض الدعوة) .

٣ ـ اختيار الزمان (توقيت الدعوة) .

٤ ـ من أرسل إليهم الرسول (المدعوون)

وسوف أتناول هذه الأركان بشيء من التفصيل :

اختيار الرسول (الداعية)

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ٣٢، ٣٣) . وقال ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤) وهو سبحانه ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ (القصص. ٦٨) . وقال تعالى في جملة من المرسلين : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ (ص: ٤٧) . وقال تعالى فى حق إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (البقرة : ١٣٠) . وفى حق موسى عليه السلام ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي ﴾ (الأعراف . ١٤٤) .

الرسل هم صفوة خلق الله لأنهم حملة رسالته ، فهم ذوو أنساب كريمة ، فجميع الرسل بعد نوح من ذريته ، وجميع الرسل بعد إبراهيم من ذرية إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (الحديد : ٢٦)

ولذلك فإن الله سبحانه ـ يصطفى لرسالته من خيار قومه فى النسب ، وفي الحديث الذى يرويه البخارى يقول الرسول ﷺ : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه »[(١)] .

ولقد رأينا من خلال تتبعنا لدعوات الرسل وسير الأنبياء كيف كان لاختيار الرسول من أشراف قومه وخيارهم أثر فى دعوته ، فهو يعطى لشخصية النبى قوة ، ولدعوته طاعة .

فهؤلاء قوم نوح يقولون له : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء . ١١١ ـ ١١٤) . وكأنهم يقولون له إنك من أشرفنا حسبا ومن خيرنا نسبا وما كان لك أن تجمع حولك هؤلاء الأراذل ، ولولا ذلك لاتبعناك . وقد تكرر هذا الموقف مع كثير من رسل الله عليهم السلام .

(١) البخارى كتاب المناقب . صفة النبى ﷺ حـ٤ ص . ٢٢٩

وهؤلاء قوم صالح يقولون له : ﴿ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا ﴾ (هود ٦٢) أي نرجو أن تكون سيدا [١] .

وهؤلاء قوم شعيب يقولون له : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ (هود ٩١) . أي لولا غضب قومك علينا لرميناك بالحجارة .

ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم من عجب قوم مريم ، حينما رأوها أتت بغلام من غير أب وسألوها مستنكرين : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ (مريم ٢٨) فأنت خير الناس وأطهرهم .

وهذا عتبة بن ربيعة من أشراف قريش ، وكان سيدا مطاعا في قومه ترسله قريش ليفاوض محمدا ﷺ ، فيقول له : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسبا ونسبا ، ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «قل يا أبا الوليد أسمع » فقال : يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت تريد شرفا ملكناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وأن كنت تريد ملكا سودناك علينا وإن كان الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم ، قال : «فاسمع منى» فقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ أول سورة فصلت : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ . حتى بلغ قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⑬ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (فصلت ١٠ـ١٤) .

فأمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك ، فلما رجع عتبة سألوه ، فقال والله لقد سمعت قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالكهانة ،

---

(١) تفسير الجلالين . تحقيق شعبان محمد إسماعيل والآية من سورة هود ٦٢ .

ولا بالسحر ، يا معشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم ، فقالوا : لقد سحرك محمد ، فقال : هذا رأيى (١) .

ولقد عصم الله رسله فى تحمل الرسالة فلا ينسون شيئا مما أوحاه الله إليهم إلا شيئا قد نسخ ، وقد تكفل الله لرسوله ـ ﷺ ـ بأن يقرئه فلا ينسى شيئا مما أوحاه إليه ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى:٦) . والاستثناء هنا يؤكد عدم نسيان الرسول شيئا مما يوحى إليه فكأن الله يقول له لا تخف يا محمد نسيان شيء من القرآن لأن النسيان لا يكون إلا بمشيئتنا ، وقد شيئنا أن نحفظ القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) يقول الشيخ محمد عبده : فالقصد هو نفى النسيان رأسا إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه : أنت سهيمى فيما أملك إلا ما شاء الله ـ لا يقصد استثناء شيء . وما ورد من أنه ـ ﷺ ـ نسي شيئا كان يذكره ، فذلك ـ إن صح فهو فى غير ما أنزل الله عليه من الكتاب والأحكام (٢) .

ولذلك رأى العلماء أن الرسل يجب عقلا وشرعا أن يتصفوا بصفات معينة لا يتصور العقل ولا يرضى الشرع انتفاء صفة منها عن أى رسول ، وقد حصروا هذه الصفات فى أربع هي : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، فيجب اتصاف الرسل بهذه الصفات الأربع ، ويستحيل عليهم أضدادها وهى : الكذب ، والخيانة والكتمان والبلادة .

وكان لعصمة الرسل ولتلك الصفات أثر كبير فى نجاح دعوتهم ، أرأيت كيف حقن الرسول ـ ﷺ ـ دماء قومه ـ وذلك قبل بعثته فى واقعة الحجر الأسود وذلك لرجاحة عقله وحسن تصريفه للأمور . أرأيت كيف أسكت إبراهيم عليه السلام خصمه ؟﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨) . وكيف أجاب موسى فرعون على البديهة وهو يسأله ساخرا ـ عن رب العالمين حتى طار صوابه فانتقل إلى التهديد .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . محمد الخضرى . ص : ٣٧ .

(٢) تفسير جزء عم . الإمام محمد عبده ، مطابع الشعب . القاهرة ص : ٥٣ .

مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾(الشعراء ٢٣ـ٢٩) .

حقيقة الأنبياء أنهم بشر ، ولكنهم في نهاية الأمر بشر يمشون فى الأسواق ، ويأكلون الطعام ويعيشون ، ويموتون . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان ٢٠) . .

لا يختارون أنفسهم للرسالة ، ولا يصلون إلى الرسالة نتيجة كسب وقصد ، وجهد واختيار ، إنما يختارهم الله . يختارهم لعلمه السابق أنهم أنقى من فى الوجود وأفضل . تستوى فى ذلك عقولهم وقلوبهم .

إن الله أعدهم إعدادا خاصا ، ورباهم تربية تؤهلهم للقيام بأخطر مهمة ، وصنعهم على عينه ، وإن شئت فاقرأ قوله تعالى لرسوله موسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾(طه: ٣٩) وقوله تعالى لخاتم رسله محمد ﷺ ﴿وَالضُّحَىٰ ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، **وَلَلآخِرَةُ** خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ، أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ، وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾(الضحى: ٨١) . وإذا كانت الدعوة إلى الله فرض كفاية ، فرضه الله على أمة محمد ـ ﷺ ـ تقوم به جماعة منهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حيث قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(آل عمران: ١٠٤) إذا كان الأمر كذلك ، فإن اختيار الداعية وإعداده أمر ضرورى لنجاح الدعوة ، والسير بها فى طريقها الذى رسمها لها الإسلام بمنهجه العلمى . . . ولقد ضرب الله لنا المثل فى الاختيار والإعداد ، باختيار رسله وإعدادهم .

إن اختيار الله لرسله ، وتربيتهم ، وإعدادهم للقيام بأعظم وأصعب وأسمى مهمة ، موضوع يحتاج إلى بحث مستقل . . . إننا إذا تأملنا بعض آيات القرآن الكريم التى وجهت إلى شخص خاتم الرسل محمد ـ ﷺ ـ وبخاصة ما نزل منها فى أول الدعوة ، فسوف نرى إلى أى مدى كانت عناية القرآن الكريم بتعهد الرسول العظيم

بالتوجيه والتربية والإعداد .

قال له ربه أول سورة المدثر : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (١)

في هذه الآيات خمسة أمور لابد منها : ثلاثة يجب أن تتوافر في الداعية قبل أن يدعو الناس إلى الله ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ وبهذه الثلاثة تحسن علاقة الداعي بربه ، وبنفسه ، وبالناس ، وبها يكون صادقا فى قوله ، وفى فعله ، كما يكون أهلا لما يدعو إليه من عقيدة وشريعة . . واثنتان بهما تنجح الدعوة ، وتؤتى ثمارها ، وإليهما يشير قوله تعالى : ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ، وبهاتين تجمل التضحية ، ويكون البذل فى سبيل الله ، كما يكون الاحتمال والصبر على ما يلاقيه صاحب الرسالة من اضطهاد وأذى .

وفى أول سورة المزمل يوجهه إلى ما يعينه على تلقى الوحى ، والنهوض بالتكاليف : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ② نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ⑥ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ⑦ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ⑧ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ⑨ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ ولعلك تلحظ أن آيات المدثر ختمت بتوجيه الداعية إلى التخلق بخلق الصبر «ولربك فاصبر» وكذلك آيات المزمل «واصبر على ما يقولون» مما يشير إلى أهمية هذا الخلق بالنسبة للداعية .

وإذا تتبعنا آيات الصبر فى القرآن الكريم نجد أنها وجهت أمرا مباشرا إلى رسول الله - ﷺ - بالصبر في ثمانية عشر موضعا ، كما أنها أشارت - فى آيات كثيرة - إلى تحلي الرسل السابقين بخلق الصبر ، كقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ

---

(١) وثيابك فطهر : أى لا تلبسها على معصية ، وقيل المقصود بطهارة الثياب طهارة النفس ، وقيل إصلاح العمل ، فهى تشمل طهارة الظاهر والباطن .

والرجز : قيل الأصنام أو الأوثان ، وقيل كل ما كان عليه المجتمع الجاهلى من مفاسد .

ولا تمنن تستكثر : لا تعط شيئا لتطلب أكثر منه . وفى هذا إشارة إلى وجوب التضحية فى سبيل الدعوة .

الرُّسُل ﴾(الأحقاف ٣٥) وقوله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾(الأنعام ٣٤) مما يؤكد ضرورة إعداد الداعية وتربيته على هذا الخلق حتى يصبح أهلا لتحمل أعباء الدعوة إلى الله .

إننى أعتقد أن تأخر المسلمين ، وانحسار المد الإسلامى ، إنما يرجع فى بعض أسبابه إلى قلة الدعاة وكثرة الأدعياء ، إلى قلة الدعاة المؤهلين لتحمل الدعوة ، والمزودين بالمنهج العلمى الصحيح .

إن أبشع ما أصيب به عالمنا الإسلامى هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم دعاة ، يسيرون على غير هدي ، ويفتون بغير علم ، ويدعون إلى الله بغير منهج . . . وأولى خطوات هذا المنهج هو إعداد الداعية روحا وجسدا ، عقلا وحسا ، خلقا وعلما .

إن تربية الداعية ، وإعداده ليقوم بمهمته ، لا يقف عند حد ، ولا يتوقف عند مرحلة بعينها ، وإنما يحتاج الداعية دائما إلى ما يتزود به لكل مرحلة ، وما يعينه على التصدى لكل ما يقف فى طريق دعوته ، أو يحول بينه وبين بلوغ غايته .

ولعلنا ندرك الحكمة في نزول القرآن الكريم منجما على امتداد تاريخ الدعوة، المحمدية في عصرها الأول ـ عصر النبوة ـ فهو دائما يشد أزر الداعية ، ويكشف له محاولات خصومه ، ويوجهه إلى الأسلوب الأمثل لمعالجة قضايا الدعوة ، والأمثلة علي هذا فى القرآن الكريم كثيرة ، ففى مواجهة محاولات قريش صرف النبى ـ ﷺ ـ عن المؤمنين به من الضعفاء والعبيد يقول له القرآن الكريم : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف ٢٨) ويقول : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾(الأنعام: ٥٢) وفي مواجهة كيد اليهود ومحاولاتهم صرف النبى ـ ﷺ ـ عن الحكم بما أنزل الله يقول له : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾(المائدة: ٤٨) ويقول : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩)

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة ٤٩-٥٠)

وهكذا يتعهد القرآن الكريم خاتم الرسل بالتربية والتوجيه والإعداد ، وفى ذلك بيان أى بيان لأمته لتتبع المنهج ذاته عند إعداد الدعاة إلى الله .

٢- اختيار مكان الدعوة

الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وجعلها مستقرا لخلافة الإنسان . قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ والإنسان مرتبط بالزمان والمكان أبدا لا ينفك عنهما ، فهو لا ينفك عن الزمان - الزمان الذى نحياه على الأرض - إلا بالموت ، ولا ينفك عن المكان حتى بعد الموت ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾(طه: ٥٥).

وكما لا يمكن تصور دعوة بلا مدعوين ، لا يمكن تصور دعوة بغير مكان هو ميدانها وعلى أرضه تجرى أحداثها ، ولذلك يعين لنا القرآن كثيرا من أماكن الأنبياء وقراهم ومساكنهم بل إنه كثيرا ما يطلق لفظ القرية ويريد أهلها - فيطلق المحل ويريد الحالين فيه ، كقوله تعالي : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾(يوسف ٨٢) .

والله تعالى كما فضل بعض الرسل علي بعض فضل بعض الأماكن على بعض فلقد كرم مكة وجعلها أم القرى ففيها بيته الحرام ، وامتن على أهلها بنعمتى الرزق والأمن ، وبارك حول المسجد الأقصى وزاده تشريفا بحمل خاتم الرسل إليه ليلة الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه ﴾(الإسراء: ١)

والآن نستعرض بعض الأماكن التى اختارها الله لدعوة رسله لعلنا نستطيع أن نستشف بعض الحكمة من هذا الاختيار .

سكنت عاد جنوب الجزيرة العربية فى منطقة الأحقاف [١]، ووصلوا إلى مستوى رفيع من التقدم الحضارى ، حيث شيدوا القصور الشامخة ، وأقاموا الحصون العالية، وأسسوا المصانع الكبيرة ، وملكوا كثيرا من أسباب القوة والجبروت .

---

(١) ما بين اليمن وعمان : وعاد من القبائل العربية العاربة أو البائدة ، وهم من نسل سام بن نوح ، ويسمون عادا الأولى أو عاد إرم ذات العماد . أما العرب الذين هم من نسل إسماعيل فيسمون العرب المستعربة ، عن البداية والنهاية ١٢٠/١ .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(الأحقاف ٢١) .

وثمود من العرب العاربة ، سكنت فى الحجر قرب تبوك ، وهو واد بين المدينة والشام ، وملكوا كثيرامن أسباب الحضارة حيث نحتوا من الحجارة ، وأقاموا المصانع وتمتعوا بنعم الله التى أتتهم فى البر والبحر . فلما كفروا بأنعم الله وعبدوا غيره أرسل إليهم أخاهم صالحا فكذبوه ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(الحجر : ٨٠-٨٤) .

شب إبراهيم عليه السلام فتى من أهل (فدان آرام) بالعراق [١] ، وكان قومه أهل أوثان وكان أبوه نجارا ينحت الأصنام ويبيعها لمن يعبدها ، وبعد ما حدث بينه وبين أبيه وقومه [٢]. تبرأ من أبيه ، ولم يطب له المقام بين أهله ، فذهب إلى أور الكلدانيين (مدينة كانت قرب الشاطىء الغربى للفرات) ثم حاران ، رحل إبراهيم بعد ذلك إلى فلسطين غربا ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط ، ومع لوط زوجته كما قال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (العنكبوت. ٢٦) .

ولما حدث جدب فى الأرض انتقل إبراهيم إلى مصر وذلك فى عهد ملوك الرعاة وهم العماليق ، ويسميهم الرومان (الهكسوس) ، ثم عاد ومعه هاجر وسكن فى جرار بين قادس وشور ، وشور هذه على الطريق الذى يسلكه من خرج من مصر يريد بلاد العراق ، وفى تلك الجهة كانت ولادة إسحاق .

وكان لوط قد ذهب إلى أرض سدوم فى دائرة الأردن بجوار البحر الميت ، وقد عبد أهلها غير الله ، وانغمسوا في الفواحش والخبائث فهم : ﴿ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾(الأنبياء. ٧٤). ودعاهم لوط إلي الله فلم يستجيبوا ، ونصحهم فلم ينتصحوا ، فأتتهم الصيحة فزلزلتهم ، وأمطرت السماء حجارة فتهدمت قريتهم ، وهلكت زوجة لوط مع الهالكين ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ

---

(١) كما فى التوراة . انظر قصص الأنبياء . عبد الوهاب النجار دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) فى هذا الفصل لا أهتم إلا بذكر الأماكن دون الدخول فى تفصيل أحداث الدعوة

﴿١٣٤﴾ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴾(الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٦) .

ثم كانت رحلة إبراهيم عليه السلام المباركة إلى مكة المكرمة ومعه زوجه هاجر وابنه إسماعيل ، وكان ما كان من رفع قواعد البيت ، ودعاء إبراهيم الخليل : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾(إبراهيم: ٣٧) .

ثم اختيار مكة ليخرج منها آخر الرسل محمد ﷺ ، ولتنطلق منها آخر الرسالات ، الرسالة التامة ، والدعوة العامة للبشر جميعا ، وقد اشتهرت مكة منذ القديم بوضعها الخاص المتميز عن سائر المدن ، وقد حفظ لها العرب هذه المنزلة ، فأحاطوها بما يليق بها من حب وعناية وتقدير ، فهى عندهم (أم القري) وأصل المدائن وبها الكعبة المشرفة التى تحمل فى ثناياها ذكرى إبراهيم عليه السلام ، وترمز إلى الخير والبركة من الله تعالي .

ولعلنا لاحظنا من خلال عرض أماكن الدعوة التى بعث الله فيها رسله أنها كانت في معظمها فى شمال الجزيرة العربية أو فى جنوبها ، فهى تحيط بأرض الحجاز فكأن هذا الاختيار لتلك القرى كان تمهيدا لأمرين :

الأول : الاختيار الأخير لمكة أم القرى وكل القرى ليخرج منها نور الإسلام ليعم أرجاء المعمورة .

الثاني : أن يتحقق فى هذه القرى المنهج التاريخى للدعوة حيث الآثار الشاخصة يمر عليها عرب الجزيرة فى رحلاتهم إلى الشمال وفى رحلاتهم إلى الجنوب .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ (الصافات ١٣٦-١٣٨) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾(القصص: ٥٨) .

وهذا رسول الله ـ ﷺ ـ حين مر بالحجر نزلها ، واستقى الناس من بئرها فلما راحوا قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ولا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئا ، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحبه . ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ـ ﷺ ـ إلا أن رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما ، لحاجته ، وخرج الآخر فى طلب بعير له ، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه [1] ، وأما الذى ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح

(١) يقال لموضع الغائط الخلاء ، والمذهب .

حتى طرحته بجبلى طىء ، فأخبر بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقال : «ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه ؟» ثم دعا رسول الله ـ ﷺ ـ للذى أصيب على مذهبه فشفى ، وأما الآخر الذى وقع بجبلى طيىء فإن طيئا أهدته لرسول الله ـ ﷺ ـ حين قدم المدينة (١) .

قال ابن هشام : بلغنى عن الزهرى أنه قال : لما مر رسول الله ـ ﷺ ـ بالحجر سجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته ، ثم قال : «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ، خوفا أن يصيبكم مثل ما أصابهم» (٢) . إن الاختيار الإلهى للجزيرة العربية ليخرج منها رسوله ـ ﷺ ـ يدل دلالة قاطعة على عمومية الرسالة الخاتمة ، فإن الجزيرة العربية بموقعها الجغرافى هى سرة العالم لأنها تقع في وسطه وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه ، ففى شرقها توجد الدولة الفارسية ، وفى شمالها توجد الدولة الرومانية ، وفى غربها مصر والحبشة ، وفى جنوبها الهند وغيرها ، ومن هنا سهل تبليغ الدعوة من مكة إلى العالم بإرسال الرسل والكتب واستقبال الوفود ، وبعث الجيوش إلى كل مكان من غير جهد أو كبير عناء . كما أن الجزيرة العربية أحيطت بحواجز طبيعية منيعة ، فالمياه التى تحيط بها من ثلاث جهات ، وسلاسل الجبال ، والصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، كل ذلك وقف سدا أمام المجموعات الغازية من الفرس أو من الروم ، فعاشت الجزيرة العربية بعيدة عن الخضوع لسيطرة الفرس أو الروم عسكريا أو عقائديا ، وكثيرا ما حاول الفرس أو الروم الوصول إلى وسطها لكنهم عجزوا ، فاكتفوا بالاستيلاء على أطرافها في الجنوب أو الشمال ، وإرسال الجواسيس إلى مكة كعاملين في بيوت تجارية من قبل الدولة الرومانية أو الأحباش . (٣)

وقد ترتب علي منع الغزاة من الوصول إلى سرة الجزيرة العربية آثار هامة ، حيث احتفظ العربى بسجيته وفطرته ، ولم تداخله تناقضات الفكر ولا متاهات الفلسفة والسفسطة ، استعدادا لحمل الرسالة الواضحة النقية والتى سيكلف بتبليغها للعالمين .

ولقد رد الله أبرهة عن بيته الحرام ، وعن مكة المكرمة ، لتظل بعيدة عن أى

(١) تهذيب سيرة ابن هشام عبد السلام هارون . دار البحوث العلمية الكويت . ص ٣٢٩

(٢) السيرة النبوية لابن هشام . ضبط طه عبد الرؤوف . دار الجيل . بيروت جـ٤ ص ١٣٣

(٣) الدعوة الإسلامية . أحمد غلوش ص: ٨٢ .

سيطرة أجنبية عسكرية أو عقائدية ، وهى تستقبل خاتم المرسلين - ﷺ -

٣- اختيار زمان الدعوة

الإنسان محدود بالزمان والمكان ، يتأثر بهما ، وينفعل بسببهما مع بيئته ومجتمعه ، ولذلك لا يمكن أن نتصور دعوة أو حركة بغير إطار زمنى عاشته ، ويربطها بما سبقها وما يلحقها من أزمان وأحداث .

ونحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل رسولا إلا حين تعم البلوى ، وينتشر الفساد ، ويضل الناس طريقهم ، وينحط تفكيرهم ، ويستحوذ عليهم الشيطان ، ويتخذون من الحجر أربابا ، ومن الحيوان آلهة يتقربون إليها بالنفس والولد .

فالاختيار الزمنى هو الإجابة على سؤال : متى يحتاج الناس إلى الداعية ؟

كما نعلم أن موكب الإيمان كان موصولا من لدن آدم عليه السلام ، وحتى خاتم الرسل محمد - ﷺ - ولقد تلازم توحيد الله وعدم الإشراك به وهبوط آدم عليه السلام على هذه الأرض ، فما كان على وجه الأرض أحد يشرك بالله ، واستمر التوحيد بعد آدم عليه السلام، عشرة قرون كما جاء فى صحيح البخارى : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام »(١) .

وبعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما وراه البخارى فى صحيحه من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالي : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح . ٢٣) قال : صارت الأوثان التي كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أماود كانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير ، لآل ذى الكلاع . (أسماء هذه الأصنام) أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى يجلسون أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت .(٢)

---

(١) صحيح البخارى : نقلا عن البداية والنهاية لابن كثير . مكتبة دار المعارف . بيروت . ط ثانية .

(٢) فتح الباري : ١٠/ ٢٩٣. نقلا عن كتاب (منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله) محمد سرور نايف دار الأرقم . ط ثالثة ١٩٨٨ . ص : ٣٩

وقال ابن جرير : كانوا قوما صالحين - أي يغوث ويعوق . . . بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر . (١)

ثم كان من دعوة نوح ما كان ، وحدث الطوفان ، ثم أشرق نور التوحيد على الأرض من جديد ولا ندري متى حدث الشرك بعد نوح عليه السلام ، وكل الذى نعلمه من القرآن الكريم أن الله استخلف عادا في الأرض بعد نوح . قال تعالى على لسان هود عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف ٦٩) .

ثم تتابع موكب الرسل ، حى وصل إلى خاتمهم - ﷺ - ففى أوائل القرن السابع لميلاد عيسى - عليه السلام - وعلي حين فترة من الرسل ظهرت الدعوة الإسلامية الخاتمة هداية للناس أجمعين .

وإذا أردنا أن نستشف بعض حكمة الله فى اختيار الزمن الذى ظهر فيه محمد - ﷺ - نرى أن هذا الزمن تميز بخصائص منها :

١ - **تعدد الصراع** : لقد ساد في هذا العصر صراع عام ، فلم تخل أمة أو منطقة منه ، سواء أكان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة أو بينها وبين غيرها . وأهم ما تميز به هذا الصراع أنه كان متكررا متلاحقا ، فمهزوم اليوم ينتصر غدا ، وهكذا دواليك دون توقف ، وغالبا ما كان الصراع بسبب سياسى أو اقتصادي أو دينى ، تبعا لاختلاف البيئات ، ففى البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة ، خاصة بعد أن وزع (قصى) الأعمال بين القبائل وأصبحت وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان .

وفي البيئة الرومانية كان سبب الصراع ينحصر في الدين والسياسة ، وفى الفرس كان السبب هو الدين ، وفى الحبشة كان السبب هو الدين ، وفي الهند كان السبب هو نظام الطبقات المعروف فيهم ، إلا أنه مع تنوع أسباب الصراع فإن هناك أسبابا كانت موجودة في سائر الأمم من أمثال ظاهرة الرق التى أخذت شكلا عاما ، وسادت العالم كله ، وأوجدت بين الناس طبقة مستذلة لا تملك من أمر نفسها شيئا ، وتباع وتشترى

(١) البداية والنهاية ١٠٦/١ نقلا عن المرجع السابق .

كالحيوان والمتاع تماما ، وقد انتشرت أسواقهم في العالم كله ، وتعمقت هذه الظاهرة بعد أن أخذت الطابع المقدس في كثير من الأقاليم .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول والعمق حيث انتشرت في العالم كله بشكل مستمر ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس ، وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول وهذا العمق .

فلما جاءت الدعوة الإسلامية هادفة إلى تغيير جذرى في المجتمع ، وإزالة الصراع والآلام من حياة الناس وتحرير العبيد والمنبوذين والأجراء من وضعهم البائس ، ووضعهم في الإطار النظيف الذى وضعته للناس أجمعين بما فيه من كرامة وحرية ومساواة . لما جاءت هكذا آمن بها الجميع وانتشرت بسرعة عجيبة .

٢ ـ النضج الفكرى : شاهد القرن السادس الميلادى تطورا عقليا في كل أرجاء المعمورة ، بشكل لم يعهده الناس من قبل ، حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده كما يقول الشيخ محمد عبده ، (١) ولعل المراد من النضج العقلى المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلى المنظم الذي يستنتج من المحسوس ، ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر إلى الحياة نظرة فيها الرضى القائم على التحليل والنقد ، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائما السمو إلى العلا والتقدم ، تلك أن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط حيث تبهر بالعجائب وتسحر بالظواهر الخارقة كعهدها مع الرسالات السابقة .

وفى الحق لقد وصل النضج الفكرى إلى مستوى ممتاز ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزتها التى جعلها الله فى قرآنه الكريم نزل للناس يؤمن بالكلمة ، ويخاطب العقول ، ويهتم بالمعانى والأفكار ، وينقل الإنسان من عالم الحس إلى الغيب والإيمان به ، مع اشتماله على وسائل تتعدد أمام الفكر ، تؤكد وتجادل ، وتقرب ، قاصدة الإقناع العقلى واليقين النفسى ، والثبات مع الروح والوجدان أكثر من ثباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

---

(١) رسالة التوحيد . ص . ١٥٥ نقلا عن كتاب الدعوة الإسلامية . أصولها ووسائلها . أحمد غلوش . ص: ٩١

يقول الشيخ رشيد رضا : إن الله جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها ، وفى موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها فى سن الرشد ، والاستقلال النوعى الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لا تباع من تصدر منهم أمور مخالفة للنظام الكوني ، وإنما جعل الله حجة نبيه كتابه المعجز للبشر بهدايته ، وعلومه ، وبإعجازه اللفظى ، والمعنوي ليربي البشر على الترقى فى الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال . (١) .

ثانيا : التركيز على منافذ العلم وأدوات التحصيل

ولما كان منهج الإسلام منهجا علميا فإنه يركز على منافذ العلم ، وأدوات التحصيل ، ووسائل اكتساب المعرفة التي ركبها الله فى الإنسان من سمع وبصر وفؤاد ، فيعمد إلي الحواس لينبهها ويوقطها ، وإلى القلوب ليزيل ماران عليها ، ويحييها

قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الملك ٢٣)

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾(الإسراء : ٣٦) .

ولما كان الوقر يصيب السماع ، والغشاوة تغطى الأبصار ، والران يغلف القلوب بسبب التسليم المطلق لموروث العادات والتقاليد ، والانصياع لأهواء النفس ، واتباع الأوهام والظنون ، وما يزينه الشيطان من الكبر والغرور ، وحب الجاه والرياسة ، والاستعلاء والتسلط . . . وما شاع فى المجتمعات من أساطير وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان . . . فإن منهج الإسلام فى الدعوة يشدد النكير على هذه الآفات لأنها عوائق تعطل الحواس عن القيام بوظائفها ، وتحول بين القلب ووصول الحق إليه ، فيصاب الإنسان بالغفلة ، ويصبح فى جملة من وصفهم الله بقوله : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(الأعراف ١٧٩).

---

(١) الوحى المحمدى . ص ٦١ .

جاء فى تفسير ابن كثير لقوله تعالي : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم ... ﴾ الآية : قال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله سائلك عن ذلك كله ، ومضمون ما ذكروه أن الله نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذى هو التوهم والخيال ، كما قال تعالي : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(الحجرات ١٢٠) فى الحديث (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) ، وفى سنن أبى داود (بئس مطية الرجل زعموا) وفى الحديث الآخر« إن أفرى الفرى أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا »(١) .

ويقول الزمخشرى فى تفسيرها : والمراد النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم ، ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولا ظاهرا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده (٢) .

ويقول الشهيد سيد قطب في تفسيرها أيضا : هذه الكلمات القليلة تقيم منهجا كاملا للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثا جدا ، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العلمية الجافة .

فالتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق ، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ، ولم يبق مجال للظن والشبهة فى عالم الحكم والقضاء والتعامل ، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحث والتجارب والعلوم .

والأمانة العلمية التى يشيد بها الناس فى العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية والقلبية التى يعلن القرآن تبعتها الكبري ، ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده ، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد .

إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب ، أمانة يسأل عنها صاحبها ، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا . أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة ، وكلما روى الإنسان رواية ، وكلما أصدر حكما على شخص أو أمر أو حادثة : « ولا تقف ما ليس لك به علم » . . ولا تتبع ما

---

(١) تفسير ابى كثير دار الفكر المجلد الثالث . ص ٤٠

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل . الزمخشرى جـ٢ ص. ٤٤٩ .

لم تعلمه علم اليقين ، وما لم تتثبت من صحته . من قول يقال ، ورواية تروى ، ومن ظاهرة تفسر ، أو واقعة تعلل . ومن حكم شرعى أو قضية اعتقادية .[١]

إن اتباع الظن والهوى ، والتقليد الأعمى ، والاستكبار وحب الرياسة . . . الخ

كلها عوائق تعوق التفكير العلمى الصحيح ، ولذلك حرص الإسلام فى منهجه للدعوة على إزالتها حتى تصبح العقول والقلوب مستعدة لقبول الحق .

يقول ابن القيم في كتابه (الفوائد) تحت عنوان (المحل لا يقبل ضدين) : قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده ، وهذا كما أنه فى الذوات والأعيان ، فكذلك هو فى الاعتقادات والإرادات ، فإذا كان القلب ممتلئا بالباطل اعتقادا ومحبة ، لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع ، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل[٢] .

ولذلك حرص كل رسول فى أول دعوته على تفريغ العقول من أوهام الخرافات والبدع والتقليد الأعمى للآباء ، لتصبح قادرة على التلقى السليم ، وكذلك تنقية الفطر مما علق بها من أدران السنين ، ليردوها نقية سليمة كما خلقها الله .

انظر إلى إبراهيم عليه السلام - إن أول ما قام به هو بيان ما عليه قومه من فساد وضلال ، وبيان فساد حجتهم فى عبادة التماثيل تقليدا لآبائهم الضالين ثم بعد ذلك يقودهم إلى معرفة الرب المستحق للعبادة .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (الأنبياء ٥٢-٥٦) .

وهذا خاتم الرسل ﷺ يقضى أكثر من شطر دعوته المباركة ثلاث عشرة سنة يقضيها فى مكة ، كلها دعوة إلى التحرر من الأوهام والخرافات والتقليد الأعمى للآباء ، وفساد المعتقدات ، كانت مهمة الرسول ﷺ فى هذه الفترة أن يوقظ العقول والقلوب ، وأن يرد الناس إلى فطرهم النقية التى فطرهم الله عليها . فكانت كلمته المدوية التى

---

(١) فى ظلال القرآن . سيد قطب دار إحياء التراث حـ٥ ص : ٣٢٦

(٢) الفوائد لابن القيم . ابن قيم الجورية . وص : ٤٣

يرددها على مسامعهم ليل نهار :

(لا الـه إلاّ الله) لا معبود بحق إلا الله ، فهى تتضمن نفى العبادة لغيره أولا . وإثباتها خالصة له ثانيا . تخليص العقول من أوهام الشرك أولا ، ثم الاعتقاد الجازم بوحدانية الله ثانيا ، تفريغ القلوب من محبة الباطل أولا ، ثم شغلها بمحبة الحق ثانيا

يقول شارح العقيدة الطحاوية فى معنى (لا الـه إلاّ الله) : هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم ، كما تقدم ذكره ، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضى للحصر ، ولهذا ـ والله أعلم ـ لما قال تعالي : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾(البقرة:١٦٣) . قال بعده : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٦٣) فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطانى : هب أن إلهنا واحد ، فلغيرنا إله غيره ، فقال تعالى : ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

والقرآن الكريم فى كثير من الآيات يعالج هذه الأمراض التى تصيب العقول والقلوب وتعطل الحواس . فهو ينكر على الكافرين تقليدهم للآباء وإهدارهم العقل، وعدم التفكير للاهتداء إلي الحق .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾(البقرة: ١٧٠) . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾(المائدة: ١٠٤) .

وعن الظن واتباع الهوى ، يقول : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾(النجم: ٢٣) . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾(القصص: ٥٠) . ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾(الروم. ٢٩) . ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

(الفرقان: ٤٣ ، ٤٤) .

يقول الإمام جلال الدين المحلى : بل هو أخطأ طريقا من الأنعام ؛ لأنها تنقاد لمن

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ط الثامنة . المكتب الإسلامى . ص : ١٠٩

يتعهدها ، وهم لا يطيعون مولاهم المنعم عليهم .

ويضرب المثل لمن يعطل حواسه عن العمل فلا يعقل ولا يهتدى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾(البقرة ١٧١) (١) .

ثالثا : النظرة الشاملة إلى الإنسان

لما كان الإنسان هو هدف الدعوة وهو محورها ، وكانت الرسالة في جوهرها هي دعوة الناس إلى توحيد الله تعالي ، وعبادته وحده ، وإصلاح الإنسان في معاشه ولمعاده ، ليصبح قادرا على حمل الأمانة التى خلقه الله من أجلها - فإن منهج الدعوة اعتد بكل مكونات هذا الإنسان الذى خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ، ولم يغفل جانبا من جوانبه ، فراعي :

١ - اعتبار (٢) الفطرة الهادية إلى الله .

٢ - اعتبار العقل بكل ما زوده الله به من طاقات وقدرات .

٣ - اعتبار القلب والوجدان .

٤ - اعتبار الشعور والإحساس .

٥ - اعتبار الغرائز والطباع .

بالنسبة للفطرة الهادية ، فإن الإنسان منذ خلقه الله ، وأكرمه بالعقل ، وهو يتجه بفطرته إلى خالقه بحثا عنه ، وتقربا إليه .

ففكرة الإيمان بالخالق الأعلى تجلت على مسرح الحياة منذ بداية خلق الإنسان ، والقرآن الكريم يقرر أن الاعتقاد بإله واحد اقترن بنشأة أبينا آدم - عليه السلام - فقد اصطفاه ربه لعمارة الكون ، وبناء الحياة علي الأرض ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ﴾ (آل عمران . ٣٣) . وانسحب هذا العهد الإلهى على ذرية آدم من بعده ، وهم ما زالوا في أصلاب آبائهم لم يروا نور الحياة ، حيث أودع الله في فطرتهم الإنسانية الإحساس القوي بخالقهم ، وهذا ما يؤكده قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ

---

(١) والنعيق دعاء الراعى الشاء · يقال نعق الراعى بالغنم ينعق نعقا ونعيقا ونعاقا ونعقانا . صاح بها وزجرها ، أى مثل داعى الذين كفروا كمثل الناعق بغنمه ، فى كون الكافر لا يفهم مما يخاطبه به داعيه إلا دوى الصوت دون إلقاء فكر وذهن ، كما أن البهيمة كذلك / فالكلام على حذف مضاف (مثل داعى الذين كفروا)

(٢) جاء فى المصباح المنير : (الاعتبار) بمعنى الاعتداد بالشىء فى ترتيب الحكم .

﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ (الأعراف: ١٧٢ ١٧٣).

وفي صحيح الحاكم من حديث أبي جعفر الرازى حدثنا الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، قال: جمعهم له يومئذ جميعا ، ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فجعلهم أرواحاً، ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال: فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ فلا تشركوا بى شيئا فإنى أرسل إليكم رسلى يذكرونكم عهدى وميثاقى ، وأنزل عليكم كتبى ، فقالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة وغير ذلك ، فقال: رب لو سويت بين عبادك؟ فقال: إنى أحب أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج ، وخُصُّوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة ، فذلك قوله : ﴿ واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح ﴾ وهو قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وهو قوله تعالي : ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ وقوله تعالى : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ وكان روح عيسى من تلك الأرواح التى أخذ الله عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، وهذا إسناد صحيح .

وذكر محمد بن نصر من تفسير السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبي - ﷺ - فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ الآية ، لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر أدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء ، مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر فقال لهم : ادخلوا الجنة برحمتي ، ومسح صفحة ظهره اليسري فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال: ادخلوا النار ولا أبالى ، فذلك حيث يقول : ﴿وَأَصْحَابُ لْيَمِينِ﴾ ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ ثم أخذ منهم الميثاق فقال: ﴿أَلَسْتُم بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا : بَلَى﴾ فأعطاه طائفة كارهين علي وجه التقية ، فقال هو والملائكة : ﴿ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله ربه ، ولا مشرك إلا وهو يقول : إنا

وجدنا آباءنا على أمة ، فذلك قوله تعالي : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ وقوله تعالي : ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ وقوله تعالي : ﴿ فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ قال يعنى أخذ عليهم الميثاق »[1] .

وهذه الفطرة الإنسانية إذا سلمت من الشوائب والموثرات الخارجية - توجه صاحبها إلى الإيمان بوجود الله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾(الروم ٣٠)

فالبشر استهلوا حياتهم مستقيمين علي الحق ، متجهين إلى بارئهم ، سالكين درب الإيمان ، تصديقا لقوله تعالي : ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ (يونس .١٩) استمر الإنسان - بهدى فطرته - يواجه الحياة ، ويطالع الكون بآفاقه المترامية وما يحويه من شتى المخلوقات . . وقد هاله أمر هذا الخلق العجيب ، وألح عليه - بدافع فطرته - إحساس جارف بضعفه إزاء هذه القوة الخالقة الخفية التى تسيطر علي الكون والحياة من حوله . . فأخذ يقلب نظره فيما حوله من مخلوقات ، متسائلا عن سره وسرها ، ومصيره ومصيرها ، متهيبا ما يصدر عنها من قوة قادرة مسيطرة ، ولكنه حين عجز عبر تاريخه الطويل عن إدراك حقيقة هذه القوة استخدم لها الرموز التى استمدها مما يروعه من مظاهر الكون ، وما يعمره من مخلوقات كالشمس ، والقمر ، والبحار ، والأنهار ، والحيوان ، والأشجار ، واتخذ هذه الرموز دليله إلى رحاب خالقه .

تفاوت تصور الإنسان لخالقه تبعا لما اتخذه من رموز ، ولمستوى وعي المجتمعات ، واختلاف العصور والبلدان - وتعددت لذلك وسيلته فى القرب من خالقه ، والاتجاه إليه .

على أنه مهما تحورت عقيدة المجتمعات الإنسانية ، وتعددت عبادتهم ، فإنها تصدر عن إيمان فطرى بقوة تحكم العالم ، وتسيره ، وتدبره ، ويدلنا على ذلك ما سجله القرآن الكريم من إقرار الكفار بوجود الله فى قوله تعالي : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾(لقمان: ٢٥) . واعترافهم بأنهم اتخذوا معبوداتهم شفعاء لديه فى قوله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾(الزمر: ٣)

كما سجل القرآن الكريم موقف الجاحد المعاند حين تدهمة الشدائد والمحن متحدية غروره ، فلا يملك إلا الالتجاء إلى ربه ، مستجيبا لفطرته المغروسة فى أعماقه ،

---

(١)الروح لابن القيم - ابن الجورية . مكتبة المتنبي . القاهرة ص ١٥٧ ، ١٥٩

يلتمس منه الخلاص مما يعانيه من شدة وكرب ، وهذا ما يصوره قوله تعالي . ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾(يونس . ٢٢) .

وإذا اختفت هذه الفطرة فى ساعات الرخاء واللهو ، فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء ، وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب ، وينكشف المعدن الأصيل فى النفس الإنسانية ، فتعود إلى ربها داعية متضرعة (١) .

ولعلنا فى ضوء هذا الكلام نفهم حديث رسول الله - **صلى الله عليه وسلم** - : «ما من مولود يولد إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه» (٢) .

ومن هنا فإن منهج الإسلام فى الدعوة قد وضع فى اعتباره هذه الفطرة فعمل على تنقيتها من الشوائب التى علقت بها ، وحرص رسل الله على أن يردوا الناس إلى فطرتهم ، ويذكروهم بالميثاق الذي أخذه الله عليهم فصاروا به مفطورين على التوجه إلي خالقهم ، والخضوع والانقياد لربهم .

ولقد ضرب إبراهيم عليه السلام المثل الأعلى لقومه فى نقاء الفطرة وسلامتها حين وقف من أبيه وقومه هذه الوقفة الصلبة الحاسمة الصريحة : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(الأنعام : ٧٤) .

إنها الفطرة تنطلق على لسان إبراهيم ، إنه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه - إلى إلهه - ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التى يعبدها قومه آلهة (٣) .

واستحق إبراهيم عليه السلام - بصفاء فطرته ، وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة فى الكون ، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(الأنعام : ٧٥) أى : وكما أرينا إبراهيم الحق فى خلاف ما عليه أبوه وقومه من الشرك نريه أيضاً - مظاهر ربوبيتنا ، ومالكيتنا للسموات والأرض ، ونطلعه على

---

(١) التربية الإسلامية . للصف الثالث الثانوى على عبد المعم وآخرين . وزارة التربية - الكويت

(٢) صحيح البخارى . كتاب الجنائز .

(٣) فى ظلال القرآن الكريم . سيد قطب . الشروق . المجلد الثانى ص ١٣٩٠ .

حقائقها ، ليزداد إيماناً على إيمانه ، وليكون من العالمين علما كاملاً لا يقبل الشك بأنه على الحق ، وأن مخالفيه على الباطل .(١)

بعد هذا الحديث عن الفطرة ، نعود فنقول : إن دعوة الإسلام موجهة إلى الإنسان برمته جسما وروحاً ، وعقلاً وقلباً ، فالفلاسفة الذين اعتبروا العقل وحده ضلوا ، والماديون الذين اعتبروا الغرائز ومطالب الجسد وحدها ضلوا ، والروحانيون الذين اعتبروا الروح وحدها ضلوا كذلك .

ومن هنا كان منهج الإسلام فى الدعوة موجها إلى عقول الناس وقلوبهم ، وفطرهم وغرائزهم ، يعمد إلى العقول فيوجهها إلى التفكير ، وإلى القلوب فيوقظها من غفلتها ، وإلى الفطر فينقيها ، وإلى الغرائز فيعليها .

وسأقدم بعض النصوص لنرى كيف أن دعوة الإسلام تخاطب الكينونة البشرية كلها فلا تعالج فى الإنسان جانباً واحداً ، ولا تهتم بجزء واحد من أجزاء هذا المخلوق المعقد غاية التعقد - كما تفعل المناهج الوضعية - ولكنها تتجه إلى الإنسان ككل ، بكل كيانه وتركيبه .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (النبأ العظيم) : فى النفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واخدة منهما غير حاجة أختها ، والله وحده هو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت ، ألا تراه فى فسحة قصصه وأخباره لا ينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟

أوَلاَ تراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك فى مطالع آياته ، ومقاطعها وتضاعيفها﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(الزمر : ٢٣) . ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾(الطارق : ١٣ , ١٤) .

إقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(الأنبياء . ٢٢) . وانظر كيف اجتمع الاستدلال ، والتهويل ، والاستعظام فى هذه الكلمات القليلة ، بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات اليقينية ، ووضوح

(١) التفسير الوسيط . سيد على طنطاوى ص : ١٤٧

المقدمات المسلَّمة ، ودقة التصوير لما يعقب التمازع من (الفساد) الرهيب ، فهو برهان خطابي شعري معاً . هل تجد مثل هذا في كتب الحكمة النظرية؟

إقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة ١٧٨) . وانظر الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية بقوله (ياأيها الذين آمنوا) وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله (أخيه) وقوله (بالمعروف)وقوله (بإحسان) ، والامتنان في قوله (تخفيف من ربكم ورحمة) والتهديد في ختام الآية .

ثم انظر في أي شأن يتكلم ؟أليس في فريضة مفصلة ، وفي مسألة دموية ؟ تتبع هذا المعنى في سائر آيات الأحكام حتى أحكام الإيلاء والظهار . ففي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح ؟ بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب ؟ تالله لو حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه ، لجاء بالأضداد المتنافرة ، وخرج بثوب بيانه رقعاً ممزعة . (١)

مثال آخر .

آيات من القرآن الكريم يعالج بها منهج الإسلام العلمي قضية الرسالة بنظرته الشاملة للإنسان ، مخاطباً عقله وقلبه :

قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾(سبأ. ٤٦-٥٠).

إنها موعظة ترقق القلوب وتحفز المشاعر . . . موعظة مخلص لا يطلب عليها منهم أجرا ، موعظة رسول لا يريد إلا الخير والفلاح لقومه ، وإنقاذهم مما هم فيه من ضلال . . .

ثم هي دعوة إلى التفكير الهادئ ، من أجل الوصول إلى الحقيقة ، بعيداً عن تشويش الجماعة ، وتأثير أهواء الذين أغلقوا آذانهم عن سماع الحق الذي يقذف الله به

(١) النبأ العظيم : د . محمد عبد الله دراز . دار القلم الكويت ط ثالثة ١٩٨٨ص : ١٢٦

فى أسماعهم ، والذى لا يبدئ الباطل معه ولا يعيد ، إن وجد آذانا صاغية ، وعقولا متفتحة .

قال فضيلة الشيخ الصابونى فى تفسير الآيات : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلة واحدة - لا أكلفكم عنتا ، وهى أن تقوموا له - يقول القرطبى : وهذا القيام معناه القيام بطلب الحق لا القيام الذى هو ضد القعود .

قال أبو حيان : ومعنى الآية ، إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحق ، وهى أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، ثم تتفكروا فى أمر محمد ، وما جاء به ، وإنما قال (مثنى وفرادى) لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكير ، كما يكون فى الدروس التى يجتمع بها الجماعة وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف ، وعرض كل منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحق أن يعدوهما ، وإذا كان الواحد جيد الفكر عرف الحق . .(1)

يقول الشوكانى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ ، ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذبا ، أو رأيتم منه جنة ، أوفى أحواله من فساد ، ثم أمر أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض فى الدنيا ، ولا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوك ، ويرتفع الريب ، فقال : ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾(2) .

أرأيت كيف يدعو منهج الدعوة إلى التفكير السليم ، وكيف جمع بين الاستدلال العقلى وإيقاظ القلوب .

أرأيت عظمة هذا المنهج فى نظرته الكلية إلى الإنسان ونفسه ، وأصله ، ونشأته ، ومكونات طاقاته ، ومجالات نشاطه ، وطبيعة تركيبه ، وانفعالاته ، واستجاباته ، وأحواله وأسراره .

رابعاً : النظرة الشاملة للمجتمع

ولما كان الإنسان - وهو المستهدف من دعوة الرسل - يعيش فى جماعة لا ينفك عنها ، يؤثر فيها ويتأثر بها ، ولما كان بناء الإسلام لهذا الإنسان إنما هو من أجل بناء مجتمع إسلامى يحمل منهج الله وتتحقق بوجوده الغاية من استخلاف الإنسان فى الأرض - فإن منهج الإسلام فى الدعوة - كما وضع فى اعتباره كل جوانب الإنسان

(1) صفوة التفاسير . محمد بن على الصابونى . دار القرآن بيروت ط رابعة جـ 3 ص : 559 .

(2) فتح القدير محمد بن على الشوكانى دار المعرفة . بيروت حـ 4 ص . 334

وطاقاته ، كذلك وضع فى اعتباره كل مقومات المجتمع ومكوناته :

١ – طوائف المجتمع وطبقاته.

٢ – عقائد المجتمع ودياناته .

٣ – عادات المجتمع وتقاليده

٤ – النظم السائدة فى المجتمع (كنظم الأسرة أو نظام القبيلة . . . إلخ)

٥ – المرأة باعتبارها صنو[1] الرجل .

٦ – ماضى المجتمع وحاضره .

٧ – علاقات المجتمع بما حوله ومن حوله .

ومن هنا نجد أن كل دعوات الرسل موجهة إلى مجتمعاتهم ، فقد يرسل الرسول - إلى قومه ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾(نوح : ١) أو إلى قريته : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس : ١٣) ، أو إلى قبيلته : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾(النمل : ٤٥).

وإذا كانت الدعوة تبدأ أول أمرها فردية إلا أنها ما تلبث حين يشتد عودها أن تتحول إلى دعوة جماعية توجه إلى العشيرة ، وإلى القبيلة وإلى القرية . . إلخ وإذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام قد بدأ دعوته بدعوة أبيه إلا أنه ما لبث أن تحول إلى دعوة قومه كلهم . . .

وإذا كان الأمر صدر إلى رسول الله فى أول الدعوة ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ﴾(المدثر : ٢)فبدأ يدعو أقرب الناس إليه فرداً فرداً ، إلا أنه ما لبث أن جاءه الأمر بإنذار العشيرة : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء : ٢١٤)فصدع رسول الله – ﷺ ـ بالأمر ، فقد روى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – حين أنزل الله « و أنذرعشيرتك الأقربين » . قال : يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد – ﷺ – « سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » (٢) .

وهذا من أساليب المنهج العلمى فى الدعوة ، فالداعية يبدأ بنفسه أولاً ، ثم بأولى

(١) صنو الشىء إذا خرج معه من أصل واحد قال تعالى . ﴿صنوان وغير صنوان﴾ وفى الحديث «عم الرجل صنو أبيه»

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان كتاب الإيمان . باب قوله تعالى : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ رقم ١٢٢ ص ٤٦ .

الناس بخيره ، و أقربهم إلى تصديقه . وإيمانهم به أدل على صدق الداعية ، وكانوا سندا له في دعوته منذ اللحظة الأولى ، فها هو ينادي عمته كما ينادي عمه ، وينادي ابنته ، وأحب الناس إليه ، ويحمل المرأة المسئولية كما يحملها الرجل .

ثم أعلن الوحي عالمية رسالة محمد - ﷺ - مكانا ، وزماناً وإنساناً، قال تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾(الأنعام ٩٢)﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(الفرقان : ١)وبتتبعنا لدعوة الرسل عليهم السلام ، نجد أن الناس أو المجتمع في مواجهة الدعوة فريقان : الملأ وعامة الناس، الأقوياء والضعفاء ، والمستكبرون والمستضعفون ، الأغنياء والفقراء ، السادة ومن يسمونهم أراذل الناس .

والملأ هم في كل دعوة المكذبون لها ، الصادون عنها ، الكائدون لصاحبها المتشبثون بما كان عليه آباؤهم من ضلال ، المتمسكون بالتقاليد وموروث العادات ، المحاربون لكل دعوة تغيير أو إصلاح لأنهم يرون في ذلك زوال ملكهم ، وضياع سلطانهم ، والقرآن الكريم يعرض علينا الملأ من دعوة كل رسول .

ففي دعوة نوح يتهمونه بالضلال : ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(الأعراف : ٦٠) . وفي دعوة هود يتهمونه بالسفاهة والكذب : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾(الأعراف : ٦٦) .

وفي قصة شعيب يهددونه والمؤمنين معه بالطرد من قريتهم إذا لم يعودوا في ملة الكفر والضلال ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾(الأعراف : ٨٨) .

وفي قصة موسى يأتمرون عليه ، ويأتيه الناصح من أقصى المدينة ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾(القصص : ٢٠) . ويحرضون فرعون على موسى : ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾(الأعراف : ١٢٧) .

وهكذا الملأ في دعوة كل نبي ، وهاهم في دعوة محمد - ﷺ - يحرضون الناس على التمسك بآلهتهم والصبر عليها : ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾(ص : ٦) .

ومن هنا نجد أن منهج الإسلام في الدعوة أفرد مساحات واسعة لأقوال الملأ ،

وادعاءاتهم ، واتهاماتهم ، وأباطيلهم ، وتهديداتهم والرد عليها ، وتفنيدها . كما أفرد مساحات لما يدور من حوار بين الملأ وعامة الناس ، أو بين المستكبرين والمستضعفين ، وقد يكون الحوار فى أول الدعوة تحريضاً على عدم اتباع الرسول ، وقد نجد الحوار بعد أن قطعت الدعوة شوطاً ، وآمن مع الرسل أناس معظمهم من المستضعفين .

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾(الأعراف : ٧٥- ٧٦). وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، وللاستنكار إيمانهم به والسخرية من تصديقهم له فى دعواه الرسالة من ربه . ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً لقد سكب الإيمان بالله القوة فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم . . إنهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدى التهديد والتخويف ؟ وماذا تجدى السخرية والاستنكار . . . من الملأ المستكبرين ؟ . « قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون » ومن ثم يعلن الملأ عن موقفهم فى صراحة تحمل طابع التهديد « إنا بالذى آمنتم به كافرون» (١) .

ومنهج الدعوة يضع فى اعتباره طبقة من المجتمع بسط الله لهم الرزق ، وابتلاهم بكثرة الأموال والأولاد ، فلم يشكروا الله على نعمه ، وإنما خدعتهم القيم الزائفة والنعيم الزائل ، هؤلاء هم المترفون ، الذين أفسد الترف فطرهم ، وغلظ قلوبهم فكانوا أعداء كل رسول ، وعقبة فى طريق كل داعية : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(سبأ : ٣٤ - ٣٥). ولعناية منهج الإسلام فى الدعوة ببيان صنوف الناس ، وتباين طبائعهم ، واختلاف مواقفهم أمام قضية الإيمان ، نجد القرآن الكريم ينبه إلى ذلك فى مواضع كثيرة كاشفاً النقاب عن طوائف الناس ومواقفهم ليكون الداعية على بصيرة بمن يدعوهم ، ومن ذلك ، قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾(الحج : ٨، لقمان : ٢٠) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾(الحج : ٣)﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(لقمان : ٦) .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ

(١) فى ظلال القرآن المجلد الثالث . دار الشروق . ص. ١٣١٣ .

الْخِصَامِ ﴾(البقرة : ٢٠٤) .

لذلك فإن منهج الإسلام العلمى فى الدعوة يوجه الداعية إلى مراعاة ألوان الناس وطوائفهم ، فيختلف أسلوبه فى الدعوة باختلاف الناس وباختلاف مواقفهم من الدعوة ، قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(النحل : ١٢٥) .

فالدعوة بالحكمة قد تناسب طائفة معينة ، وطائفة أخرى قد تنفعها الموعظة الحسنة ، وطائفة ثالثة قد تجدى معها المجادلة بالتى هى أحسن . كما سيأتى تفصيله عند الحديث عن أساليب الدعوة .

خامساً : استخدام المنهج التاريخى

عرفنا عند الحديث عن المناهج العلمية أن المنهج التاريخى أحد هذه المناهج ويسميه الوضعيون المنهج الاستردادى لأنه استرداد للماضى - وعلى الرغم من أن المنهج الإسلامى فى الدعوة - لا يستخدم منهجاً محدداً - كما ذكرت - وإنما يستخدم كافة المناهج العلمية من استدلال واستقراء وتجريب وتاريخ لأن موضوعه الإنسان بكل جوانبه ، وبكل تعقيداته ، وبكل اتجاهاته ، وبكل طاقاته - إلا أننى أفرد له عنوانا خاصاً فى مقومات المنهج الإسلامى لأنه أحد المناهج البارزة فى منهج الإسلام فى الدعوة بل إن قصص الأنبياء كلهم والدعوات التى سبقت الدعوة الخاتمة - كلها منهج تاريخى لخاتمة الرسالات - رسالة محمد - ﷺ ، منهج تاريخى للدعاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر الزمان .

إنها استرداد لموكب الرسل الكرام ولمنهجهم فى الدعوة إلى الله ، استرداد للصراع بين الحق والباطل ، وبين الكفر والإيمان .

ولقد رأينا أن كل الرسل كانوا يستخدمون المنهج التاريخى فى دعوتهم ، رأينا هودا عليه السلام يذكر قومه بقوم نوح ، ورأينا صالحاً يذكر قومه بقوم هود ، ورأينا شعيباً يذكر قومه بما أصاب قومه نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط .

فإذا ما وصلنا إلى دعوة محمد ﷺ وجدنا المنهج التاريخى يحتل مساحات واسعة فى كتاب الدعوة وفى كلام الداعية ، حتى أننا لنجده يظهر ، ويبدأ فى الظهور مع بداية الدعوة فى مكة ليقوم هذا المنهج بدوره فى الإقناع والتأثير . أنظر إلى القرآن الكريم يردهم إلى الماضى القريب : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي

تَضليلٍ * وَ أَرسَلَ عَلَيهِم طَيراً أَبَابِيلَ * تَرمِيهِم بِحِجَارَةٍمِن سِجِّيلٍ * فَجعَلَهُم كَعَصفٍ مَأكُولٍ﴾(سورة الفيل).

ولكى ندرك تأثير هذا المنهج التاريخى نرجع إلى سيرة الرسول ﷺ لنرى رسول الله بعد أن أوذى فى الطائف ولجأ إلى حائط لابنى ربيعة ، أرسلا إليه بقطف عنب مع مولى لهما نصرانى اسمه عدّاس فلما ابتدأ رسول الله - ﷺ - يأكل قال « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال عداس : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له عليه السلام : من أى البلاد أنت وما دينك ؟ فقال نصرانى من نينوى ، فقال عليه السلام : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟قال : وما علمك بيونس ؟ فقرأ له من القرآن ما فيه قصة يونس ، فلما سمع ذلك عداس أسلم .(١).

وهذه قريش تسأل الرسول عن قصة أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين وعن الروح ، نزلت سورة الكهف تحكى أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وتبين وجوه العبر والعظات فى القصتين ، وفى غيرهما .

يقول ابن هشام معقباً على ذلك : فلما جاءهم رسول الله - ﷺ - بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه ، وتصديقه ، فعتوا عن الله ، وتركوا أمره عناداً ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت :٢٦) أى اجعلوه لغوا وباطلاً ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصمتموه يوماً غلبكم (٢).

إن أسئلة قريش تشير إلى حقيقة أن المرء بطبعه مولع بمعرفة الماضى ، وأخبار من سبقوه ، والداعية الناجح هو الذى يستخدم المنهج التاريخى ليستخرج منه الدليل على صدق دعواه ، وليستخلص من أحداث التاريخ العبر والعظات ، وليقدم للمدعوين من خلالها سنن الله فى المخلوقات .

والقرآن الكريم فى كثير من آياته يرد الكافرين إلى أنباء من سبقهم ، ويذكرهم بما حل بالمكذبين والمعاندين ، ففى سورة التغابن - مثلاً - يخاطب كفار مكة بقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(التغابن : ٥،٦).

---

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . محمد الخضرى . دار الكتب العلمية بيروت ص.٤٨

(٢) السيرة النبوية لابن هشام . تقديم . طه عبد الرءوف . دار الجيل . ص٢٦٨

لقد كان التجار من القرشيين يمرون فى سفرهم إلى الشام بقرى لوط ، فيرون آثار الخراب والدمار الذى أصابها ، وكيف أهلك الله أهلها بفعلهم الفاحشة : ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾(الفرقان : ٤٠) ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(الصافات : ١٣٦-١٣٨) .

إن المنهج التاريخى والذى هو جزء من منهج الإسلام العلمى فى الدعوة منهج يقوم على الصدق والحق ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾(آل عمران : ٦٢)، فهو يختلف إختلافاً بيناً عن المنهج التاريخى الذى هو من وضع البشر ، لأن الأخير منهج ناقص محدود ، لأن صانعه لم يعش غير جزء محدود فى الماضى (١) . ، أما الأول فصانعه هو الله ، خالق الماضى والحاضر ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾(الرعد : ٩) .

سادساً : أساليب الدعوة ووسائلها
(منهج الرسل فى التبليغ)

تمهيد :

لما كان الله تعالى هو الذى بين لرسله أسلوب الدعوة ، ورسم لهم منهجها ، كانوا على بصيرة ، بصيرة بالمنهج ، بصيرة بما يدعون إليه ، بصيرة بمن يدعونهم .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(يوسف : ١٠٨) .

وهى دعوة بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، دعوة إلى العقل والقلب : قال تعالى : ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل : ١٢٥) .

وهى دعوة قول وعمل ، دعوة عقيدة وسلوك . . . قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(فصلت : ٣٣) .

وكما أن للدعوة منهجها ، فإن لأسلوب الدعوة منهجه ، الذى به تبلغ الدعوة غايتها ، وتؤدى رسالتها ، وتصل إلى قلوب الناس وعقولهم ، وتملك عليهم أحاسيسهم ومشاعرهم .

---

(١) انظر مناهج البحث العلمى . ص : ٣٠٠ تقويم المنهج التاريخى .

أساليب الدعوة :

لقد أرشد الإسلام إلى أساليب الدعوة إلى الله ، ووضع منهجها فى آية فذة من آيات الذكر الحكيم ، هى قول الله تعالى من سورة النحل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(النحل : ١٢٥).

وسأعرض هنا ما أورده بعض المفسرين فى هذه الآية الكريمة بنصه ، ثم أتناول بعد ذلك ما أرشدت إليه من أساليب الدعوة إلى الله .

يقول الإمام الزمخشرى : (٥٣٨هـ)(١) .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾أى إلى الإسلام .

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهى الدليل الموضح للحق ، المزيل للشبهة

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾وهى التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها ، وتقصد ما ينفعهم فيها ، ويجوز أن يريد القرآن : أى أدعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة .

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾بهم ، فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه فى حديد بارد .

قال الإمام الحافظ ابن كثير : (٧٧٤هـ)(٢) .

يقول تعالى آمرا رسوله محمداً - ﷺ - أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ، ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى . وقوله ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾أى من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب ، كقوله تعالى ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

(١) الكشاف الزمخشرى المجلد الثانى . ص: ٤٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير . المجلد الثانى . ص : ٥٩٢ .

أَحْسَن﴾(العنكبوت : ٤٦) .

فأمره تعالى بلين الجانب ، كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فى قوله : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(طه : ٤٤) .

ويقول الإمام أبو السعود : (٩٥١هـ)(١)

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ أى بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة .

﴿وَالْمَوْعِظَةِ﴾أى الخطابيات المقنعة ، والعبر النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنك تناصحهم ، وتقصد نفعهم ، فالأولى : لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق ، والثانية : لدعوة عوامهم ، ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد ، فإنه جامع لكلا الوصفين .

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾أى ناظر معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين ، واختيار الوجه الأيسر ، واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم ، وإطفاء للهبهم ، كما فعله الخليل عليه السلام .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة ، فإنه كاف فى هداية المهتدين ، وإزالة عذر الضالين ، أو ما عليك إلا ما ذكر من الدعوة والمجادلة بالأحسن ، وأما حصول الهداية أو الضلال ، والمجازاة عليهما . . . . فإلى الله سبحانه ، إذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال ، وبمن يهتدى إليه ، فيجازى كلا منهما بما يستحقه .

ويقول الإمام الشوكانى : (١٢٥٠هـ)(٢):

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾بالمقالة المحكمة الصحيحة ، وقيل هى الحجج القطعية المفيدة لليقين .

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾وهى المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التى يستحسنها السامع ، وتكون فى نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها ، وقيل : هى الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة ، وقيل ليس للدعوة إلا هاتان الطريقتان .

ولكن الداعى قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقضة ونحو ذلك من الجدل .

---

(١) تفسير أبى مسعود . دار إحياء التراث . جـ٥ ص :١٥١

(٢) فتح القدير الشوكانى . جـ٣ ص :٢٠٣

ولهذا قال سبحانه ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة ، وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعى محقاً ، وغرضه صحيحاً ، وكان خصمه مبطلاً ، وغرضه فاسدا . لما حث سبحانه على الدعوة بالطرق المذكورة بين أن الرشد والهداية ليس إلى النبى - ﷺ - وإنما ذلك إليه تعالى .

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾أى بمن يبصر الحق فيقصده غير متعنت ، وإنما شرع لك الدعوة ، وأمرك بها قطعا للمعذرة ، وتتميما للحجة وإزاحة للشبهة ،وليس عليك غير ذلك .

ويقول العلامة الألوسى (١٢٧٠هـ)(١) .

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾بالمقالة المحكمة، وهى الحجة المزيحة للشبهة .

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾وهى الخطابات المقنعة ، والعبر النافعة التى لا يخفى عليهم أنك تناصحهم بها .

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ناظر معانديهم بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين ، واختيار الوجه الأيسر ، واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم ، وإطفاءً للهبهم كما فعل الخليل إبراهيم عليه السلام .

واستدل أرباب العقول بالآية على أن المعتبر فى الدعوة من بين الصناعات الخمس (٢) .

ولقد فصل الألوسى القول فى هذه المراتب على نحو ما سأذكره بعد ، ولقد تعمدت أن أرتب المفسرين ترتيباً زمنياً بتدوين سنة الوفاة قرين اسم كل منهم ونلاحظ - من خلال هذا العرض - مدى تقارب المفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة ، كما نلاحظ مدي التطابق بين تفسير كل من الإمام أبى السعود والإمام الألوسى .

ويقول الدكتور حجازى (٣) :

هذه تذكرة للدعاة والمرشدين ، وقانون سنه لهم رب العالمين ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ .

﴿بِالْحِكْمَةِ﴾بالمقالة المحكمة التى تصيب المحز ، وتحرك النفس ، وتستولى على

---

(١) تفسير روح المعانى . الألوسى (شهاب الدين السيد محمود)إحياء التراث العربى لبنان جـ ١٤ ص ٢٥٤ .

(٢) المقصود بالصناعات الخمس هى البرهان ، والخطابة ، والمجادلة ، والمغالطة ، والشعر .

(٣) التفسير الواضح . محمد محمود حجازى دار الكتاب العربى . بيروت . المجلد الأول ص : ٥٥٤ .

القلب فتنزع أعراق السوء ، وتقتلع جذور العادات السيئة الموروثة ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إن صادفك في طريقك أشياء فجادل بالتي هي أحسن ، ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(الأنعام : ١٠٨) .

وإياك أن تصادم قوماً فى معتقداتهم الباطلة ، قبل أن تهيئ نفوسهم وعقولهم لقبول كلامك ، وإلا كنت داعياً للفرقة والفساد .

ويقول الشهيد سيد قطب (١) بعد أن عرض هذه الآية الكريمة ، والآيات التى تليها من سورة النحل : - على هذه الأسس يرسى القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها ، ويعين وسائلها وطرائقها ويرسم المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده بدينه القويم ، فلننظر فى دستور الدعوة الذى شرعه الله فى هذا القرآن .

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إن الدعوة دعوة إلى سبيل الله لا لشخص الداعى ولا لقومه ، فليس للداعى من دعوته إلا أنه يؤدى واجبه لله ، لا فضل له يتحدث به ، لا على الدعوة ، ولا على من يهتدون به ، وأجره بعد ذلك على الله .

والدعوة﴿بِالْحِكْمَةِ﴾والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر الذى يبينه لهم فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ، ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها والطريقة التى يخاطبهم بها ، والتنويع فى هذه الطريقة حسب مقتضياتها ، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة فى هذا كله ، وفى سواه .

و﴿الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾التى تدخل إلى القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية ، فإن الرفق فى الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾بلا تحامل على المخالف ، ولا ترذيل له وتقبيح ، حتى يطمئن إلى الداعى ، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ، ولكن الاقناع والوصول إلي الحق ، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا بالرفق ، حتى لا تشعر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هى عند الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها والجدل بالحسنى هو الذى يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل

(١) فى ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق حـ٤ ص : ٢٢٠١ .

أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها والاهتداء إليها . فى سبيل الله ، لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه ، وهزيمة الرأى الآخر . ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ولكى يطامن الداعية من حماسته واندفاعه ، يشير النص القرآنى إلى أن الله هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو الأعلم بالمهتدين ، فلا ضرورة للجاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله .

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ، مادام الأمر فى دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة . ١هـ

بعد هذا العرض نستطيع أن نخلص إلى ما يلى ·

أولاً : أن هذه الآية الكريمة ترسى قواعد الدعوة ومبادئها ، وتعين وسائلها وطرائقها ، وترسم المنهج للرسول الكريم ، وللدعاة من بعده فهى دستور الدعوة إلى الله .

ثانياً · أن أساليب الدعوة إلى الله إما أن تكون بالحكمة ، أو الموعظة الحسنة ، أو المجادلة بالتى هى أحسن ، وقد تكون مع الحكمة موعظة حسنة ، وقد تحمل الموعظة الحسنة فى طياتها حكمة وقد تكون مع المجادلة بالتى هى أحسن حكمة وموعظة حسنة ولكن لا يخلو أسلوب الدعوة من واحد من الأساليب الثلاثة .

ثالثاً :أن الناس أمام الدعوة يمكن حصرهم فى ثلاث طوائف متباينة أشار إليها الإمام أبو السعود وهم : خواص الأمة ، وعوام الأمة ،والمعاندون ، وقد فصل ذلك العلامة الألوسى على النحو التالى :

الطائفة الأولى : خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية الاستعداد لإدراك المعانى ، قوية الانجذاب إلي المبادئ العالية ، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه ، وهؤلاء يُدْعَوْنَ بالحكمة .

الطائفة الثانية : عوام ، أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد شديدة الإلف بالمحسوسات ، قوية التعلق بالرسوم والعادات ، قاصرة عن درجة البرهان ، ولكن لا عناد عندهم ، وهؤلاء يُدْعَوْنَ بالموعظة الحسنة .

الطائفة الثالثة : معاندون ، يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق لما غلب عليهم من تقليد الأسلاف ، ورسخ فيهم من العقائد الباطلة ، فصاروا بحيث لا تنفعهم المواعظ والعبر ، بل لابد من إلقامهم الحجر بأحسن طرق الجدال ، لتلين عريكتهم ، وتزول

شكيمتهم ، وهؤلاء الذين أمر - ﷺ - بجدالهم بالتى هى أحسن (١)

وتقسيم الناس إلى طوائف ثلاثة بحسب طبائعهم على النحو السابق تقسيم لطيف بين ، لأن من الناس من يريد التعميق ويكره السطحية ، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقى القائم على الفكر والتدبر ، ومنهم من يستهوية موضوع مثير ، وفطرة طيبة فيقف أمام اللفظة الجميلة والمثل النادر ، والقصة الشيقة ، والتكرار المؤكد ، ويسهر لمنظر بائس ، ورؤية مسكين ، ومنهم من يهوى اللجج ، ويعشقه ، وينازع ، ويجادل (٢)

ولكن ليس معنى هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخرى تماما إذ من الناس من يجمع فى طبعه أكثر من صفة ، وأكثر من استعداد .

رابعاً :الوسائل كلها سواء أكانت من الحكمة أم من الموعظة الحسنة أم من المجادلة بالتى هى أحسن فهى وسائل ربانية ، وهى وسائل معصومة لأن الأنبياء معصومون ، فهم لا يصدرون فيما يقولون أو يفعلون إلا بوحى من رب العالمين .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(يونس : ١٥، ١٦).

ما يكون للرسول أن يبدل القرآن من تلقاء نفسه ، إن هو إلا مبلغ متبع للوحى الذى يأتيه ، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب عظيم ، قل لهم يا محمد : لو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته ، ولو شاء ألا يعلمكم به ما أعلمكم ، ولقد لبثت فيكم عمراً كاملاً من قبل الرسالة ، أربعين سنة فلم أحدثكم بشئ من هذا القرآن ، لأننى لم أكن أملكه ، لم يكن أوحى إلى - فالأمر كله لله فى نزول هذا القرآن وفى تبليغه للناس . ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾(المائدة : ٩٩).

ومن قبل قال نوح لقومه : ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(الأعراف : ٦١، ٦٢) .

والآن ننتقل إلى الحديث عن الأساليب الثلاثة التى حددتها الآية الكريمة منهجاً للدعوة إلى سبيل الله .

---

(١) تفسير روح المعانى . الألوسى حـ ١٤ ص . ٢٥٤.

(١) الدعوة الإسلامية . أحمد علوش . ص . ٢٨١.

الدعوة بالحكمة

الحكمة فى اللغة :

جاء فى قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية : والحكمة : العلم مع العمل والعدل، أو هى صواب الأمر وسداده ، والحكيم : صاحب الحكمة ، وهو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى (١).

وجاء فى مختار الصحاح : والحكم أيضاً الحكمة من العلم ، والحكيم العالم وصاحب الحكمة ، والحكيم أيضاً المتقن للأمور ، وقد حكم من باب ظرف أى صار حكيماً ، وأحكمه فاستحكم أى صار محكماً (٢).

وجاء فى المصباح : والحكمة وزان قصبة للدابة ، سميت بذلك لأنها تذللها لراكبها حتى تمنعها الجماح ، ونحوه ، ومنه اشتقاق (الحكمة) لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل ، وحكمت الرجل بالتشديد فوضت الحكم إليه ، وتحكم فى كذا فعل ما رآه ، وأحكمت الشيئ بالألف أتقنته فاستحكم هو صار كذلك (٣).

الحكمة فى القرآن :

جاء لفظ ﴿الْحِكْمَةَ﴾فى القرآن الكريم عشرين مرة فى اثنتى عشرة سورة منها ست مكية وست مدنية (٤) . وجاء اللفظ معبراً عن معان مختلفة ، سأذكر بعضها لنرى مدى اتساع مدلول الكلمة ، لعلنا بذلك نستطيع أن نقف على بعض المعانى للحكمة فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾.

١ - الحكمة بمعنى القرآن فى قوله تعالى ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(البقرة : ٢٦٩) . عن ابن عباس يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه وأمثاله ، وقال مجاهد : العلم والفقه والقرآن وقيل العقل (٥) .

٢ - الحكمة بمعنى السنة فى قوله تعالى لنساء النبى - ﷺ - : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾(الأحزاب : ٣٤).

(١) قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ص. ٨٨ مادة (حكم)

(٢) مختار الصحاح . ص. ٦٢.

(٣) المصباح المنير . ص ٢٠٠

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . ص. ٢١٣، ٢١٤

(٥) تفسير ابن كثير . المجلد الأول ص ٣٢٣

٣ - الحكمة بمعنى النبوة فى قوله تعالى : ﴿وقتل داوُدُ جالوت وآتاه الله الملك والْحكْمَة﴾(البقرة ٢٥١).

٤ - الحكمة بمعنى جماع الأخلاق الكريمة فهى تشمل كل أمر بمعروف ونهى عن منكر فى قوله تعالى : ﴿ ذلك ممَا أَوْحىٰ إليك ربُك من الْحكْمة﴾(الإسراء ٣٩).

وذلك بعد مجموعة الأوامر والنواهى التى جاءت فى سورة الإسراء تدعو إلى عبادة الله وحده ، والإحسان إلى الوالدين ، وصلة الرحم ، والاعتدال فى الإنفاق ، والحفاظ على الأبناء ، وصيانة الأنفس والأموال والأعراض ، والوفاء بالكيل والميزان واجتناب الظن والكبر . . . بعد ذلك جاءت الآية ﴿ذَلك ممَا أَوْحىٰ إليك ربك من الْحكْمَة﴾ جاء فى تفسير ابن كثير ، يقول تعالى : هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، ونهيناك عنه من الصفات الرديلة مما أوحينا إليك به يا محمد لتأمر به الناس (١) .

٥ - الحكمة بمعنى الفهم فى الدين وتعليم الناس الخير كما فى قوله تعالى إخباراً عن دعوة إبراهيم : ﴿ربَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتك وَيُعلِّمُهُمُ الْكتَاب وَالْحكْمَةَ﴾(البقرة :١٢٩) . يقول ابن كثير : وقيل الفهم فى الدين ، وقال ابن إسحاق : «يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه ، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته» (٢) .

٦ - الحكمة بمعنى العلم والديانة والإصابة فى القول فى قوله تعالى ﴿ولقدْ آتيْنا لُقمان الْحكْمَةَ﴾(لقمان :١٢) .

الحكمة فى السنة :

١ - الحكمة بمعنى الفقه بكتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - مع العمل بهما ، فى قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس » (٣) .

٢ -الحكمة بمعنى خشية الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه فى قوله - ﷺ - .

---

(١) تفسير ابن كثير . المجلد الثالث ص ٤١٠

(٢) تفسير ابن كثير المجلد الأول ص ١٨٥ .

(٣) رواه البخارى . كتاب العلم . جـ١ ص ٢٨٠ رواه الإمام أحمد فى مسنده

« رأس الحكمة مخافة الله» .(١) .

٣ - الحكمة بمعنى العلم النافع والفهم الصحيح فى قوله - صلى الله عليه وسلم - : «الحكمة ضالة المؤمن» (٢) .

إذا ضممنا ذلك كله إلى ما عرضناه من أقوال المفسرين فى معنى الحكمة فى قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ نستطيع أن نقول :

إن الدعوة بالحكمة تعنى الدعوة إلى الله بالقول الصائب المحكم ، وبالدليل الموضح للحق المزيل للشبهة .

ولن يكون القول صائباً ، ولن يقيم حجة إلا إذا كان واضحاً غاية الوضوح بينا غاية البيان ، ولذلك فإن من الحكمة فى الدعوة وضوح أسلوبها .

ولما كان من معانى الحكمة العلم النافع مقروبا بالعمل بمقتضى هذا العلم ، فإن الدعوة بالحكمة تعنى الدعوة بالقدوة الحسنة ، والسيرة الطيبة .

ومن الحكمة فى الدعوة ، أو الدعوة بالحكمة مراعاة طبائع النفوس ، ومواقف الناس من قبول الحق ، فمنهم الباحث عن الحق المتطلع إلى معرفته ، ومنهم المنصرف عن ذلك ، لا يرى دنياه إلا ما ورثه عن آبائه وأجداده ، فهو فى غفلة يحتاج إلى من يبصره ، وفى غفوة يحتاج إلى من يوقظه ، ومنهم المعاند المكابر ، يكره الحق ويقاومه، ويحب الباطل ويسانده .

ومن الحكمة فى الدعوة أن ينظر الداعية فى أحوال المخاطبين وظروفهم ، وأن يتدرج معهم فى الدعوة ، فلا يكلفهم بما يشق على نفوسهم قبل استعدادهم لقبول التكاليف ، ولعل ذلك كان وراء الحكمة فى نزول القرآن الكريم منجماً على امتداد ثلاث وعشرين سنة ، قضى منها الرسول - ﷺ - ثلاث عشرة سنة فى مكة كانت مهمته فيها إبطال عبادة الأوثان ، لتحل محلها عبادة الواحد الأحد وترسيخ عقيدة التوحيد هذه فى نفوس المؤمنين بالدين الجديد . وسوف أتناول بعض أساليب الدعوة بالحكمة بشيء من التفصيل .

---

(١) رواه البيهقى فى الدلائل نقلا عن كتاب (ادع إلى سبيل ربك) .

(٢) أخرجه الترمذى فى باب العلم

بقى أن نعرف شيئاً بالنسبة إلي الدعوة بالحكمة ، وهو أن بعض المفسرين فسر (الحكمة) بأنها القرآن والسنة ، وفى ذلك جمع لكل معانى الحكمة لأن القرآن الكريم والسنة المشرفة يتضمنان قضايا الدعوة ، والحجج الدامغة والبراهين الساطعة على صدقها .

كما يرسمان للداعية منهج الدعوة وأساليبها وطرائقها ، ومن هنا كان القرآن والسنة هما عدة الداعية إلى الله ، بل نستطيع أن نقول إن الداعية إلى الله هو النموذج التطبيقى أو الواقع العملى لما جاء فى القرآن والسنة .

لقد كان رسول الله - ﷺ - قرآنا يمشى على الأرض ، ولقد سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه ، فقالت (كان خلقه القرآن) . (١)

١ - من الدعوة بالحكمة الوضوح التام والبلاغ المبين :

إن المتأمل فى دعوة الرسل يرى أنها تمت بأسلوب واضح ، لاخفاء فيه ولا التواء ولا لبس فيه ولا غموض .

يقول الله تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾(النور ٥٤- والعنكبوت ١٨). أى التبليغ البين الواضح ، ويقول : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد : ٢٥) والبينات الحجج القواطع ، ويقول : ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(الأنعام : ١٠٤) يقول الشوكانى : البصائر جمع بصيرة وهى فى الأصل نور القلب ، والمراد هنا الحجة البينة والبرهان الواضح . (٢) .

ويقول تعال : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٨) أى أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء . (٣)

والبلاغ المبين دليل على وضوح الحق فى نفس الرسول ، والدعوة الواضحة دليل على جلاء الإيمان فى نفس الداعية ، ولذلك يأمر الله نبيه محمداً - ﷺ - أن يجهر فى مواجهة المشركين المكذبين بربهم - بما يجده فى نفسه من اليقين الواضح الراسخ ، والدليل الداخلى البين ، والإحساس الوجدانى العميق ، بربه، ووجوده ، ووحدانيته، ووحيه إليه .

---

(١) أخرجه النسائى .

(٢) فتح القدير . المجلد الثانى . ص : ١٤٩.

(٣) الكشاف . المجلد الثانى . ص : ٣٤٦ .

قال تعالى لخاتم رسله محمد - ﷺ - : ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾(الأنعام : ٥٧).

وهو الشعور الذى وجده الرسل من ربهم ، وعبروا عنه مثل هذا التعبير ، أو قريباً منه قالها نوح - عليه السلام- : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود : ٢٨).

وقال صالح - عليه السلام - : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾(هود : ٦٣).

وقالها إبراهيم - عليه السلام - : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾(الأنعام : ٨٠) .

وقالها يعقوب - عليه السلام - لبنيه : ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(يوسف : ٩٦).

فهى حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب أوليائه ، ممن يتجلى الله فى قلوبهم ، فيجدونه - سبحانه - حاضراً فيها ، ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك فى أعماقهم تسكب فى قلوبهم اليقين بها ، وهى الحقيقة التى يأمر الله رسله أن يجهروا بها فى مواجهة المشركين المكذبين ، فيعبروا عنها بوضوح تام أصدق تعبير ، يبلغونها أبين بلاغ (١) .

وهل هناك دليل على وضوح أسلوب الدعوة إلى الله أعظم وأنصع من تشبيه الله للداعية الخاتم بالسراج المنير ؟ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(الأحزاب ٤٥، ٤٦).

ثم إن هذا الوضوح التام فى أسلوب الدعوة ، والبلاغ المبين يقتضى أمرين :

الأول : أن يتحدث الرسول إلى قومه بلسانهم ، لأنهم فى هذه الحالة يكونون أقدر على السماع ، وأقوى على الفهم ، وقد بعث الله كل نبى إلى أمته بلغتها ، وقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يخاطب العرب كل قبيلة بلهجتها .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(إبراهيم : ٤).

الثانى : مراعاة التفاوت بين عقول المدعوين وأفهامهم . قال رسول الله - ﷺ - :

---

(١) فى ظلال القرآن . المجلد الثانى . ص : ١١١٠ .

العمل بالحكمة على الدعوة إليها ، وتعليمها للناس ، لتتحقق القدوة فى الداعية .
وأول آيات نزلت على رسول الله - ﷺ- إعلاما له بالرسالة (قم فأنذر) أمرته أن يعد نفسه إعدادا به تكمل عدته للدعوة ، ويكون القدوة الحسنة فتؤتى دعوته ثمارها .
ولكى تتحقق القدوة فى الداعية لابد وأن تحسن علاقته بربه ، وبنفسه ، وبالناس .
قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾(المدثر : ١-٧).

لقد كان لسيرة الرسول - ﷺ - وما اشتهر به من الصدق والأمانة ، والحلم وسعة الصدر ، ودقة الفهم ورجاحة العقل ، أثر كبير فى نجاح دعوته - صلى الله عليه وسلم- .

أرأيت إلى خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - عندما أخبرها رسول الله - ﷺ - بما حدث له فى غار حراء قالت : « كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فلا يسلط الله عليك الشياطين والأوهام ، ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك »(١) .

إن استقامة الداعية هى سر نجاح دعوته ، وهى العامل الأقوى فى اتباعه وهى المؤهل الأهم لإمامته ، وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾(الشورى : ١٥) .

والتربية النافعة إنما تكون بالعمل لأنها مبينة على القدوة الصالحة ، والأسوة الحسنة، لا بمجرد القول ، يبين ذلك ما حدث من رسول الله - ﷺ - يوم الحديبية ، وقد أمرهم بالحلق بعد النحر ثلاثاً فلم يستجيبوا إلا بعد أن نحر - عليه الصلاة والسلام، ودعا حالقه فحلق ، فاقتدوا جميعاً بفعله .

والمنهج الإسلامى يذم أهل الكتاب ويعيرهم لأن قولهم يخالف فعلهم :
قال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(البقرة : ٤٤) .

وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود : ٨٨) .

ومن الحكمة فى الدعوة أيضاً - بعد أن يبدأ الداعية بنفسه - أن يدعو بعد ذلك

(١) نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص.٢١

أولى الناس بخيره ، وأقربهم إلى تصديقه . فهذا إبراهيم - عليه السلام - يتوجه إلى أبيه في أول الأمر يخصه بالنصيحة ، ويحذره عاقبة كفره ، وذلك بأسلوب عقلى هادئ ، وفى أدب جم ، وتلطف ولين ، ويبدأ كلامه فى بداية كل نصيحة بقوله (يا أبت) تذكيراً بأقوى الروابط إنها رابطة الأبوة .

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(مريم: ٤٢-٤٥).

وبهذا أمر الله نبيه وخاتم رسله محمداً - ﷺ - فقال له ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء : ٢١٤).

ولقد بينت عند الحديث عن نظرة المنهج الإسلامى الشاملة للمجتمع - كيف صدع الرسول بما أمره الله به ، وكيف دعا عشيرته الأقربين وأنذرهم عذاب الله إن لم يتبعوا ما جاء به من الهدى والحق .

٣ - من الدعوة بالحكمة مراعاة طبائع الناس ومواقفهم من الحق :

وهذا غير ما ذكرته من مراعاة التفاوت بين العقول والأفهام ، فقد يكون الإنسان صاحب عقل وفكر ، وصاحب معرفة وعلم ، ولكنه حاسد مكابر، وحاقد معاند .

والداعية يقف من طلاب الحق ، مهما كانت جفوتهم وغلظتهم ، ومهما أساءوا الأدب مع الداعية - يقف منهم موقفاً يخالف موقفه مع المعاند المستكبر ، والمكذب المستهزئ فهو مع الأول يلين له الجانب ، ويعفو وصفح ، ويعطف ويمنح ، ومع الثانى يقذف بالحقيقة فى وجهه يهدده ويتوعده .

انظر إلى موقفين لرسول الله - ﷺ - ليتبين لك المنهج الحكيم للدعوة فى مواجهة الناس على إختلاف طبائعهم ومواقفهم .

الموقف الأول :يرويه لنا الإمام ابن كثير فى سبب نزول قول الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(يس: ٢٧ -٧٩).

قال جاء أبى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله - ﷺ - وفى يده عظم رميم ، وهو يفته ويذروه فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا قال -

ﷺ -: « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار »(١) . إنه الرد المناسب لهذا المستكبر المستهزئ.

أما الموقف الثاني : فموقفه مع الأعرابى الذى تناول الرسول - ﷺ - بلسانه ، حين لم يرضه عطاؤه ، غضب الصحابة وهموا بقتله ، وكيف أن النبى عفا عنه ، ومنحه المزيد من العطاء حتى قال الرجل حين سأله الرسول - ﷺ - : أأحسنت ؟ قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النبى - ﷺ - : « إنك قلت ما قلت ، وفى نفس أصحابى شئ من ذلك ، فإن شئت فقل بين أيديهم حتى يذهب ما فى صدورهم عليك » قال : نعم . فلما فعل ، قال الرسول - ﷺ - لأصحابه : « إن مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه ، فأتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها ، وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها حتى جاءت، فشد عليها رحلها ، واستوى عليها ، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار »(٢) .

إنها حكمة الرسول العظيم فى الدعوة ، فى الموقف الأول يواجه المعاند المكابر ويوعده النار ، وفى الموقف الثانى يأخذ بيد الأعرابى فى لطف ولين حتى ينقذه من النار .

والناس يتفاوتون فى قبولهم للحق ، وتلقيهم للعلم ، واستجابتهم للهدى ، والرسول الداعية - ﷺ - يضرب المثل لهذا التفاوت فى أسلوب رفيع ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى عن النبى - ﷺ - قال : « إن مثل ما بعثنى الله به- عز وجل - من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة ، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب ، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا ، ورعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه بما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » . (رواه البخارى ومسلم).

---

(١) تفسير ابن كثير . المجلد الثالث . ص ٥٨٢ .

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى القاضى جـ١ ص ١٢٣

الدعوة بالموعظة الحسنة

الموعظة فى اللغة :

جاء فى قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية : (وعظه) نصح له وذكره بالعواقب ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم﴾ أى أوصيكم وآمركم ، و(العظة) و(الموعظة) كلام الواعظ الناصح (١) .

وجاء فى **مختار الصحاح** : (الوعظ) النصح والتذكير بالعواقب ، وقد وعظه من باب وعد ، و(**عظة**) أيضاً بالكسر فاتعظ ، أى قبل (الموعظة) ، يقال : السعيد من وعظ بغيره ، والشقى من (**اتعظ**) به غيره (٢) .

وجاء فى المصباح المنير :(**وعظه**) يعظه وعظاً وعظة أمره بالطاعة ووصاه بها ، وعليه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أى أوصيكم وآمركم ، فاتعظ أى ائتمر وكف نفسه ، والاسم (الموعظة) وهو واعظ والجمع وعاظ(٣) .

الموعظة فى القرآن الكريم :

وردت كلمة **موعظة** فى القرآن الكريم تسع مرات ، فى تسع سور ، منها خمس سور مدنية ، وأربع سور مكية ، ولم ترد معرفة أو موصوفة بصفة مفردة إلا فى الآية موضوع بحثنا ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ .

وكلها تدور حول الأمر والزجر ، والتحذير والتذكير ،والوصية والعبرة والتخويف والتبصير بالعواقب ،وسأعرض بعض الآيات لنقف منها على بعض معانى (الموعظة) .

١ - قال تعالى تعقيباً على العقوبة التى أنزلها ببنى إسرائيل نتيجة اعتدائهم : ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة: ٦٦) .

يقول ابن كثير تعقيبا على الآية : فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم (٤) .

---

(١) قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ص ٤١٦ ·

(٢) مختار الصحاح ص :٣٠٣.

(٣) المصباح المنير ص:٩١٧

(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص : ١٠٦

٢ – وقال تعالى تعقيباً على تحريم الربا :﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة ٢٧٥) يقول أبو السعود : فمن بلغه وعظ وزجر كالنهى عن الربا(١) .

٣ – قال تعالى إشارة إلى ما لفت إليه الأنظار من وقائع الماضين ، وما حاق بالمكذبين : ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(آل عمران :١٣٨) يقول أبو السعود (٢) : هذا إشارة إلى ما سلف من قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾(آل عمران :١٣٧) .

٤ – وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(يونس :٥٧) يقول ابن كثير فى تفسير الآية الكريمة : يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾أى زاجر عن الفواحش ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾أى من الشبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿ وهُدًى ورحمة ﴾ أى يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به ، والمصدقين الموقنين (٣) .

٥ – فإذا انتقلنا إلى صيغة الفعل وجدناه يأتى بمعنى الأمر أو الوصية مشفوعة بالتحذير كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(النساء .٥٨) يسمع أقوالكم ويرى أفعالكم فاحذروا مخالفة ما يعظكم به .

الموعظة فى السنة :

١ – عن العرباض بن سارية – رضى الله عنه – قال : وعظنا رسول الله – ﷺ – موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ، قال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة »(٤) .

---

(١) تفسير أبى السعود . جـ١ ص.٨٨.

(٢) تفسير أبى السعود. جـ١ ص ٢٦٦.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤٢١

(٤) رواه أبو داود والترمذى ، وقال حسن صحيح . نقلاً عن كتاب الأذكار للإمام النووى ص. ٣٦٦.

والشاهد فى هذا الحديث الشريف أن الموعظة إنما يقصد بها إيقاظ القلوب وتوجيه الانفعال ، وهذا ما دل عليه قول العرباض - رضى الله عنه - : (موعظة)وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون .

٢ - عن أبى مسعود الأنصارى قال : قال رجل يا رسول ، لا أكاد أدرك الصلاة مما يطول بنا فلان - فما رأيت النبى - ﷺ - فى موعظة أشد علينا من يومئذ ، فقال : « أيها الناس ، إنكم منفرون ، فمن صلى بالناس فليخفف ، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة» (١) .

وهنا أيضاً نرى وقع الموعظة على نفوس أصحاب رسول الله ، من قول أبى مسعود الأنصارى : فما رأيت النبى - ﷺ - أشد موعظة علينا من يومئذ .

إذا ضممنا إلى ذلك كله ما سبق أن عرضناه من أقوال المفسرين فى معانى (الموعظة الحسنة) فى قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ نستطيع أن نخلص إلى ما يلى :

١ - من معانى الموعظة التذكير ، والزجر إذا وجد ما يوجبه ، والتحذير من العواقب .

٢ - ومن معانيها الأمر والنصح والوصية مشفوعة بما يحبب فى فعل الخير وينفر من فعل الشر .

٣ - وهى توجيهات تفيد القرب النفسى بين الداعى والمدعو بما تشمله من إثارة الانفعال وإيقاظ الشعور مع وضوح أن الداعى يقصد نفع المدعو ، ويخاف عليه ، ولا يطلب على ذلك أجراً .

٤ - ووصفها بالحسنة لأنها تدخل إلي القلوب برفق ، وتتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب فى غير موجب ، فإن الرفق فى الموعظة كثيراً ما يهدى القلوب النافرة ، ويأتى بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ .

فهى حسنة لأن السامع يستحسنها ، ولأنها حسنة فى نفسها باعتبار انتفاع السامع بها .

---

(١) صحيح البخارى بحاشية السندى دار المعرفة . بيروت جـ ١ كتاب العلم . ص . ٢٤ .

٥ -والموعظة الحسنة لا تنفصل عن الحكمة بل هى مظهر من مظاهرها ، وجزء منها وقد تتبع الحكمة بموعظة ، فتطرق الدعوة أبواب العقل والقلب جميعاً .

والداعية الحكيم هو الذى يعرف متى يسوق الدليل والبرهان ، ومتى يقدم الموعظة الحسنة ، ومتى يجادل المعاندين .

من أساليب الدعوة بالموعظة الحسنة :

١ - أسلوب الترغيب والترهيب :

ونقصد بالترغيب كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة للحق ، وقبوله والثبات عليه ، ونقصد بالترهيب كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة للحق ، أو رفضه ، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله .

والأصل فى الترغيب أن يكون فى نيل رضى الله ، ورحمته ، وجزيل ثوابه فى الآخرة ، وهذا هو نهج رسل الله الكرام كما بينه القرآن الكريم ، وجاءت به السنة النبوية المطهرة ومن هذه الأساليب ما حكاه القرآن على لسان نوح عليه السلام : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(نوح : ١-٣)﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(الأعراف : ٦٣).

وقال تعالى : عن رسوله محمد - ﷺ - : ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التغابن ٨ - ٩).

وفى « السنة النبوية كان - ﷺ - يَعدُ المبايعين له بالجنة ، من ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لأصحاب بيعة العقبة الأولى : « فإن وفيتم فلكم الجنة » (١) . وكان - ﷺ - يمر بآل ياسر وهم يعذبون بسبب إسلامهم ، فيقول لهم : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » (٢) .

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢١٠.

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٤٢٠

وكما يكون الترغيب والترهيب بالجزاء فى الآخرة ، يكون أيضاً بما يصيب المدعوين من خير فى الدنيا إذا استجابوا ، وما يلحقهم من شر إذ أعرضوا ، قال تعالى - حكاية عن نوح - عليه السلام - : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾(نوح : ١٠-١٢) .

وقال تعالى لأمة محمد - ﷺ - : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(النور : ٥٥).

٢ - التذكير بالنعيم :

لا شك أن النفوس مجبولة على حب من أنعم عليها ، وكما يقولون : الناس عبيد إحساناتهم ، وصدق الشاعر إذ يقول :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

فكيف بالله الخالق الرازق ، المتفضل على خلقه بكل النعم جليلها ودقيقها ، والذى عمت تربيته جميع الكائنات ، وأعطى كل شيء نهاية ما يطلبه استعداده ، ومركزه فى مراتب الوجود ، وهذا هو الإنسان الذى جعله الله فى أقصى درجات الوجود المادى ، ومنحه مركز الخلافة فى الأرض ، قد رباه فوق هذه التربية الجسمية الكونية العامة تربية نفسية وعقلية ، ثم رباه تربية تشريعية سبيلها الوحى وبعث الرسل .

إن منهج الإسلام العلمى فى الدعوة لم يغفل هذا الجانب فى الإنسان ، إلى جانب ما استقر فى فطرته من أن الخالق والرزاق هو الله رب العالمين - ومن هنا - جعل من أساليب دعوته تذكير الإنسان بنعم الله عليه ، ليوقظ شعوره ، فيدرك أن المنعم هو وحده المستحق للعبادة .

انظر إلى هود - عليه السلام - يذكر قومه فيقول : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الأعراف : ٦٩)ويقول لهم : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(الشعراء : ١٣٢ -١٣٥) . ويذكر صالح - عليه السلام - قومه فيقول : ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ﴾(الأعراف : ٧٤) .

والقرآن الكريم يمن على قريش ، ويذكرها نعمة الله بهزيمته الإلهية التى ألحقها بأبرهة فرده عن البيت الحرام الذى فيه أمنهم ، وبسببه تجلب إليهم الأرزاق والثمرات ، وذلك فى سورة الفيل ، وقد أشرت إليها عند الحديث عن المنهج التاريخى فى الدعوة .

ويكرر القرآن هذا المن الإلهى فى قوله : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(العنكبوت ٦٧٠) . وبعد سورة الفيل يذكرهم بنعمة الإطعام من جوع والأمن من خوف فى سورة سميت باسمهم (سورة قريش) .

وقد روى أن النبى - ﷺ - كان يقرأ هذه السورة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ثم يقول : « ويحكم يا معشر قريش اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف »(١) .

أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن

المجادلة فى اللغة :

جاء فى **قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية** : جدل الحبل جدلاً : فتله ، وجدل الرجل جدلاً : خاصمه أشد خصومة ، والجدال : الخصام مع الناس ، تجادل القوم : تضاغنوا وتعادوا ، وجادل : ناقش بالحجج والأدلة(٢) .

وجاء فى **مختار الصحاح** : جادله : خاصمه (مجادلة) و(جدالا) ، والاسم الجدل وهو شدة الخصومة(٣) .

وجاء فى **المصباح المنير** : جدل الرجل جدلاً فهو جدل من باب تعب إذا اشتدت خصومته ، وجادل مجادلة وجدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع فى مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق ، وإلا فمذموم(٤) .

وجاء فى **تفسير المراغى** : أصل الجدل هو الصراع ، وإسقاط المرء صاحبه على

(١) تفسير ابن كثير . المجلد الرابع ص : ٥٥٤

(٢) قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية . ص ٦٣

(٣) مختار الصحاح . ص. ٤١ .

(٤) المصباح المير ص: ١٢٨

الجدالة ، وهى الأرض الصلبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة ، مما يشغل عن ظهور الحق ، ووضوح الصواب (١).

المجادلة فى القرآن الكريم :

لم يرد لفظ المجادلة فى القرآن الكريم على الرغم من وجود سورة كريمة من سوره تحمل هذا اللفظ كاسم لها ، وهى سورة المجادلة ، وإنما استعمل القرآن الكريم . صورتين أخريين من صور المصدر هما : (جدل) وقد ورد مرتين ، و(جدال) وقد ورد مرتين كذلك ، أما مجيء اللفظ على صورة الفعل فقد ورد كثيراً فى القرآن الكريم (٢) .

وسأعرض بعض الآيات لنقف على معانى المجادلة كما جاءت فى القرآن الكريم ، وكلها تدور حول معانى . المراجعة ، والمخاصمة ، والمحاجة ، والمكابرة ، والمهاترة :

١ - وقد جاءت بمعنى المراجعة والمحاورة فى الكلام فى قول الله تعالى : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ لقد أصابها من ألم فراق زوجها ما حملها على إكثار الكلام مع رسول الله وترديد الكلام معه (٣) .

٢ - وجاءت بمعنى المحاجة فى قول الله تعالى : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أى حاججتنا فأكثرت من ذلك ، ونحن لا نتبعك (٤).

٣- وجاءت بمعنى المكابرة والمعاندة فى قول الله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان إلا الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه (٥) . مكابرة وعنادا .

٤ - وجاءت بمعنى الخصام فى قوله تعالى : ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أى خصام (٦) .

٥ -وجاءت بمعنى المهاترة بالباطل والتشويش على الحق فى قوله تعالى :

---

(١) تفسير المراغى . جـ١٢ ص ٢٧٠ .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ١٦٥

(٣) تفسير الجلالين . تحقيق شعبان إسماعيل . والآية من سورة المجادلة ١٠ .

(٤) تفسير ابن كثير . جـ٢ ص . ٤٤٤ من سورة هود ٣٢ .

(٥) ابن كثير . جـ٤ ص : ٧١ ، والآية من سورة غافر ٤٠ .

(٦) تفسير الجلالين ص ٢٧ ، والآية من سورة البقرة : ١٩٧ .

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أى ليزيلوا بالجدل بالباطل الحق ، ويبطلوه ، وأصل الدحض الزلق ، يقال دحضت رحله أى زلقت ، ومن مجادلة هؤلاء الكفار بالباطل قولهم للرسل – ما أنتم إلا بشر مثلنا – ونحوه (١) .

المجادلة بالتى هى أحسن :

١ – لما كان أصل معنى المجادلة هو المنازعة لا لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم وكانت معظم معانيها تدور حول المخاصمة والمكابرة ، فإن الله تعالى جعل مجادلة الرسل بالتى هى أحسن ، لأن الرسل دعاة حق ، يسعون إلى تبليغه للناس ، وتبصرتهم به ، وهم مترفعون عن الانتقام ، لا ينتصرون لأشخاصهم ولا يشعرون بزهو إذا علت حجتهم على حجة خصمهم ، إنهم يعلمون أن الطرق الجدلية التى تعتمد على التماس نقاط الضعف عند المخالف ، وتوجيه الضربات إليه باستغلال هذه النقاط ، وإثارة أعصابه بالأساليب العنفية المنافية لاحترام ذاته وفكره . . لا تملك أن تقدم للعقيدة مؤمنا يعيش الإيمان بروحه وعقله ، لأن هذه الطرق تهاجم كبرياء الإنسان وكرامته فى الصميم ومن هنا كانت مجادلة الرسل لأقوامهم بالتى هى أحسن ، بالطريقة التى تشعر الخصم أنك وإياه رفيقان فى رحلة الوصول إلى الحق ، وأنك تحترم ذاته وتفكيره ، ولذا فأنت تعيش معه فى مجال الصراع الفكرى بهدوء واتزان .

أرأيت هدوءًا واتزانا ، وصبرا وأناة ، أعظم مما نقله لنا القرآن الكريم عن مجادلة نوح – عليه السلام – لقومه ؟!

يدعو قومه إلى عبادة الله . . يريد هدايتهم . . وينشد إنقاذهم . . ويخاف عليهم غضب ربهم وعذابه . ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(الأعراف : ٥٩) .

فكان الرد من قومه سبا واتهاما ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(الأعراف : ٦٠) قابلوا أعظم الإحسان بأبلغ الإساءة ، فماذا كان رد نوح – عليه السلام – ؟يجادلهم بالتى هى أحسن ، ويقول فى هدوء واتزان . . . ينفى اتهامهم دون أن يسيء إليهم ، ويبين لهم وظيفته ، ويحدد دوره فى وضوح تام ، ومع ما قابلوه به من إساءة واتهام لا يترك نصحهم فهو جد حريص على نفعهم وهدايتهم . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ

(١) تفسير فتح القدير . المجلد الثالث . ص ٢٩٦ والآية من سورة الكهف : ٥٦

ليْس بِي ضلالةٌ ولَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعالَمِين (٦١) أُبلِّغُكُمْ رسالاتِ ربِّي وأنصحُ لَكُمْ وأعْلَمُ منَ اللَّه ما لا تعْلَمُونَ ﴾(الأعراف : ٦١، ٦٢).

٢- رسل الله يدعون الناس بالحكمة والموعظة الحسنة إبتداء ، فهم لا يدعون الناس بمجادلة ، ولا يدعون إلى المجادلة ، ولا يلجأون إليها إلا في مواجهة المعاندين المكابرين الذين لم تجد معهم حكمة ولا موعظة حسنة ، ولنقرأ معاً هذه الآيات من سورة هود لنرى كيف يبدأ الرسول دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة :

﴿وإِلَىٰ عادٍ أخاهُمْ هُودًا قال يا قوْمِ اعْبُدُوا اللَّه ما لكُم مِّنْ إلهٍ غيْرُهُ إنْ أنتُمْ إلاَّ مُفْترُون (٥٠) يا قوْمِ لا أسْألُكُمْ عليْهِ أجْرًا إنْ أجْرِي إلاَّ على الَّذي فطرني أفلا تعْقِلُون (٥١) ويا قوْمِ اسْتغْفِرُوا ربَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إليْهِ يُرْسِلِ السَّماء عليْكُم مِّدْرارًا ويزِدْكُمْ قُوَّةً إلىٰ قُوَّتِكُمْ ولا تتولَّوْا مُجْرِمِين﴾(هود : ٥٠-٥٢).

يبدأ هود - عليه السلام - دعوته بقوله : (ياقوم) لأن هذا الخطاب أدعى إلى استجابتهم ، وإلى إشعارهم بأن من يخاطبهم هو منهم في النسب ، ثم يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ويبين لهم أن ما هم فيه من شرك إفتراء على الله . وهو يعظهم بأسلوب لا يخفى عليهم به أنه يناصحهم ويقصد نفعهم ، فهو لا يسألهم أجراً على دعوته ، وإنما أجره على من أرسله . ثم يدعوهم إلى التعقل والتفكر ، ويرغبهم فيما عند الله من الخير والقوة إن هم أقلعوا عن شركهم ورجعوا إلى ربهم .

هكذا يبدأ هود - عليه السلام - دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن المعاندين من قومه يبدءون المجادلة والمخاصمة ، وهى مجادلة بالباطل لأن مبناها على التمسك بموروث العادات وإلقاء التهم دون مبررات . ﴿ قالُوا يا هُودُ ما جِئْتنا بِبيِّنةٍ وما نحْنُ بِتارِكِي آلِهتِنا عن قوْلِك وما نحْنُ لك بِمُؤْمِنِين (٥٣) إن نَّقُولُ إلاَّ اعْتراك بعْضُ آلِهتِنا بِسُوءٍ﴾(هود : ٥٣، ٥٤). فيأتى رد الداعية بالمجادلة بالتى هى أحسن .

فهو يعلن أولاً براءته من شركهم ويشهد الله ويشهدهم على ذلك وهو ثانياً يتحداهم أن ينالوه هم وآلهتهم بكيدهم - حيث كانت تهمتهم أن الآلهة أصابته بخبل أو جنون - وهو بهذا التحدى يثبت ضعف وبطلان آلهتهم وبطلان عبادتها ، وهو ثالثاً يبين لهم أنه فى حصن حصين لأن اعتماده على من بيده الملك وله التصرف والسلطان ، وهو الحاكم العادل لأنه على صراط مستقيم .

﴿قال إنِّي أُشْهِدُ اللَّه واشْهدُوا أنِّي برِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُون (٥٤) مِن دُونِهِ فكِيدُونِي جمِيعًا ثُمَّ

لا تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(هود: ٥٤-٥٦).

بعض أساليب المجادلة بالتى هى أحسن :

١- ومن أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن - تقديم المسلمات :

وفى القرآن نماذج كثيرة لهذا الأسلوب فى المجادلة ، فهو يأمر الداعية أن يسألهم عن أمور هُمْ يُسَلِّمُون بها ليبنى عليها حجته أو توجيهه ، فالمقدمات المسلم بها تفضى إلى نتائج مُسَلَّمَة كذلك .

ففى سورة (المؤمنون) يقول الله تعالى راسما لرسوله - ﷺ - منهج الجدل بالتى هى أحسن فى مواجهة عنادهم وإنكارهم للبعث وإصرارهم على الشرك : ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٤، ٨٥). أفلا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعاً كان قادراً على إعادة الخلق ، وكان حقيقا بأن لا يشرك به بعض خلقه .

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (87) ﴾(المؤمنون :٨٦، ٨٧) . أفلا تخافونه فلا تشركوا به وتعصوا رسله . ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (89) ﴾(المؤمنون :٨٨، ٨٩) . فكيف تخدعون عن توحيده وطاعته ، والخادع هو الشيطان والهوى .(١) ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90) ﴾(المؤمنون ٩٠) حيث يدعون له ولدا ومعه شريكاً ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(المؤمنون : ٩١).

لو كان مع الله آلهة لا نفرد كل إله بخلقه واستبدَّ به ، وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب ، (ولعلا بعضهم على بعض) أى غلب القوى على الضعيف ، وقهره ، وأخذ ملكه ، فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلها ، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة فى ذلك ، وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه (٢)

وهذا ما يسمى دليل نفي التنازع والاستعلاء لانتفاء الشركاء .

(١) تفسير الكشاف . المجلد الثالث . ص ٤٠٠

(٢) تفسير فتح القدير المجلد الثالث ص: ٤٩٦

٢- من أساليب المجادلة بالتى هى أحسن - الانتقال من دليل إلى دليل أو من مثال إلى متال قطعا للمكابرة ، وإفحاماً للخصم :

ومن أمثلة ذلك محاجة إبراهيم - عليه السلام - مع النمرود :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(البقرة : ٢٥٨).

والذى حاج إبراهيم فى ربه هو نمرود ملك بابل ، ولقد أنكر أن يكون ثَمَّ إله غيره كما قال بهذه فرعون لملئه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة إلا تجبره ، وطول مدته فى الملك ، ولهذا قال الله فيه ﴿أن آتاه الله الملك﴾وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذى يدعو إليه ، فقال إبراهيم ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾أى إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل وجود الفاعل المختار ضرورة ، لأنها لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجد أوجدها ، وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعندئذ قال المحاج وهو النمرود ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت﴾ ، وذلك أنى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل ، فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة (١).

ولما رأى الخليل حماقته ، ومشاغبته فى الدليل عدل إلى دليل آخر أجدى وأروع وأشد إفحاما ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾أى إذا كنت تدعى الألوهية ، وأنك تحيى وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله - فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾أى أخرس الفاجر بالحجة القاطعة ، وأصبح مبهوتا دهشاً لا يستطيع الجواب (٢).

قال الزمخشرى : لما سمع إبراهيم - عليه السلام - جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ، لكنه انتقل إلى ما لا يقدر على مثل ذلك ليبهته أول شئ ، وهذا دليل على جواز الانتقال للمجادلة من حجة إلى حجة .

---

(١) تفسير ابن كثير المجلد الأول . ص.٣١٤

(٢) صفوة التفاسير المحلد الأول . ص : ١٦٥

قال أحمد : وقد التزم غير واحد من العلماء أن هذا الذى صدر من الخليل عليه الصلاة والسلام ليس بانتقال من الحجة . . . ولكن من المثال ، وأما الحجة فهى استدلاله على ألوهية الله تعالى بتعلق قدرته بما لا يجوز تعلق قدرة الحادث به ، ثم هذا له أمثلة : منها الإحياء والإماته ، ومنها الإتيان بالشمس من المشرق ، والعدول بعد قيام الحجة ، وتمهيد القاعدة من مثال إلى مثال ليس ببدع عند أهل الجدل والله أعلم (١) .

٣ - ومن أساليب المجادلة بالتى هى أحسن - مجاراة الخصوم ، واستدراجهم، وإرخاء العنان لهم ، والترقى معهم فى الاستدلال :

من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في سورة الأنعام : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام ٧٤-٧٩).

بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على إبراهيم فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾أى : وكما أرينا إبراهيم الحق فى خلاف ما عليه أبوه وقومه من الشرك - نريه أيضاً مظاهر ربوبيتنا ، ومالكيتنا للسموات والأرض ، ونطلعه على حقائقها ، ليزداد إيمانا على إيمانه ، وليكون من العالمين علما كاملاً لا يقبل الشك بأنه على الحق ، وأن مخالفيه على الباطل .

ثم بىن - سبحانه - ثمار تلك الإراءة التى أكرم الله بها نبيه إبراهيم ، فقال ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ .

والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم رأى كوكباً ، قال هذا ربى قال ذلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان ، مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب ، ليكر عليهم بالإبطال ، ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال .

---

(١) (الكشاف عن حقائق التنزيل جـ١ ص ٣٨٨

قال صاحب الكشاف : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلها لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها ، وانتقالها ومسيرها ، وسائر أحوالها ، وقول إبراهيم ﴿هَذا ربِّي﴾قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطَل ، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغب ، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة (١) .

وقوله : ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِين﴾ . أى : لا أحب عبادة الأرباب المتنقلين من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال ، لأن الأفول غياب وابتعاد ، وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده .

ثم بين - سبحانه - حالة ثانية من الحالات التى برهن بها إبراهيم على وحدانية الله فقال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾أى : فلما رأى إبراهيم القمر مبتدئا في الطلوع ، منتشراً ضوؤه من وراء الأفق قال هذا ربى ، ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ .

أى فلما أفل القمر كما أفل الكوكب من قبله ، قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى جناب الحق ، وإلى الطريق القويم الذى يرتضيه لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم ، لأن هذا القمر الذى يعتوره الأفول - أيضاً - لا يصلح أن يكون إلهاً .

وفى قول إبراهيم لقومه هذا القول تنبيه لهم لمعرفة الرب الحق ، وأنه واحد ، وأن الكوكب والقمر كليهما لا يستحقان الألوهية ، وفى هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير الكواكب ، ثم عرَّض بقومه بأنهم ضالون ، لأن قوله ﴿لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾يدخل فى نفوسهم الشك فى معتقدهم أنه لون من الضلال .

وإنما استدل على بطلان كون القمر إلها بعد أفوله ، ولم يستدل على بطلان ذلك بمجرد ظهوره مع أن أفوله محقق ، لأنه أراد أن يقيم استدلاله على المشاهدة لأنها أقوى ، وأقطع لحجة الخصم .

ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة التى استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك

(١) تفسير الكشاف المجلد الثانى ٣١ .

فقال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾أى : فلما رأى إبراهيم الشمس مستدئة فى الطلوع ، وقد عم نورها الآفاق ، قال مشيراً إليها : ﴿هَذَا رَبِّي هذا أَكْبَرُ﴾أى أكبر الكواكب جرما ، وأعظمها قوة ، فهو أولى بالألوهية إن كان المدار فيها على التفاضل والخصوصيةَ .

وقوله ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ تأكيدٌ لما رامه من إظهار النصفة للقوم ، ومبالغةٌ فى تلك المجاراة الظاهرة لهم ، وتمهيد قوى لإقامة الحجة البالغة عليهم ، واستدراج لهم إلى ما يريد أن يلقيه على مسامعهم بعد ذلك .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾أى : فلما غابت الشمس ، واحتجب ضوؤها ، جاهر إبراهيم قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها فقال : يا قوم إنى برىء من عبادة الأجرام المتغيرة التى يغشاها الأفول ، وبرىء من إشراككم مع الله آلهة أخرى .

قال الألوسى : إنما احتج - عليه السلام - بالأفول دون البزوغ مع أنه انتقال ، لأن الأفول متعدد الدلالة أيضاً ، إذ هو انتقال مع احتجاب ، ولا كذلك البزوغ ، ولأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة يعرفها كل أحد ، فإن الآفل يزول سلطانه وقت الأفول(١) .

هذا ، والمتأمل فى هذه الحالات الثلاث يرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك مع قومه أحكم طرق الاستدلال على وحدانية الله ، فقد ترقى معهم وهو يأخذ بيدهم إلى النتيجة التى يريدها بأسلوب يقنع العقول السليمة ، ورحم الله صاحب الانتصاف فقد بين ذلك بقوله : (والتعريض بضلالهم ثانياً) أى فى قوله : ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أصرح وأقوى من قوله أولاً ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد قامت عليهم بالاستدلال الأول حجة فأنسوا بالقدْح فى معتقدهم ، ولو قيل هذا فى الأول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون إلى الاستدلال فما عرض - صلوات الله عليه - بأنهم فى ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلي تمام المقصود ، واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى فى النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك - حين تم قيام الحجة ، وتبلج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود(٢) .

(١) تفسير الألوسى جـ٧ ص ٢٢٠ .

(٢) الانتصاف على الكشاف . لأحمد بن المنير جـ ٢ .

ثم ختم إبراهيم هذا الترقى فى الاستدلال على وحدانية الله بقوله كما حكى القرآن عنه : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أى : إنى صرفت وجهى وقلبى فى المحبة والعبادة لله الذى أوجد وأنشأ السموات والأرص على غير مثال سابق .

ومعنى ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة ، والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق .
وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى : وما أنا من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى ، لا فى أقوالهم ، ولا فى أفعالهم ، وقد أفادت هذه الجملة التأكيد لجملة (إنى وجهت وجهى . . . إلخ) .

وبذلك يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أقام الأدلة الحكيمة ، والبراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - وسفه المعبودات الباطلة وعابديها (1) .

* * * *

(1) التفسير الوسيط . سيد على طنطاوى . المجلد الخامس ص ١٤٦ . وما بعدها .

الفصل السادس

نموذج تطبيقى

لمنهج الإسلام العلمى

فى معالجة قضايا الدعوة

قضية البعث

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

قضية البعث

والآن أتناول قضية من أخطر قضايا الدعوة ، وهى قضية « البعث » لأن الاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الزاوية فى العقيدة الإسلامية ، كما أنه حجر الزاوية تصور الحياة الإنسانية ، وإليه مرد كل شىء فى هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم فى كل شأن من شئونها ، هذه القضية كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ، ومن ثم كانت عناية القرآن الكريم بتقريرها فى نفوسهم ، وعقولهم ، وقلوبهم بشتى الوسائل والأساليب .

وبالطبع لن أستطيع فى هذا المقام أن أتناول القضية من كل جوانبها ، ولا أن أسوق كل أساليب المنهج الإسلامى فى معالجتها ، لأن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل ، ولكننى هنا أعرض أسلوب المنهج فى معالجة القضية فى سورة واحدة من سور القرآن الكريم وهى : سورة سبأ .

بدأت السورة الكريمة فى الآيتين الأوليين بإثبات الحمد المطلق لله ، وإثبات العلم المطلق لله ، بأسلوب تقريرى فى صورة الشأن المسلَّم به ، الذى لا يقبل الإنكار أو الجدل ، ولا شك أنه تمهيد رائع لعرض قضية البعث وتهيئة العقول والقلوب لها ، وذلك لتعلق الحمد والعلم بالبعث . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (سبأ ١٠) فالله وحده هو المستحق للحمد . ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

لأن كل ما فى السموات والأرض ملكه وعبيده ، وتحت تصرفه وقهره ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ .

وهو وحده المستحق للحمد فى الآخرة ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ وفى ذلك إشعار بأن حكمة الله الخبير الذى لا تخفى عليه خافية اقتضت أن تكون للناس حياة باقية بعد هذه الحياة الفانية ، فمن حمده فى الأولى لربوبيته وألوهيته حمده فى الآخرة لعدالته ورحمته .

ثم تأتى الآية الثانية ، فتثبت العلم الشامل المحيط لله تعالى الذى ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (سبأ : : ٢) .

ويدخل فى علم الله ـ ما يلج فى الأرض من رفات الموتى ، وما يختلط بترابها من

ذرات أجسادهم ، فهو يحصى الأرزاق تنزل من السماء ، والأعمال تصعد إليها ، ثم هو الرحيم لا يعاجل العصاه بعقابه ، وإنما يؤخرهم ليوم الحساب . ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ .

ثم تبدأ السورة الكريمة فى مناقشة القضية . . إن المنهج الإسلامى فى معالجته لقضايا الدعوة ، يعرض أولا : موقف المدعوين من القضية وتصورهم لها ، بكل جلاء ووضوح ، وفى صراحة تامة ، ثم يأخذ فى الرد والتفنيد ووضع التصور الصحيح للقضية التى يعالجها ، ويواجه كل موقف بالمنهج الذى يناسبه ، وبالأسلوب الملائم .

تبدأ الآية الثالثة من السورة بعرض معتقد الكافرين في البعث ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ (سبأ : ٣) .

ويأتي الوحى ليلقن الداعية الرد الحاسم المؤكد ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾(سبأ : ٣) . هكذا بأسلوب القسم والتوكيد والذى يوحى بخطورة القضية ، قضية الساعة ، وخطورة إنكار الكفار لها . ثم أتبع هذا الرد بالأدلة الدامغة على مجىء الساعة أدلة لا ينكرها ذو عقل سليم :

الدليل الأول : علم الله ، فعلمه يقتضى وقوعها : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ : ٣) لأن من أسباب تكذيب المشركين بالبعث سوء ظنهم بعلم الله وقدرته فكانوا يستبعدون إعادة الخلق بعد أن يصيروا رفاتا وترابا ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ⦗١٥⦘ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (الصافات : ١٦) ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (السجدة : ١٠) أى أإذا غيبنا فى الأرض بأن صرنا ترابا مختلطا بترابها فهل نخلق من جديد ؟ !

وفى سورة «ق» يعرض القرآن الكريم عجب الكفار مما جاءهم به محمد ـ ﷺ ـ من نبأ البعث ، ويبين أن مصدر عجبهم هو جهلهم بعلم الله الذى يعلم ما تناثر من رفاتهم ، وما غيبته الأرض من أجسادهم ، فكل عنده فى كتاب محفوظ .

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ⦗١⦘ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ⦗٢⦘ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ⦗٣⦘ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ (ق : ١ ـ ٤) .

إن ابن قيم الجوزية رحمه الله . بعد أن عرض شبه المنكرين للمعاد يقول : فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول هى ، تقرير كمال علم الرب سبحانه ،

وتقرير كمال قدرته ، وتقرير كمال حكمته ، ثم يقول : ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع وأن كمال الرب تعالى ، وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائض (١).

الدليل الثاني : **عدل الله** ، فعدله يقتضي وقوعها وقد ساقت الآيتان الرابعة والخامسة من السورة هذا الدليل في قوله تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (سبأ : ٤ ، ٥) .

والقرآن الكريم يسوق هذا الدليل في كثير من سوره ، ففي سورة الروم - مثلا نرى عدالة الله تقتضي إيجاد يوم للحساب يثاب فيه المؤمن ويعاقب الكافر : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (الروم : ٤٤ ، ٤٥) .

إن ظلما عظيما يتأكد لو افترضنا أن يوم القيامة لن يجيء . . ولقد حرم الله تعالى الظلم علي نفسه ، وجعله محرماً بين عباده . . ومن تمام عدل الله وجود يوم للقيامة والحساب والجزاء . . كثيراً ما نرى الظالمين يذهبون بغير عقاب ، كثيراً ما نرى المعتدين يتمتعون في الحياة بالاحترام والسلطة . . أين تذهب شكاة المظلومين ؟ وأين يذهب ألم المضطهدين ؟ هل يدفن معهم في التراب بعد الموت ؟

إن الخير لا ينتصر دائما في الحياة . . أحيانا ينظم الشر جيوشه ويقتل حملة الخير ، هل تذهب هذه الجريمة بغير عقاب ؟

إن العدالة تقتضي وجود يوم القيامة . ذلك أن يوم القيامة . . هو اليوم الذى تعاد فيه جميع القضايا مرة أخرى أمام الخالق ، ويعاد نظرها مرة ثانية ، ويحكم فيها رب العالمين سبحانه ، وهذه هي الضرورة لقيام القيامة ، وهي تتصل بعدل الله ذاته (٢) .

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي : إن العدالة لا تتحقق في هذه الدنيا ، فهناك سفلة تبوءوا القمم ، وعباقرة توسدوا التراب ، وقتلى أزهق المجرمون أرواحهم وعادوا يضحكون أو يسكرون .

إن الآخرة حق لأنها تصحيح لأوضاع ، ورد لاعتبار ، وتحقيق لعدل اختبر الله الناس بتأخيره إلى حين ، هذا الحين جزء من نظام الدنيا ، ومن امتحاناتها الصعبة ،

---

(١) الفوائد : ابن قيم الجوزية . ص : ١٤ .

(٢) أنبياء الله . أحمد بهجت . دار الشروق . دار الشروق ط . ١٦ - ١٩٨٧ ص . ٦٢ .

ولابد من مراعاته ، ولذلك جاء فى الحديث القدسى ، فى إجابة دعوة المظلوم : « وعزتى وجلالى لأنصرنك ، ولو بعد حين » وجاء في انتصار المؤمنين على الكافرين : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (الصافات ١٧٤ - ١٧٨).

ولقد تكرر هذا الحين وانتظاره مرتين فى سياق متقارب ، لأن الله لا يعجل بعجلتنا ، لأن سنن الله الكونية فوق تفكيرنا المحدود ، ولكن وزن الذرة من الخير أو الشر لا يضيع أو ينسى [١].

الدليل الثالث : إيمان الذين أوتوا العلم : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (سبأ : ٦).

انتقل المنهج هنا من الأدلة المتعلقة بحقيقة البعث كضرورة تؤيدها الأدلة إلى دليل يتعلق بطبيعة المدعوين ، فالدعوة الإسلامية إلى كل طوائف الناس ، إلى العامة والخاصة ، إلى العالم والجاهل ، إلى من كانت له ديانة سماوية سابقة ومن لم يكن له ، ولا شك أن إيمان العالم حجة على الجاهل ، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (مريم : ٤٣) . سواء أكان المقصود بالذين « أوتو العلم » فى الآية الكريمة علماء أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار - رضى الله عنهما - أم كان اللفظ على إطلاقه يراد به كل من أوتى علما أنار بصيرته فعرف الحق وهدى إلى الصراط المستقيم - يقول صاحب الكشاف : فى تفسير « الذين أوتوا العلم » يعنى أصحاب رسول الله - ﷺ - ومن يطأ أعقابهم من أمته [٢].

فقد لزمتهم الحجة ، فما كان أحراهم أن يؤمنوا ما دام الذين أوتوا العلم قد آمنوا .

وهكذا تعرض السورة أدلة البعث بالمنهج الاستدلالى الرائع والذى يحيط بالخصم من جميع جوانبه فلا يستطيع فكاكا .

ولكن هل تجد الحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة سبيلها إلى العقول المغلقة ، والقلوب التى ران عليها الجهل ، وأعماها السلطان والاستكبار ؟ .

لقد تطور الصراع بين منكرى البعث وبين الداعية ، لم يكتفوا بمجرد الإنكار أو الاستبعاد وإنما لجئوا إلى أسلوب التحريض ضد الداعية ، والسخرية بما يدعوا إليه واتهامه بالافتراء علي الله ، ولكن الاتهام بالكذب قد لا يجد آذانا صاغية ، فالداعية

(١) مائة سؤال عن الإسلام . محمد الغزالى . ط أولى ١٩٨٤ . دار ثابت جـ١ ص : ٥٥ .

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل . الزمخشرى جـ٣ ص . ٢٨٠ دار الفكر . بيروت .

معروف بصدقة ، مشهود بأمانته ، إذا فليبحثوا عن تهمة أخرى يصدقها من يستبعد الأولى ، فاتهموه بالجنون ، وتمضي السورة تعرض هذا الموقف ، موقف التحريض والسخرية والاتهام : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ (سبأ ٧ ، ٨)أي جنون تخيل به البعث بعد الموت ، ويأتي الرد بما يناسب الموقف ـ صفعة على وجوه هؤلاء المكذبين الجاهلين فيقول : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ (سبأ : ٨) . فليس من أخبرهم عن ربه بأنهم سيبعثون بعد موتهم للحساب كاذبا ولا مجنوناً ، ولكنهم هم الذين يعيشون في ضلال وحيرة ، وعذاب وشقاء ، نتيجة تكذيبهم بالآخرة ، وهنا يبرز من خلال هذه الآية الكريمة دليل آخر على حقيقة البعث .

الدليل الرابع : هو ما يجده المؤمن بالآخرة ، المصدق بالبعث من سعادة وطمأنينة وهدوء بال ، وما يجده المكذب بالبعث من عذاب وشقاء ، وما يعيش فيه من تخبط وضلال . وهو ما ساقته الآية الثامنة من السورة الكريمة ردا على موقف التحريض والسخرية والاتهام : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ (سبأ : ٨) .

هذا الرد موجه في هذه المرة إلى القلوب يطرقها بعنف ، ويوقظ الإحساس والشعور . فالذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي ، لا أمل له ولا رجاء في نصفة ولا عدل ولا جزاء ، ولا عوض عما يلقاه في الحياة ، وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة ، وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء وإلا ابتغاء وجه الله والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الآخر ، الذي لا تضيع فيه صغيرة ولا كبيرة : ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ (لقمان : ١٦) .

الذي يحرم هذه النافذة المضيئة الندية المريحة يعيش ولا ريب في العذاب كما يعيش في الضلال ، يعيش فيها وهو حي على هذه الأرض قبل أن يلقى عذاب الآخرة جزاء على هذا العذاب الذي لقيه في دنياه [1] .

إن الاعتقاد بالآخرة رحمة ونعمة يهبهما الله لمن يستحقهما من عباده بإخلاص القلب ، وتحري الحق ، والرغبة في الهدى ، لا شك أن السعادة التي ينشدها الإنسان لن يتفيأ ظلالها إلا إذا كان موقنا باليوم الآخر ، وما أجمل تعبير الدكتور يوسف

---

(١) في ظلال القرآن . جـ ٥ ص : ٢٨٩٥

القرضاوى حين يقول : وإذا كانت السعادة شجرةً منبتها النفس البشرية والقلب الإنسانى ، فإن الإيمان بالله ، وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها وهواؤها وضياؤها [1]. ثم تنتقل السورة الكريمة إلى دليل آخر على البعث .

الدليل الخامس : **كمال قدرته تعالى** : ﴿ **أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ (سبأ . ٩) تأمل الآية الكريمة وما تحمله من تهديد يناسب موقف العناد ، والصلف ، والحمق ، لعلهم يفيقون من غفلتهم ، وينيبون إلى خالقهم ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ (سبأ : ٩) .

يقول العلامة جلال الدين المحلى فى تفسيره لهذا الجزء من الآية الكريمة : « إن فى ذلك » المرئى ـ أى آيات القدرة المرئية ـ لآية لكل عبد منيب راجع إلى ربه ، تدله ـ أى الآية ـ على قدرة الله على البعث [2].

إن المنهج الإسلامى بعد أن ألزمهم الحجة بالدلائل العقلية التى ساقها ـ كما رأينا ـ وبعد أن أيقظ قلوبهم ومشاعرهم ، يتجه فى هذه المرة إلى العقل والوجدان والأحاسيس والمشاعر جميعها ، إنه يلفت أنظارهم إلى استقراء الكون من حولهم ، سمائه وأرضه ، ليروا مظاهر قدرة الله وقهره ، وليدركوا مع هذه القدرة وهذا الفهم غاية ضعفهم ، وقلة حيلتهم ، فلو شاء أن يخسف بهم الأرض كما فعل بغيرهم ، ولو شاء أن يسقط السماء عليهم قطعاً من العذاب لفعل .

يقول صاحب الظلال – رحمه الله – فى تفسير هذه الآية الكريمة : هؤلاء المكذبون بالآخرة يوقظهم بعنف على مشهد كونى منتزع من مشاهداتهم أو من مدركاتهم المشهودة على كل حال ، فخسف الأرض يقع ويشهده الناس ، وترويه القصص والروايات أيضاً ، وسقوط قطع من السماء يقع كذلك عند سقوط الشهب وحدوث الصواعق ، وهم رأوا شيئاً من هذا أو سمعوا عنه ، فهذه اللمسة توقظ الغفاة الغافلين ، الذين يستبعدون مجيء الساعة ، والعذاب أقرب إليهم لو أراد الله أن يأخذهم به فى هذه الأرض قبل قيام الساعة . يمكن أن يقع بهم من هذه الأرض وهذه السماء التى يجدونها من بين أيديهم ومن خلفهم ، محيطة بهم وليست بعيدة عنهم قبل الساعة المغيبة فى علم الله .

---

(١) الإيمان والحياة · يوسف القرضاوى . ص . ٧٤ .

(٢) تفسير الجلالين . للإمامين جلال الدين السيوطى ، وجلال الدين المحلى . بتحقيق شعبان محمد إسماعيل ـ شركة الشمرلى . ١٩٧٩ ص : ٣٥٩ .

وفى هذا الذى يشهدونه من السماء والأرض ، والذى يتوقع من خسف الأرض فى أية لحظة ، أو سقوط قطع من السماء ، فى هذا آية للعبد الذى يرجع ويتوب : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ . . . . لا يضل ذلك الضلال البعيد (١) .

إن كمال قدرة الله تعالى فى الخلق والتدبير من أعظم أدلة البعث ، وإن القرآن الكريم فى كثير من سوره وآياته يعرض هذا الدليل فى أسلوب معجز يمسك بأزمة العقول ، ويمس شغاف القلوب .

فهذه سورة الروم تعرض علينا آيات الله الناطقة بقدرته على البعث ، وتهدى كل ذى فطرة سليمة ، وتبعث اليقين إلى كل ذى عقل متفتح ، وتبثّ الطمأنينة فى كل قلب ينبض بالحياة ، تبدأ الآيات بالتسبيح والتحميد ، ولقد بينت قبل ذلك أن البعث من موجبات الحمد لله لما فيه من كمال عدل الله ورحمته ، ثم يسوق حقيقة البعث سوقاً تقريراً فى أسلوب تشبيهى يحمل معه الدليل المرئى الملموس .

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الروم : ١٧-١٩) .

ثم يعرض بعد ذلك بعض مظاهر قدرته فى الأنفس والآفاق ، ما ينهض كل منها دليلاً دامغاً ، وحجة بالغة على البعث والنشور ، وتختم كل آية منها إما بدعوة إلى التفكر والتدبر ، أو بدعوة إلى التعلم والتبصر ، أو إلى إيقاظ حاسة متلبدة ، أو تنبيه عقل غافل .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (الروم : ٢٠-٢٥) ثم تعرض السورة مسألة الخلق الأول أو

---

(١) المرجع السابق . ص: ٢٨٩٦ (فى ظلال القرآن)

بدء الخلق كدليل عقلى على البعث ، فمن قدر على الخلق ابتداء كان على إعادته أقدر : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الروم : ٢٧) . والسورة نفسها تربط بين مظاهر قدرة الله والبعث فى آية رائعة بعد الحديث عن الرياح والسحاب المطر : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم : ٥٠)وفى سورة الأحقاف : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف : ٣٣) .

فالذى خلق السموات والأرض بقدرته ، ولم يعجزه خلقهن ، لأنه يخلق الأشياء بكلمة(كن)﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(يس : ٨٢) ، الذى يفعل ذلك قادر على أن يحيى الموتى ، وأن يبعثهم بعد أن مزقوا كل ممزق ، وضلوا فى الأرض ، واختلطت ذراتهم بترابها .

وفى سورة القيامة : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾(القيامة : ٣٦-٤٠) .

وفى سورة مريم : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾(مريم ٦٦ ، ٦٧) . وتأتى سورة الحج لتجمع بين آيتين من آيات قدرة الله تعالى تنهضان دليلين دامغين على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، وبعث الناس من قبورهم للحساب يوم القيامة ، وهما : دليل الخلق الأول ، ودليل إحياء الأرض بعد موتها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ (الحج : ٥-٧) .

نعود إلى سورة سبأ : يستطرد السياق فى السورة ليستكمل المنهج صورته فى

معالجة قضية البعث ، فبعد أن لفت أنظار المكذبين إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السموات والأرض بصورة عامة ، أراد أن يردهم إلى آثار قدرة الله متمثلة فى نموذجين من النماذج التاريخية . مستخدماً المنهج التاريخى أو ما يسمى بالمنهج الاستردادى - للوصول إلى غايته .

والنموذجان متباعدان مكانا ، متعارضان عقيدة وهدفاً ، مختلفان عاقبة ومآلاً ، ولكنهما يجتمعان فى سوق العبرة والعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

النموذج الأول : هناك فى الشمال فى القرى التى بارك الله فيها فى بلاد الشام - يتمثل فى عباد الله المؤمنين بالبعث ، المنيبين إلى الله الشاكرين لأنعمه ، العاملين لآخرتهم ، هذا النموذج يتمثل فى نبيين كريمين من أنبياء الله هما داود وابنه سليمان عليهما السلام ، لقد أخلصا العبادة لله ، وشاركا الكون تسبيحه وخضوعه لخالقه ، حتى بلغا من الشفافية أن انزاحت الحجب بينهما وبين الكائنات ، إذ لم يعد بين وجودهما ووجودها حاجز ولا فاصل ، فهذا داود - عليه السلام - تردد الجبال والطير تسبيحه ، وهذا الحديد يلين بين يديه ليصنع منه ما يشاء ، وهذا سليمان - عليه السلام- يسخر الله له الرياح تجرى بأمره رخاء حيث يشاء ، ويسخر له الجن تعمل بين يديه بإذن ربه ما يشاء .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ : ١٠- ١٣) .

وفى نهاية عرض هذا النموذج يشير إلى قضية الغيب - والبعث جزء منه - ليبين أن الغيب من اختصاص الله وحده ، فلا أحد يعلم الغيب . ولو كان من الجن . ولقد كانت عقائد المشركين الفاسدة تصور لهم أن الجن يعلمون الغيب ، فهذا سليمان - عليه السلام - يموت متكئاً على عصاه ، والجن يعملون مسخرين له فى أشق الأعمال، وما علمت الجن أنه مات إلا بعد أن سقط بسقوط عصاه ، حيث أكلتها دابة الأرض .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾(سبأ : ١٤) .

سبحان الله ، هذه الحشرة المتناهية فى الضعف والصغر ، يجعلها الله دليلاً لجبابرة الجن ومردتهم إلى ما جهلوه من موت نبى الله سليمان . . . إنها قدرة الله الذى استأثر بعلم الغيب . . . واستأثر بعلم الساعة ، لا يجليها لوقتها إلا هو .

والنموذج الثانى : هناك فى الجنوب - ويمثل الكافرين بأنعم الله ، المعرضين عنه المكذبين بلقائه ، الذين بطروا معيشتهم ، وجحدوا آيات الله ، وصدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ، لأنهم لم يؤمنو بالآخرة ، ولم يصدقوا بالبعث . . .

وهذا النموذج يتمثل فى قبيلة سبأ الذين سكنوا اليمن ، حيث كانوا فى رغد من العيش ، إن أقاموا ففى جنات وعيون ، وإن سافروا ففى أمن ونعيم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، وأشروا نعمتهم (١) .

ويبدوا من السياق أنهم كانوا يعرفون ربهم ، بدليل قول الله تعالى على لسانهم : ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ . ولكنهم كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور ، ولذلك استحوذ عليهم الشيطان ، فبدلهم الله بالرفاهية والنعماء خشونة وشدة ، ومزقهم كل ممزق حتى صاروا مضرب المثل فى التفرق والشتات .

وكما ختم عرض النموذج الأول بقضية الغيب ، فإنه يختم عرض النموذج المقابل بقضية الغواية ، غواية الشيطان للإنسان ، وبيان طبيعة العلاقة بينهما ، وأن الشيطان لا يملك سلطانا قاهراً على الإنسان ، وإنما هو التسليط بالغواية ، وتأتى هذه الخاتمة لتبين بوضوح وجلاء أن الإيمان باليوم الآخر وبالبعث للحساب عاصم للإنسان من غواية الشيطان .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ(٢) مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾(سبأ : ٢٠ ، ٢١) .

يقول صاحب الظلال رحمه الله : وما كان لإبليس من سلطان قاهر عليهم لا يملكون دفعه ، فليس هناك قهر لهم منه ، ولا سيطرة عليهم له ، إنما هو تسليطه عليهم

(١) لقد عرفنا من سورة النمل ما كان بين ملكة سبأ وسليمان عليه السلام وكيف انتهت القصة بإسلامها مع سليمان لله رب العالمين . ويبدو أن ما حدث لهم هنا كان بعد انقضاء عهدها .

(٢) جاء فى تفسير الجلالين : (لنعلم) أى علم ظهور . وجاء فى الظلال : الله يعلم ما يقع قبل ظهوره للناس ، ولكنه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلاً فى دنيا الناس .

ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيغ منهم من لا يبتغى الحق ويتحراه ، وليظهر فى عالم الواقع «من يؤمن بالآخرة» فيعصمه إيمانه من الانحراف . «ممن هو منها فى شك» فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية ، بلا عاصم من رقابة الله ، ولا تطلع لليوم الآخر . (١).

ولخطورة قضية البعث فإن القرآن الكريم لم يكتف فى تقريرها بالمنهج الاستدلالى ، أو المنهج الاستردادى (التاريخى) ، أو المنهج الجدلى ، كما رأينا من خلال استعراضنا لسورة (سبأ) ، وإنما استخدم - أيضاً - المنهج التجريبى فى عدة مواضع من القرآن الكريم لتقرير قضية البعث ، وبيان طلاقة القدرة الإلهية .

والقرآن الكريم يعرض التجربة تجرى أحياناً على يد أحد رسل الله وأنبيائه ، كما جاء فى تجربة إبراهيم - عليه السلام - ، وتجربة عيسى - عليه السلام - ، وقد يعرضها أحياناً أخرى من خلال قصة رجل أو رجال كانوا هم أنفسهم محلاً للتجربة - تجربة البعث بعد الموت ، أو إحياء الموتى - كقضية بنى إسرائيل حين قالوا لموسى - عليه السلام - أرنا الله جهرة ، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الرجل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، فقال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟

وسأعرض بعض هذه التجارب لتستكمل صورة المنهج العلمى للإسلام فى معالجة قضية البعث .

التجربة الأولى :

يقول الله تعالى فى معرض تذكير بنى إسرائيل بنعم الله عليهم : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة : ٥٥، ٥٦) اذكروا يا بنى إسرائيل حين خرجتم مع موسى لتعتذروا إلى الله من عبادة العجل ، فقلتم بعد أن سمعتم الله يكلم موسى : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ أى لن نصدق لك بأن ما نسمعه هو كلام الله ، ﴿حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى حتى نرى الله علانية ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أى أرسل الله عليكم ناراً من السماء فأحرقتكم ، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أى ما حل بكم . ثم لما ماتوا قام موسى يبكى ويدعو الله ويقول : رب ماذا أقول لبنى إسرائيل وقد أهلكت خيارهم ، ومازال يدعو ربه حتى أحياهم . قال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُم﴾ أى أحييناكم بعد أن مكثتم ميتين يوماً وليلة ، فقاموا

(١) فى ظلال القرآن : جـ ٥ ص : ٢٩٠٢

وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت [1].

والخطاب هنا لليهود الذين عاصروا نبينا محمداً - ﷺ - ، ولمن جاء فى أعقابهم إلى يوم القيامة . قال العلامة أبو السعود : وهذه المسألة - وهى طلب رؤية الله تعالى - وإن صدرت عن أسلافهم لكنهم لما كانوا مقتدين بهم فى كل ما يأتون ويذرون أسندت إليهم [2].

ولقد وردت حادثة الصعق هذه مرة أخرى فى سورة النساء ، دون ذكر الإحياء بعد الصعق ، لأنها جاءت فى معرض الحديث عن تعنت أحبار اليهود مع رسول الله - ﷺ - حين طلبوا منه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء جملة كما أتى به موسى جملة ، فذكر تعالى أنهم سألوا موسى ما هو أفظع وأشنع تسلية للنبى - ﷺ - : ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (النساء : ١٥٣) .

التجربة الثانية :

يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (البقرة : ٢٤٣) .

هكذا التجربة فى آية واحدة ، ألوف يخرجون من ديارهم هرباً من الجهاد ، أو هرباً من الطاعون ، لأنهم يقفون بالموت عند أسبابه الظاهرة ، فهم فى حاجة إلى الإيمان بأن وراء الأسباب الظاهرة إلها هو مسببها وخالقها ، وهو وحده القادر على إعمال الأسباب أو تعطيلها .

يقول المفسرون : هم قوم من بنى إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا خوفاً من الموت ، فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم بدعوة نبيهم (حزقيل) فعاشوا بعد ذلك دهراً ، وقيل هربوا من الطاعون فأماتهم الله ، ثم أحياهم . قال ابن كثير : وفى القصة عبرة على أنه لا يغنى حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه .

التجربة الثالثة :

(١) صفوة التفاسير . المجلد الأول . ص : ٦٠

(٢) تفسير أبى السعود . المجلد الأول . ص : ٣٩٤ .

قال الله تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة : ٢٥٩) .

اختلف المفسرون فى هذا المار . . . هل هو عزير ، أو الخضر ، أو رجل من بنى إسرائيل . وهل كا ن مؤمناً أو كافراً . . . وليس فى معرفته على وجه اليقين كبير غناء ، إذ لو كانت حكمة النص لا تتحقق إلا بذكره ما أهمله القرآن . كما اختلف فى القرية هل هى بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر ، أم غيرها . المهم أن التجربة تمت . . . وأن الرجل المشار إليه مر على القرية وهى خاوية على عروشها ، بما يوحيه هذا التعبير من مشهد البلى والدمار والخراب الذى حل بالقرية ، هذا المشهد الذى كان له وقعه العنيف على ذلك الرجل ، وجعله يسأل : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾كيف تدب الحياة فى هذا الموات ، بعد كل هذا الخراب ؟﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ .

يقول صاحب الظلال : لم يقل له كيف ، وإنما أراه فى عالم الواقع كيف ، فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلى ، ولا حتى بالمنطق الوجدانى ، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذى يراه العيان (١) ، وإنما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة ، التى يمتلئ بها الحس ، ويطمئن بها القلب ، دون الكلام .

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾وما يدريه كم لبث ، والإحساس بالزمن لا يكون إلا مع الحياة والوعى ، على أن الحس الإنسانى ليس هو المقياس الدقيق للحقيقة ، فهو يخدع ويضل ، فيرى الزمن الطويل المديد قصيراً لملابسة طارئة ، كما يرى اللحظة الصغيرة دهراً طويلاً لملابسة طارئة كذلك .

﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾وتبعاً لطبيعة التجربة ، وكونها حسية واقعية ، نتصور أنه لابد كانت هناك آثار محسوسة تصور فعل مائة عام ، هذه الآثار المحسوسة لم تكن فى طعام الرجل وشرابه ، فلم يكونا آسنين متعفنين .

---

(١) لعله يقصد بذلك ما يراه الإنسان فى الواقع العام من مظاهر قدرة الله كإحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى .

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ . وإذن فلابد أن هذه الآثار المحسوسة متمثلة فى شىء آخر . . . إنه حماره . . . ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ . لقد تعرت عظام حماره وتفسخت وتفرقت ، ثم كانت الآية هى ضم هذه العظام بعضها إلى بعض ، وإعادة تركيب كل عظمة موضعها ، ثم كسوتها باللحم ، وبعث الحياة فيها ، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى ، ولم يصب طعامه ولا شرابه التعفن ، ليكون هذا التباين فى المصائر والجميع فى مكان واحد ، معرضون لمؤثرات جوية وبيئية واحدة ، آية أخرى على القدرة التى لا يعجزها شىء ، والتى تتصرف مطلقة من كل قيد ، وليدرك الرجل كيف يحيى هذه الله بعد موتها . (١).

التجربة الرابعة :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٠).

وهكذا تجرى التجربة بتفاصيلها فى أسلوب معجز ، وفى آيه واحدة ، يسأل الخليل ـ عليه السلام ـ ربه عن كيفية إحياء الله للموتى ، مع إيمانه الجازم أن الله يحييها ، ولكنه يسأل عن الكيفية ليعلم بالعيان ما يوقن به العقل والوجدان ، ويسأله ربه ـ وهو الأعلم ـ عن سبب سؤاله : ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ لكن يجيب إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ليسكن قلبى عن الجولان فى تطلعه وتشوقه إلى رؤية يد القدرة الإلهية كيف تحيي الموتى . وإن كان هذا القلب السليم ـ قلب إبراهيم ـ يطمئن كل الاطمئنان إلى الإيمان بأن الله هو المحيي المميت .

ويأمره ربه أن يأخذ أربعة من الطير فيضممهن إليه ، ثم يقطعهن ، ويخلط بعضهن ببعض ، حتى يصبحن كتلة واحدة ، ثم يفرق أجزاءهن على رءوس الجبال ، ثم يناديهن ، فيأتينه مسرعات . قال مجاهد : كانت طاووسا وغرابا وحمامة وديكا ، ذبحهن ، ثم قطعهن ، ثم خلط بعضهن ببعض ، حتى اختلط ريشها ودماؤها ولحومها ، ثم أمسك برءوسها عنده ، وجزأها أجزاء على الجبال ، ثم دعاهن كما أمره

(١) فى ظلال القرآن . المجلد الأول . ص : ٣٠٠.

(٢) صفوة التفاسير . المجلد الأول . ص : ١٦٤

تعالى ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلي اللحم، حتى عادت طيرا كما كانت ، وأتينه سعيا ليكون أبلغ له فى الرؤية .[٢]

وتعددت أقول المفسرين حول ما دار من حوار بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وربه عز وجل فى هذه القصة . ولكننى اخترت منها ما قاله الإمام أحمد بن المنير صاحب كتاب الإنصاف ، يقول : أما سؤال الخليل ـ عليه السلام ـ بقوله : كيف تحيى الموتى ؟ فليس عن شك ـ والعياذ بالله ـ فى قدرة الله على الإحياء ، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ، ولا يشترط فى الإيمان الإحاطة بصورتها ، وإنما هى طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه ، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف ، وموضعها السؤال عن الحال ، وإذا توهم متوهم أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ تطرق إليه شك فسأل ربه ، فإنه النبى ـ ﷺ ـ قطع دابر هذا الوهم ، بقوله : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » أى ونحن لم نشك ، فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى . أما سؤال الله لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ فإنما أراد الله به أن ينطق إبراهيم بما نطق به : بلى آمنت ليظهر تمام إيمان إبراهيم ـ عليه السلام ـ فإن قلت : فما موقع قول إبراهيم : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ، وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة ؟ قلت : معناه ، ولكن ليزول من قلبى الفكر فى كيفية الحياة ، لأننى إذا شاهدتها سكن قلبى عن الجولان فى كيفياتها المتخيلة ، وتعينت عندى بالتصوير المشاهد .[١]

التجربة الخامسة :

وهى التى أجراها الله تعالى على يد عيسى ـ عليه السلام ـ ، وقد ورد ذكرها مرة فى سورة آل عمران فى سياق الحديث عن بشارة الملائكة لمريم بمولد عيسى ـ عليه السلام ـ على غير مثال سابق ، وبشارتهم لها بصفاته ، ورسالته ، ومعجزاته . قال تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ٤٩) ومرة فى سورة المائدة فى سياق مخاطبة الله لعيسى ـ عليه السلام ـ يمتن عليه بنعمه التى أسبغها عليه وعلى والدته ، وفيها ما أجراه على يده من تجربة إنشاء

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . أحمد بن محمد المنير . مطبوع مع الكشاف للزمخشرى . المجلد الأول ص : ٣٩١ دار الفكر . بيروت . بتصرف .

الحياة عند النفخ فى صور الطير ، أو رد الحياة إلى من مات ، أو رد العافية ـ وهى فرع الحياة ـ إلى الأكمه والأبرص بإذن الله .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة : ١١٠) يقول ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وكذلك كان يفعل ، يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عيانا بإذن الله عز وجل ، الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله . ويقول فى تفسير قول الله تعالى : ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبى من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب فى زمان موسى ـ عليه السلام ـ السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار ، وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار ، انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار .

وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد ، وكذلك محمد ـ ﷺ ـ بعث فى زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء ، فأتاهم بكتاب الله عز وجل فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبدا . (١).

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

(١) تفسير ابن كثير ، المجلد الأول . ص : ٣٦٥.

خاتمة

إتماما لخطة البحث أود أن أصع بين يدى القارئ بعض الحقائق التى برزت من خلال محاولات الإجابة عن الأسئلة التى وصعتها فى أول البحث ، ومن خلال تتبعى وتأملى لآيات القران الكريم المتصلة بالموضوع ، ومن خلال بحثى عن أقوال وآراء العلماء والمفسرين والمفكرين قديما وحديثا حول موضوع البحث .

١ ـ تاريخ الإسلام بدأ قبل خلق آدم عليه السلام ، فقد خلق الله الكون مسلما مسبحا منقادا ، فالإسلام قبل الإنسان .

٢ ـ تاريخ الأمة المسلمة ، وهى الواقع التطبيقى لدين الإسلام ـ يبدأ منذ خلق الله آدم عليه السلام مسلما مفطور على الإسلام ، وجميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ بعثوا بدين واحد هو الإسلام .

٣ ـ الغزو الفكرى الإلحادى يهدف من وراء التجاهل والتجهيل بالبداية الحقيقية لتاريخ الأمة المسلمة ، وتشويه سير الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ إلى إنكار الرسالات ، تم تفسير القضايا الدينية تفسيراً تاريخياً ، ليصلوا بذلك إلى أن الدين من صنع البشر .

٤ ـ إن ما يسمى بمنهج مقارنة الأديان منهج فاسد يخالف التصور الإسلامى عن الكون والإنسان ، والغاية من الخلق ، هذا المنهج يتبناه التآمر العالمى على الإسلام بهدف إزالة الفواصل بين الإسلام كدين صحيح وغيره من العقائد والديانات الفاسدة .

٥ ـ يجب رفض المصادر والمراجع التى تتبنى الاتجاه المعادى للإسلام والتى تعتمد فى معظمها على التوراه والتلمود ، والتفاسير والشروح العبرانية والأناجيل بالإضافة إلى مصادر أخرى لا تصمد أمام الجرح والتعديل ، ولا يعتد بها من الناحية الشرعية .

٦ ـ الرسل ـ عليهم السلام ـ هم رجال اصطفاهم الله تعالى ، وبعثهم برسالة كلفهم حملها ، وتبليغها للناس ، ومنحهم من الصفات ما يهيئهم لتلقى الوحى الإلهى وما يمكنهم من تحمل مسئولية الدعوة إلى الله .

٧ ـ من فضل الله على خلقه ، ورحمته بهم ، أن أرسل إليهم رسلا منهم ، ليعيدوا إلى الفطرة إشراقتها واستقامتها ، ويطهروها من شوائب الشرك والوثنية ويجبروا قصور العقل البشرى .

٨ ـ إن التطور المادى الذى لم يصحبه سند من روح تطور خطر ، لا غاية له إلى الخراب والدمار ، ونحن فى هذا العصر أحوج ما نكون إلى تعاليم الرسل لصلاح قلوبنا ، وهداية عقولنا .

٩ ـ الدعوة الإسلامية هى النظام العام ، والقانون الشامل لأمور الحياة ، ومناهج السلوك الإنسانى ، التى جاء بها رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

١٠ ـ العقيدة هى جوهر الرسالات كلها ، ودعوة الرسل الكرام إلى مكارم الأخلاق ، كانت تواكب دعوتهم إلي توحيد الله ، وكل دعوة لها شريعة تناسب عصرها ، والإسلام فى عصر كل رسول يوجب تعانق العقيدة مع الشريعة .

١١ ـ القرآن الكريم كتاب الدعوة الخالد ، وهو المعجزة العلمية العقلية المتجددة والباقية حتى قيام الساعة ، وهو الذي يحمل إلينا منهج الرسل فى الدعوة إلى الله .

١٢ ـ إن الدعوة الخاتمة هى دعوة محمد ـ ص ـ . وشريعته نسخت كل الشرائع ، ولقد تميزت بالشمول والعموم والوسطية ، وستظل دعوة ربانية لم يصب كتابها تحريف أو تغيير أو تبديل كما أصاب الكتب السابقة .

١٣ ـ دعوات الرسل ـ عليهم السلام ـ متتابعة ومترابطة ، فالمصدر واحد والهدف واحد ، والمنهج واحد ، ووحدة سير الرسل دليل علمى على صدقهم .

١٤ ـ إن الهدف الأساسى الذى يقف خلف قصص الأنبياء ، والعروض التاريخية التى يقدمها هذا القصص الحق ، يتمثل فى إثارة الفكر البشرى ، ودفعه للبحث عن الحق ، وتقديم خلاصات للتجارب البشرية ، والخروج بالعبر والسنن التى تحكم حركة الإنسان ومصيره ، والتأكيد على وحدة الدعوة التى نادى بها كل الرسل والأنبياء .

١٥ ـ قصة آدم ـ عليه السلام ـ أبى البشر وأول الأنبياء ، تعطينا التصور الإسلامى الصحيح عن الإنسان ودوره فى الأرض ، ومكانه فى نظام الوجود .

١٦ ـ الإسلام دين العلم ، ودين العقل ، ودين النظر الصحيح ، بل إنه يطلب من أعدائه أن يستخدموا عقولهم ، ويقدموا الدليل على دعواهم : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ .

١٧ ـ أعداء الإسلام حاولوا فصل الإسلام عن العلم ، رما عن جهل بحقيقة الإسلام زو عن عمد لإخفاء الإعجاز العلمى للقرآن والسنة والعلاج هو تربية جيل من العلماء يمارسون مشاهدة الظواهر ، والبحث عن الحقائق على هدى الأسلوب القرآنى للفكر والنظر .

١٨ ـ إذا كان المنهج بالمعنى المستعمل اليوم هو الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة فى العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل ، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيحة نعلومة ، فإن من الممكن أن نفهم هذا اللفظ بمعنى عام ، فتدخل تحته كل طريقة تؤدى إلى غرض معلوم نريد تحقيقه .

١٩ ـ عدد المناهج لا يكاد ينحصر ، ففى داخل كل منهج عدة مناهج ، ولكن من الممكن أن ترد هذه المناهج إلى مناهج نموذجية قليلة يمكن حصرها فى :ـ المنهج الاستدلالى أو الرياضى ، والمهج التجريبى ، والمنهج الجدلى ، والفصل بين المناهج العلمية غير ممكن فى البحث العلمى .

٢٠ ـ أصول المناهج العلمية موجودة فى إسلامنا ، فى كتابنا ، فى دعوتنا ، فى تراث أسلافنا ، وهى أصول تحمل التصور الإسلامى ، ولا تنفك عنه ، ولذا فهى تبنى الحياة ، وتعمر الأرض ، وتسعد البشر .

٢١ ـ الاتجاه التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الأوروبية الحاضرة استمد أصوله من التصور الإسلامى وتوجيهاته إلى النظر فى الكون ، والكشف عن نواميسه وأسراره ، ثم قطعت أوربا بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية وشردت به بعيداً عن الله ، فكان ما كان من شرور وفساد .

٢٢ ـ المناهج العلمية الوضعية مناهج غير يقينية وناقصة ، والأخذ بمنهج محدد وبخاصة فيما يتعلق بالإنسان إنما يقوم على فهم ساذج للإنسان وطاقاته .

٢٣ ـ المنهج الإسلامى يقوم على العلم المطلق ، وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله لأن صاحبه هو صانع الكون وصانع الإنسان من العبودية .

٢٤ ـ الإسلام منهج يعالج كل قضايا الإنسان ، وكل قضايا مجتمعه ، وهى قضايا غاية فى التعقيد والتشابك والتداخل ، ولا يمكن لأى منهج ـ غير منهج الإسلام ـ إن يدرس الإنسان والمجتمع الإنسانى ويعالج قضايا .

٢٥ ـ منهج الإسلام العلمى فى الدعوة يقوم على أساس من اختيار الداعيه واحتيار مكان الدعوة وزمانها ويركز على منافذ العلم وأدوات التحصيل وينظر إلى الإنسان الذى هو محور الدعوة وهدفها ـ نظرة شاملة ، ويخاطب عقله وقلبه جميعا ، وينظر إلى المحتمع نظرة شاملة ، ويستخدم المنهج التاريخى فى الدعوة ، لأنه إبرار لسنن الله فى المجتمعات ، ثم يستحدم الأساليب التى أمر الله بها ، من الحكمه والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، وهو يأخذ بكل المناهج العلمية فى معالحة قضايا الدعوة ، لأنها قضايا الإنسان بكل تعقيداته ، وقضايا المجتمع بكل تناقضاته ، وهى مناهج تامة يقينية لأنها من صنع الله خالق الكون وخالق الإنسان

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

المصادر و المراجع

أولاً : القرآن الكريم

ثانياً : فى التفسير

١ ـ تفسير ابن كثير . للإمام إسماعيل ابن كثير الدمشقى . دار الفكر . بيروت ١٩٨٦ .

٢ ـ تفسير أبى السعود . للإمام محمد بن محمد العمادى . دار إحياء التراث . بيروت

٣ ـ تفسير الجلالين . للإمامين جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى . بتحقيق وتعليق شعبان محمد إسماعيل . شركة الشمرلى ١٩٧٩ م .

٤ ـ تفسير روح المعانى . للإمام الألوسى (شهاب الدين السيد محمود) دارالتراث العربى . لبنان

٥ ـ تفسير القرآن الكريم . الأجزاء العشرة الأولى . للشيخ محمود شلتوت . دار القلم . القاهرة

٦ ـ التفسير الواضح . د. محمد محمود حجازى . دار الكتاب العربى . بيروت .

٧ ـ تفسير المراغى : الشيخ أحمد مصطفى المراغى . مكتبة الحلبى . القاهرة ط أولى ١٩٤٦

٨ ـ تفسير المنار . السيد محمد رشيد رضا . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٧٣

٩ ـ التفسير الوسيط . د . سيد على طنطاوى .

١٠ ـ دقائق التفسير الجامع . لتفسير ابن تيمية . تحقيق محمد سليمان جليند . مؤسسة علوم القرآن . ط ثانية ١٩٨٤م .

١١ ـ زبدة التفسير من فتح القدير . الشيخ محمد سليمان الأشقر ، وزارة الأقاف . الكويت . ط أولى ١٩٨٥م

١٢ ـ صفوة التفاسير . الشيخ محمد على الصابونى . دار القلم . بيروت ط ٤ ١٩٨١م

١٣ ـ فى ظلال القرآن الشهيد سيد قطب . دار الشروق ١١ ١٩٨٥م

١٤ ـ فتح القدير للشوكاني . الإمام محمد بن علي الشوكاني . دار المعرفة بيروت .
١٥ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل . للإمام الزمخشري . دار الفكر . بيروت ط أولى ١٩٨٣م
١٦ ـ تفسير جزء عم . الإمام محمد عبده . مطابع الشعب القاهرة .

ثالثا : في علوم القرآن وإعجازه

١٧ ـ الإعجاز العلمي في القرآن . د . السيد الجميلي دار الفكر اللبناني . ط أولى ١٩٨٧
١٨ ـ تاريخ القران الكريم . الشيخ محمد سالم محيس . مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية .
١٩ ـ مدخل إلى القرآن الكريم . د . محمد عد الله دراز . دار القلم . الكويت ط ثانية ١٩٧٤
٢٠ ـ النبأ العظيم . د. محمد عبد الله دراز . دار القلم الكويت ط ثالثة ١٩٨٨ م
٢١ ـ مأدبة الله في الأرض . الشيخ أحمد محمد جمال . دار إحياء العلوم . بيروت . ط ثانية ١٩٨٨م .
٢٢ ـ الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . للإمام أحمد بن محمد بن المنير . دار الفكر ط أولى ١٩٨٣ .

رابعاً : في الحديث الشريف

٢٣ ـ الأذكار . للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي . المكتبة العلمية ط ثانية ١٩٧٧
٢٤ ـ الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي . لأبي عيسى محمد بن عيسى تحقيق إبراهيم عطوه .
٢٥ ـ صحيح البخاري بحاشية السندي . دار المعرفة . بيروت .
٢٦ ـ صحيح مسلم بشرح النووي . دار الريان للتراث . القاهرة ط أولى ١٩٨٧ م
٢٧ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . محمد فؤاد عبد الباقي . دارالريان ١٩٨٦ .
٢٨ ـ المنهل الحديث . أحاديث مختارة من البخاري . الشيخ موسى لاشين . مطبعةالفجر الجديد .

خامساً : السيرة والتاريخ وقصص الأنبياء

٢٩ ـ البداية والنهاية ، للإمام ابن كثير . دار المعارف . بيروت ط ثانية ١٩٧٧م
٣٠ ـ أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ . د. جمال عبد الهادي مسعود . دار طيبة ط ثانية ١٩٧٧
٣١ ـ أنبياء الله . للأستاد / زحمد بهجت . دار الشروق ط ١٦ . ١٩٨٧ م
٣٢ ـ قصص الأنبياء . للأستاذ / عبد الوهاب النجار . دار الكتب العلمية . بيروت ط ثالثة ١٩٨٦ .
٣٣ ـ السيرة النبوية لابن هشام . تقديم طه عبد الرؤف . دار الجيل لبنان .

٣٤ ـ نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . للشيخ محمد الخضرى . دار الكتب العلمية . بيروت
٣٥ ـ تهذيب سيرة ابن هشام . عبد السلام هارون . دار البحوث العلمية . الكويت .
٣٦ ـ الرسل والرسالات . د . عمر سليمان الأشقر . مكتبة الفلاح . الكويت . ط ثالثة ١٩٨٥ .

سادساً : فى العقائد

٣٧ ـ العقيدة . للشيخ سليمان محمدعطا وآخرين ط ٤ ١٩٨١ م وزارة الأوقاف . الكويت
٣٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية خرج أحاديثها . الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى . المكتب الإسلامى ط ثانية ١٩٨٤ م
٣٩ ـ عقيدة المسلم . الشيخ محمد الغزالى . دار الكتب الإسلامية . القاهرة ط ٤ ١٩٨٤

سابعاً : فى الدعوة

٤٠ ـ ادع إلى سبيل ربك . د . مصلح بيومى . دار القلم . الكويت . ط رابعة ١٩٨٦ م
٤١ ـ أصول الدعوة . د . عبد الكريم زيدان . مؤسسة الرسالة . عمان . ط ٣ ١٩٨٨ م
٤٢ ـ دعوة الإسلام . الشيخ سيد سابق . دار الكتاب العربى . بيروت ط أولى .
٤٣ ـ الدعوة الإسلامية . أصولها ووسائلها . د . أحمد غلوش . دار الكتاب المصرى . القاهرة ١٩٧٧ م .
٤٤ ـ الدعوة والداعية فى ضوء سورة الفرقان . محمد سعيد الباروى . دار الوفاء . جدة ١٩٧٨م
٤٥ ـ فق الدعوة . الشهيد سيد قطب . مؤسسة الرسالة . ط أولى ١٩٧٠م
٤٦ ـ مجموعة رسائل . الإمام الشهيد حسن البنا . المؤسسة الإسلامية . ط ٢ ١٩٨١ م
٤٧ ـ معالم الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى . د . خليفة حسين العسال . دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

ثامناً : فى المناهج والتربية

٤٨ ـ فضاء المعرفة د . عادل عبد الكريم ياسين . مؤسسة التقدم العلمى الكويت ط أولي ١٩٨٤م
٤٩ ـ مناهج البحث العلمى . د . أحمد بدوى . وكالة المطبوعات . الكويت ط ثالثة ١٩٧٧
٥٠ ـ مناهج البحث في التربية وعلم النفس ديو بولدبفان دالين . ترجمة محمد نبيل نوفل . مكتبة الأنجلو . القاهر ١٩٧٩م
٥١ ـ المنهج الإسلامى فى دراسة المجتمع . د . محمد توفيق السمالوطى . دار الشروق ط أولى ١٩٨٠م

٥٢ ـ منهج الأنبياء فى الدعوة إلى الله . الأستاذ / محمد سرور . دار الأرقم برمنجهام بريطانيا ط ثانية ١٩٨٨ م

٥٣ ـ السبق التربوى فى فكر الشافعى الأستاذ / بدر محمد ملك وخليل أبو طالب . مكتبة المنار الإسلامى الكويت . ط أولى ١٩٨٩م

٥٤ ـ توجيهات تربوية مستقبلية لبناء الإنسان الصالح فى الوطن العربى . (محاضرة) مارس ١٩٨٨ م جمعية المعلمين الكويتية الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق .

تاسعاً : فى أصول الفقه

٥٥ ـ علم أصول الفقة . الشيخ عبد الوهاب حلاف دار القلم . الكويت ط ١٧ . ١٩٨٨ م

٥٦ ـ الأصول من الأصول . الشيخ محمد بن صالح العثيمين . دار عالم الكتب . الرياض .

عاشراً : معاجم لغوية وإسلامية

٥٧ ـ أساس البلاعة ، للزمخشرى (محمود بن عمرو الزمخشرى) . دار صادر . بيروت . ١٩٦٥

٥٨ ـ تاج العروس . محمد مرتضى الزبيدى . مطبعة حكومة الكويت . ١٩٦٥م

٥٩ ـ تفسير غريب القرآن ـ لابن قتيبة . تحقيق السيد أحمد صقر . دار الكتب العلمية . بيروت

٦٠ ـ قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية . محمد إسماعيل إبراهيم . دار الفكر العربى ط أولى ١٩٦١م .

٦١ ـ مختار الصحاح . محمد بن أبى بكر الرازى . مكتبة لبنان ١٩٨٨م .

٦٢ ـ المصباح المنير . أحمد بن محمد على المقرى . دار القلم . بيروت

٦٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى . نشر أ ى . ونسنك . مكتبة بريل فى ليدن ١٩٢٦م

٦٤ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى . دار مطابع الشعب القاهرة .

٦٥ ـ المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم . محمد منير الدمشقى . مكتبة التراث الإسلامى القاهرة .

٦٦ ـ لسان العرب لابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم) دار صادر . بيروت .

حادى عشر : فى الثقافة والفكر الإسلامى

٦٧ـ الإسلام فى عصر العلم . الأستاذ / محمد فريد وجدى . دار الكتاب العربى . ط ثالثة ١٩٧٦

٦٨ ـ الإسلام يتحدى . للمفكر وحيد الدين خان ترجمة ظفر الإسلام . المختار الإسلامى القاهرة ط٧ ١٩٧٧م

٦٩ ـ الإسلام فى معركة الحضارة الأستاد/ منير شفيق . دار القلم . الكويت . ١٩٨٩ .

٧٠ ـ إسلامنا . الشيخ السيد سابق . دار الكتاب العربى . بيروت .

٧١ ـ الإيمان والحياة . د . يوسف القرضاوى مكتبة وهبة . القاهرة . ط ١٩٨٠م

٧٢ ـ الحق المر . الشيخ محمد الغزالى . دار الشروق ط أولى ١٩٨٩ م

٧٣ ـ حجة الله البالغة العلامة ولى الدين الدهلوى . دار المعارف . بيروت

٧٤ ـ روح الدين الإسلامى . الأستاذ/ عفيفى طبارة دار العلم للملايين . بيروت ط٢٠ ١٩٨٠

٧٥ ـ الروح لابن القيم ابن قيم الجوزية . مكتبة المتنبى . القاهرة .

٧٦ ـ الفوائد لابن القيم . ابن قيم الجورية . مكتبة المتنبى . القاهرة .

٧٧ ـ الفكر الإسلامى . د محمد الصادق عفيفى . مكتبة الخانجى . القاهرة

٧٨ ـ أضواء على الفكر العربى الإسلامى . الأستاذ/ أنور الجندى ؛ . الهيئة المصرية العامة الكتاب . ١٩٨٦م

٧٩ ـ الطريق من هنا . الشيخ الغزالى وزارة الأوقاف . الكويت . ط أولى ١٩٨٦ م

٨٠ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع ابن قاسم . طبع الرياض ط أولى

٨١ ـ معالم فى الطريق . الشهيد سيد قطب . مكتبة وهبة القاهرة . ط أولى ١٩٦٤

٨٢ ـ الوقت فى حياة المسلم د . يوسف القرضاوى . مؤسسة الرسالة ١٩٨٤م

٨٣ ـ نحن والحضارة العربية . أبو الأعلى المودودى . مؤسسة الرسالة

٨٤ ـ التربية الإسلامية للصف الثانى الثانوى . للأستاذ/ محمد عبد الحليم الشيخ وآخرين . وزارة التربية . الكويت ط رابعة ١٩٨٣م

٨٥ ـ التربية الإسلامية للصف الثالث الثانوى . د . على عبد المنعم وآخرين وزارة التربية الكويت . ط ثانية . ١٩٨٤م

ثانى عشر : صحف ومجلات

٨٦ ـ جريدة الأهرام . القاهرة . الخميس الموافق ٨/ ٢/ ١٩٩٠ تحت عنوان يوميات .

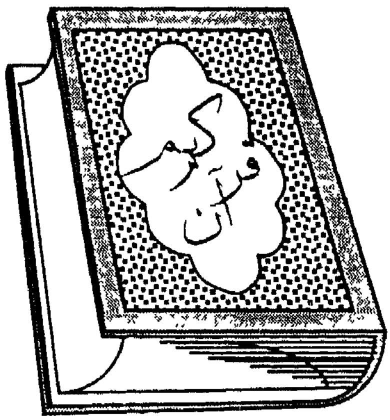
٨٧ ـ المجلة الخيرية . العدد ١١ براير ١٩٩٠م

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة :	أ
تقـديم :	ز
الفصل الأول : الإسلام دين الأنبياء والرسل جميعاً	١
١ـ الإسلام قبل الإنسان	٢
٢ـ تاريخ الأمة المسلمة	٣
٣ـ مواجهة الفكر الإلحادى	١١
٤ ـ رفض المصادر والمراجع التى تتبنى الاتجاه المعادى للإسلام	١٣
الفصل الثانى : دعوة الرسل	١٧
١ـ تعريف بالرسل	١٨
أـ هل الرسل غير الأنبياء ؟	١٨
بـ عدد الرسل	١٩
جـ أولو العزم من الرسل	٢٠
دـ صفه الرسل	٢١
هـ تفاوت أقدار الرسل	٢٣
٢ـ حاجة الناس إلى الرسل	٢٤
٣ـ تعريف الدعوة	٢٨
٤ـ موضوع الدعوة	٣٢
أـ العقيدة	٣٢
بـ الشريعة	٣٣
جـ الأخلاق	٣٦
٥ـ كتاب الدعوة (القران الكريم)	٣٩

الفهرس

الفهرس



هذا الكتاب

منهج الإسلام العلمي في الدعوة

منهج الإسلام العلمي في دعوة الرسل يقوم على أساس من اختيار الداعية واختيار مكان الدعوة واختيار زمانها ويركز على منافذ العلم وأدوات التحصيل وينظر إلى الإنسان الذي هو محور الدعوة وهدفها نظرة شاملة ويخاطب عقله وقلبه جميعا وينظر إلى المجتمع نظرة شاملة ويستخدم المنهج التاريخي في الدعوة لأنه إبرازاً لسنن الله في المجتمعات

ثم يستخدم الأساليب التي أمر الله بها من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن وهو يأخذ بكل المناهج العلمية لمعالجة قضايا الدعوة لأنها قضايا الإنسان بكل تعقيداته وقضايا المجتمع بكل تناقضاته وهي مناهج تامة تقينية لأنها من صنع الله خالق الكون وخالق الإنسان . .

حول هذه القضايا الهامة يدور هذا الكتاب . . .

ودار البشير إذ تقدم هذا الكتاب للأمة الإسلامية نسأل الله ـ عز وجل ـ أن ينفع به وأن يجعله في ميزان حسنات من قام عليه وعلى إخراجه . .

والله من وراء القصد . .

دار البشير للثقافة والعلوم

طنطا أمام كلية التربية النوعية

تليفاكس: 308909 - 302404 ☎ 228277 ـ 210907

وكلاء التوزيع بالدول العربية

[illegible]

07 / 867099 [illegible]

07 / 867099 [illegible]

[illegible] 304285 [illegible] 444539